فريق
متميزون
E-BOOK

عبد الرحمن أمجد

رواية

دم الفضة

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:
هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.
مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

دم الفضة

رواية

الكاتب: عبد الرحمن أمجد

إهداء..

إلى من سيتذكرني بعد موتي..

شكرًا لك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمهيد..

مما قيل في أثر الأولين وقصص الغابرين أن للأرض عينًا بيضاء كغرر الجياد، تبرز منها ميثاء بطولها الفارع.. تطل على العالم، تظله بأغصانها المتشابكة، تزهر كل خريف فتلعن برحيقها كل من يشتمه.

مدن بأكملها اعتلتها الأشجار، وجوه الملعونين الصارخة بصمت لا تزال شاخصة على لحائها الأسود، أوراقهم زرقاء لامعة كأحجار الزفير وقد أكسبتهم ذات الاسم، تضرَّع البشر أيامًا لا يملكون من أمرهم شيئًا، إلى أن أتى كما رآه الناس مجندلًا بالجراح، برزت على محياه ابتسامة نصر زائفة، قيل إنه الموعود... أنه من بنى الأرض كما كانت، أنبأهم أن اللعنة ثمن زهيد لنجاة الأرض، إلا أنه سُرعان ما اختفى.

وتمضي تلك الأيام ويفقد كل منا عزيزًا كل خريف، يخشى أن يفتش عنه في الغابات، يخشى الأعين الصامتة المحدقة من قلب الجحيم الأزرق، يخشى أن يجده قد تشجَّر كحال البقية، لذا قد اعتاد الواحد منا على نعي عزيزه في صمت.

من كتاب: "قمر وصواعق"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نداء الهاوية

طامس

عبر الجبال وبعد وديان أراضي عدم السحيقة تقبع قرى ومدن النسيان، وفي أكبرها مدينة (سمراق) برزت كاتدرائية الظل شامخة بأحجارها البازلتية السوداء وشرَّاعاتها ذوات الإطار الفضي.
وفي الشق الأيسر من حرم الكاتدرائية برز البرج الذي كنف مخادع الكهنة وبعض المضحين.
داخل إحدى الغرف تدثَّر كاهن شاب أسفل بعض الأسمال البالية مغلقًا كل مداخل الهواء، فأنفاس الشتاء قد هلّت، ولا يملك المرء منهم سوى التضرُّع والاختباء.
على الرغم من محاولاته الجهيدة للفرار من ألسنة البرد، إلا أنها قد نالت من بعض جسده.. أقدامه تحديدًا قد أخذت ترتعش في صمت.
تمرُّ ساعات الليل السمجة حتى تهب نسائم الفجر عليلة لا تزال باردة، لكن أي شيء أفضل من زمهرير الليلة الماضية.
الحركة اليوم مضطربة بعض الشيء داخل الأروقة، فعلى الرغم من أن اليوم خالٍ من أي أنشطة، إلا أن الكهنة في الخارج قد هرعوا كالنحل السَّكِر يتخبط أحدهم الآخر.
طرقات اقتحمت مخدع الشاب صحبت بزئير يعرفه جيدًا:
- عسى أن تأكلك النيران ألا تزال نائمًا؟!
فلما لم يرد الشاب وزاد دثر نفسه أسفل الأغطية باغته الصوت مجددًا:
- قم يا ابن الغانية وإلا أوسعتك ضربًا.
ولدى صياح الأخير فيه دفع قدميه خارج الفراش.. لحظات تأمل فيها السقف النتن، يعرفه جيدًا.. يحفظ كل ثقب فيه، فقد تربَّى في هذه الغرفة بعد كل شيء.
رفع جذعه بتثاقل، ثم وضع عباءة الكهنة السوداء وتناول عصابته، ببطء شعر بقماشها الخشن يلتف حول عينيه.. لا يحتاج كاهن الظل عينيه لممارساته اليومية، فمن وقع عليهم الاختيار صغارًا لوهب حياتهم للكاتدرائية لا يحتاجون لأعين "أولئك الحمقى الذين لا يدركون حلاوة الطمس هم فقط من يحتاجونها" هكذا كانوا يقولون.
هبَطَ درجات البرج العالي يشعر باضطرابات الأرض أسفله، يعلم أن الغرف قد خوت بمن فيها نحو المذبح، ويبدو أنه الأخير.
اقترب يتحسس خطاه بتوتر نحو أبواب المذبح العملاقة، بالطبع يعرف طريقه، هو يعيش هنا، لكنها أول مرة يجتمع الكهنة بهذا العدد داخل المذبح.
أنصت جيدًا عبر الباب مستمعًا للصدى المتردد، ولدى اقترابه من الباب باغتته يدان قد نزعت عصابته عنه، تراجع للخلف قليلًا في ذعر، إنها أول مرة يجول خارج حجرته بلا عصابة.
دارى عينيه بسرعة وانكمش على نفسه في الأرض، لو رآه أحد الكهنة الكبار بلا عصابة لتكونن دمائه هي التي يُتقرب بها لطامس اليوم في المذبح.
أتاه الصوت اللين الذي طالما أسكنه الطمأنينة:
- قف يا فتى.. قف لا تخف.

خلف أصابعه الرفيعة مدد بصره، لم يكن ليعرف أيًّا كان من يقف أمامه من هيئته، فهو وغيره لم يروا أحدًا، لكن الصوت يعرفه جيدًا.
- المعلم (بشير)؟!
- قف يا فتى لا تخف، أنا من أخذت عصابتك.
وقف الفتى ببطء مغطيًا عينيه، زفر المعلم بشير في ضجر:
- هلا أسرعت سنتأخر عن القداس. افتح عينيك، هناك ما يجب أن نراه جميعًا.
كشف عينيه سريعًا، لم يعلم أن مدخل المذبح بهذا الجمال، باب ذا تسعة أقدام من الطول جله من أخشاب البلوط السمراء، مرصع بالأرجوان والزفير.
أجفل الفتى قليلًا أمام الباب متأملًا، إلا أن ذلك لم يُدم طويلًا، فقد قهقه المعلم ببضع ضحكات كانت كفيلة بنزع الفتى مما كان فيه، تذكر المعلم أول مرة أبصر فيها المذبح وأجفل بذات النظرات، وسريعًا جذب الفتى من يديه عبر الباب.
كانت القاعة كبيرة مُلئت عن آخرها بالكهنة، وعلى جانبيها كانت الأعمدة الرخامية تزين المكان على الرغم من أن أحدًا لم يكن ليراها، إلا أن اليوم مميز وقد بدا أن منصة المذبح، ربما هي أقل ما يهم الماثلين، فنصفهم "يرى" العالم خارج حجرته لأول مرة.
في منتصف المنصة بمقدمة القاعة برزت بئر ذات أحجار صدئة قد أكلتها الأعشاب وراحت تسد الفراغات بين الحجارة المهترئة.
بجانب البئر وقف رجل طويل القامة ذا رداء أسود كالكهنة، إلا أنه بدا جديدًا لامعًا على نحو مريب، خصوصًا مع انسدال قلنسوة قد غطت ثلث وجهه.
صاح الرجل بقوة:
- أحضروه!
فتقدم من طرف المنصة كاهنان، وقد أمسك كل منهما يد رجل مكبل بعناية، كان أصلعًا، نصف عارٍ، ذا جسد غزته التقرحات والندوب، حتى رأسه برز فيها ندب بعرضها.
أخرج الرجل الطويل من كمه زجاجة لدى اقتراب الكاهنين منه، وبخفة رش محتوياتها على الرجل المكبل، تعالى الدخان من جلده المكشوف وارتفعت صيحاته، فانكمش الحشد وتعالت الغمغمات.
- ثبتوه.
رفع الكاهنان الرجل حتى ثبتا رأسه جيدًا على حافة البئر، بينما تصاعدت الصلوات من الكهنة خلفه.
- الأرض ومن عليها كلٌ إلى الممات وليعلوا اسم طامس بين السماوات.
استل الرجل الطويل خنجرًا من عباءته الفضفاضة، فالتمعت الجواهر التي زينت المقبض، بينما اقترب ببطء من الرجل المُكبَّل.
صاح بيأس:
- أرجوك.. أرجوك لا تفعل، بحق طامس وسراج والجريح.. لا تفعل.
اشتدت قبضة الرجل على مقبض الخنجر هادرًا فيه:
- أتُدنِّس بيت طامس بذكر أولئك الأنجاس؟!
ودون تردد وضع حد الخنجر على عنقه، عندها بلغت الصلوات ذروتها:
- حد الحقيقة أمضى من الحسام ومن قلب النور يولد الظلام.
غمغم المكبَّل:

- لمَ تفعل ذلك.
همس الرجل في أذنيه:
- على أحدنا أن يدنس يديه.
ثم زفر قائلًا بخشوع:
- من قلب النور يولد الظلام.
وببطء.. ببطء شديد مرر حد الخنجر على عنقه، فشعر بدمه الدافئ وقد سال على يديه قبل أن يخرج الرجل حشرجته الأخيرة، وتنسحب الحياة منه بلا رجعة.
أمسك الكاهنان الآخران ساقي الرجل ثم ألقوه في بطن البئر.... رفع الرجل الطويل يده بالخنجر عاليًا مغرقًا كمه بالدماء صائحًا في الكهنة:
- لم يبقَ الكثير يا إخوتي.
هلل الكهنة من أمامه، فهمس:
- لم يبقَ الكثير.
قبل أن يلعق الدم من أطراف أصابعه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كارم

في جزر الملح تتقارب البيوت... تتعانق الجدران ويمر الهواء مُصدرًا صفيرًا مزعجًا قد اعتاده أهالي الجزر على أية حال.
في أحد تلك الأزقة، وعلى ضوء المشاعل الزيتية الخافتة، وقف جمع من الرجال قبالة بعضهم، يمينًا كان حارث الأفعى قد انتصب في مكانه وخلفه أربعة من الصعاليك تقدموا عربة خشبية.
أخذ حصان العربة يتأفف داقًّا الأرض بحافره، فاهتزت حمولات الحرير داخل العربة، يسيطر جوٌّ من التوتر على المكان قد أنسى الجميع عطانة الجو وكآبة المنظر.
قال حارث بصوت رفيع وعين ملتمعة:
- أين المال؟
قبال عصبة حارث وقف البشع قليل السمع والمسموع رومان الهجين.
رومان من القلة التي اقتربت كثيرًا من أشجار الزفير، قيل فيما مضى أن أباه وأمه أُصيبا باللعنة عندما كان صغيرًا، لكن لا يعرف حقًّا كيف خرج هو سليمًا، كان بدينًا... راح يداعب بطنه المتدلية أمامه لوهلة مشيرًا لأحد غلمانه.
تحرَّك الغلام سريعًا برفقة أخويه، ثم جذبوا صندوقًا بصعوبة حتى انتصفوا المسافة بينهم وبين حارث، ثم تركوا المحمول عائدين حيث كانوا.

على وطأة الصندوق علا صوت العملات داخله... أنصت حارث بهدوء شديد لجلبة العملات، هدوء أقرب للطرب، لن يمانع لو استأجر أحدهم ليسمعه صوت العملات كلما أراد.
بتلقائية شديدة تقدم اثنان من الرجال نحو الصندوق ورفعا غطاءه، لتنسل من أسفله صورة العملات الذهبية، لم تكن لامعة، فسماء جزر الملح لا قمر فيها ولا شمس.
مدا أيديهم حتى غاصت في الصندوق ليتأكدا من صحة ملئه، فإذا به سليم.
نعق غراب فوق عمودٍ أمام أحد البيوت الخشبية المهترئة، ثم علا صوت بعض إخوته الذين طاروا مهتاجين بعشوائية.
صمت الجميع لوهلة، حتى الأنفاس تجمدت في صدورهم... عدة ثوانٍ كانت كفيلة بقتل بهجة حارث، اشتد الهواء أكثر وصرخت الجدران من أيمانهم وشمائلهم، حتى آذانهم التي ألفت غمغمة الأزقة قد أزعجها هذا الزئير.
قبل أن يحرك أحدهم ساكنًا كانت رأس أحد صعاليك حارث قد طارت... فُصلت عن جسده تمامًا، فتهاوى الرجل كجذع مقصول.
ارتعد الجميع، وسرعان ما استل حارث خنجريه ناظرًا نحو رومان هادرًا فيه:
- أتغدر بي أيها الهجين؟!
تصبب رومان عرقًا، هو أجبن من يعبث مع أحد رجال كارم كبير السوق الشرقية، ربما يغضب بعض رفاقه إن علموا تعامله مع رجاله، لكن أبدًا لن يجرؤوا على إيذاء أحدهم.
بنفاد صبر صاح:
- لم أفعل شيئًا صدقني... لم أفعل.
- وحق التسعة لتدفعن الثمن غاليًا.
لم يتسن لحارث إنهاء جملته إلا وخنجر قد اخترق الهواء بسرعة كالرعد ثم رَسا في عنق رومان التي راحت تنزف دمًا.
تقطعت حنجرته تمامًا، فلم يقوَ على فعل شيء سوى إطلاق بضع حشرجات أخيرة والتسليم.
واحد فقط في الجزر كلها يمكنه رمي الخنجر بهذه الطريقة، التفت حارث نحو سقف أحد البيوت ليتحقق أسوأ كوابيسه، فقد وقف هناك منتصبًا بشعره الأصهب وعين ضيقة تمسح الموجودات دونها.
جثا حارث على ركبتيه، وأسقط خنجريه، ثم ركع أرضًا، مرت لحظات من الصمت تجمد الجميع فيها، وسيطر شبح الخوف على الأفئدة، حتى يدي حارث تراقصتا خوفًا وذعرًا، ولما لم يستطع فعل شيء رفع حارث وجهه نحو الماثل فوق السطح بوجه عبث البكاء فيه، ثم قال متلعثمًا:
- الرر.. الرحمة... الرحمة يا سيدي.
فك الأصهب لثامه، وراح يتنفس عبير ليل الجزر المكتوم حتى امتلأ صدره برطوبة وعطن الأزقة، ثم هبط أرضًا بوثبة واحدة.
تراجع الرجلان الآخران بجوار الصندوق، وهرب صبيان رومان حتى آخر الزقاق قبل أن يتوقف الأصهب على برهة من عصبة الرجال، وقال:
- تسرق أخي وتبيعه لبثينة ثم تطلب الرحمة؟!
تعالت صيحات الصبيان من طرف الزقاق الآخر وارتعشت الأفئدة، قد انفرجت عين حارث عن آخرها وتقافز قلبه في جوفه واصطكت أسنانه في رعب رامقًا الأصهب الذي التمعت عيناه، قائلًا:
- لا تقلق... نريدك حيًّا.

تهاوت كلماته على حارث كالشهد وخرَّت أوصاله فلم تحمله وانقلب على جنبه تعتلي وجهه ابتسامة بلهاء مرتعشة.
التفت الأصهب للرجلين الآخرين، وغمغم:
- أما أنتما...
لم ينه جملته إلا وسيف رفيه قد التمع في يده، لم يره أحدهم يستله، فقد كان الأمر كأنه انبثق من كفه، وبسرعة ابن الريح المعهودة لوَّح بالسيف أمامه مسقطًا إيَّاهم أرضًا، كان الذهول سيد الموقف، حتى الرجلين نفسيهما ربما لم يدركا بعد أن رؤوسهما تلوح في الهواء ساقطة حيث استقرت.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
في حانة الباهموت حيث الطاولات العريضة تجمع التُجّار والمهربين وأبناء الصفوة على حدٍّ سواء، عمت حالة من البهجة وقد وقف الرجال بعضهم فوق الطاولات وآخرون على الأرض المعطوبة قد قرعت الكؤوس ورفعت النخوب.
- نخب ميتة شنيعة.
تعالت الضحكات على صوت الرجل المخمور طويل اللحية في صدر الحانة الذي شاركه الجميع في نخبه، رفع كأسه فسقى الأرض أكثر مما سقى نفسه، فلما خفضها رنا إلى منتصف الحانة حيث ربط حارث على العمود عاريًا يلتمع جسده على أضواء الشموع والمصابيح الزيتية، وتبرز جراحه النابضة وقد جندلته السيوف.
توجه الساقي نحو كارم الذي لم يلبث أن خفض كأسه حتى رفعها مجددًا رغم خوائها، ثم قال له في صخب الحشد:
- أتريد أن أملأ كأسك مجددًا؟
ضحك كارم، قائلًا:
- لا، ليس بالجعة.
ثم خفتت نبرته وارتخت ملامحه، مرددًا:
- ليس بالجعة... ليس بالجعة.
رفع رأسه بعين ملتمعة، ثم انفجر في الضحك وضرب الأرض بقدميه، قائلًا:
- ما رأيك ببعض من عصير الخونة؟!
تعالت الضحكات مجددًا، ووسط كل الصخب ورائحة الشراب اللاذعة والزيت المحترق وقف حميد الأصهب في طرف الحانة يراقب في صمت، يتأفف مما يفعله أخوه.
صاح حارث بوجه مبهم المعالم:
- كلا أرجوك!!
اقترب منه أحد الرجال ثملًا ملوحًا بخنجره ببلاهة أسفل جذع حارث الذي كان يحاول تفادي النصل ملء مقدرته.
رمى كارم بالكأس نحو حارث بعين أدمعها الضحك، قائلًا:
- ارقصي يا حلوة.
ثم لوّح الرجل بخنجره أخيرًا ليشق بطن حارث بعرضها، فابيضت عيناه أو غامت، لا يشكل ذلك أي فارق، فهو على الأغلب سيودع الدنيا بعد قليل.

بصق حميد بتقزز أرضًا قبل أن يدلف العازفون إلى الحانة ليحييوا الليلة، فاليوم يوم نصر جديد والجيوب ملأى والبطون لم تطعم شيئًا سوى اللحم المملح خلال خمسة أشهر، وحُق لهم أن يحتفلوا ولو لليلة.
انتشرت الفتيات في أرض الحانة ينشدن جيوب المخمورين، ليس كل يوم في السوق الشرقية يوم بذخ وعيد كما هو الحال اليوم.
ومع دندنة العود وطرب الناي وتعالي صوت الزجال بأغنيته الجديدة، اقتربت إحدى الفتيات من حميد بخطوات ناعمة، ومالت على كتفه هامسة:
- أراك وحيدًا.
لم تتزحزح عينا حميد عن كارم ولو لوهلة وهو ينقر هذه ويلاطف تلك ونظرات الامتعاض بادية عليه، التفتت الفتاة نحو كارم ثم عاودت نظرها لحميد، قائلة:
- زعيمنا أخرق..
سرقت الفتاة انتباهه، فالتفت إليها لأول مرة، بيضاء البشرة ناعمة القوام تنظر عينها إليه فتغرقه وتصرع فؤاده، بهدوء قال حميد بصوته الرخيم:
- تجاهرين بالخيانة؟!
أضاقت الفتاة من عينيها، ثم مالت عليه أكثر وأكثر، وقالت:
- لست وحدي من يرى ذلك...
ثم رمت بعينيها نظرة نحو الحانة كلها وأسرَّت إليه:
- كل هؤلاء يرون ذلك.
سكتت برهة ورفعت عينها في عينه، وأتبعت:
• إن الزعيم ثمل طوال الوقت، غفلٌ عن حال السوق، وكما ترى حتى رجاله قد بدؤوا يأخذون ما يقدرون عليه ليصرِّفوه عند بثينة، فاليوم حارث وغدًا غيره، وما خفي كان أعظم.
تنهد حميد مغمومًا، وأعاد النظر نحو أخيه، يعلم جيدًا فضله عليه، يعلم كيف كفله ورباه صغيرًا، استذكر عندما كان كارم يعمل صبيًّا للجزار في أيام المجاعة العظيمة، وكيف أنه خسر عمله الثمين لقاء ساق عنز يابسة لتسكت جوعه وأخيه.
لكنه الآن وقد تملكه العز أصبحت الكأس امتدادًا ليده وحال السوق الغربية مزدهرة وسفنها تركب البحر كل صباح محملة بالخير نحو أراضي النور ونبراس، أما سفنهم فقد أكلها النمل ونخرتها الآفات.
دفع الفتاة عنه فسقطت أرضًا باستياء، قائلة:
- مولاي؟!
ثم اتجه نحو كارم كالسهم يدفع السكارى عن طريقه حتى بلغه، فمال عليه قائلًا:
- يجب أن نتحدث.
على الرغم من قرب حميد منه، لكن يبدو أنه لم يسمعه، كان يهز رأسه مع الزجال مدندنًا:
- تأتي الشمس ويروح القمر... والسماء غائمة فهل من مفر؟
استوقف حميد الساقي منتزعًا دلو الماء من يده وسكبه على رأس أخيه دفعة واحدة ثم هشمه أرضًا، واقترب منه بعين منفرجة والغضب ينسل من أنفاسه، قائلًا:
- يجب أن نتحدث، ولا أريد أن أقلل منك أمام الرجال.

لا يزال كارم يشعر بالدوار وألسنة الهواء -وإن كانت مكتومة- أشعرته برعشة برد خفيفة.
فرك عينيه ثم مسح الماء عن لحيته ورفع وجهه نحو حميد محاولًا تبين معالم المتكلم، فلم يمهله حميد أكثر من ذلك وسحبه من يديه نحو الدرج لغرف النوم.
مترنحًا صعد الدرجات، يشعر بيده تقتاده للأمام، تراه يطير؟ أم أن ساعته قد حانت؟ ربما تشجر كالبقية، فشعوره بالطول بعض الشيء لهو أمر يدعو للريبة في أيام اللعنة تلك.
عمومًا رماه حميد في الممر الخشبي الضيق أمام مخادع الحانة.
صرخ فيه حميد بنفاد صبر:
- ألا تدرك المصيبة التي نحن فيها؟! بضاعتنا نفدت بسبب إهمالك، ونفوذ بثينة يزداد يومًا بعد يوم.
ثم أشار إلى المرفأ عبر النافذة، قائلًا:
- لو فككنا سفننا وبعنا خشبها لهو خير من تركها كما تفعل، ألم نغنم من الحرير والأعشاب وغيرها من الخيرات الكثير؟! أخبرني بحقك لمَ لمْ نرسلها شمالًا؟ لمَ لا نفعل كما تفعل بثينة يا ابن أبي؟!
تنهّد كارم وسكت برهة، لا يعلم حقًّا ما سمع أو من قاله، ولا يزال حلقه يتوق للمزيد من شراب الليلة اللذيذ، إلا أنه ولسبب ما رفع رأسه نحو النافذة ورمق السماء المدثرة بالغيوم... تأمَّل سحبها الرمادية التي كانت ولا زالت تطمئنه.
نظر إليه حميد فأطال النظر، علم أنه يحادث صنمًا أجف لا خير يرجى منه ولا نفع، فالتفت عنه وجرّ الأرض خلفه تاركًا كارم وحيدًا ملقى على جانب الممر الخشبي ككلب ضال.
شعر كارم بثقل عينيه وبالنسيم يحثه حثًّا على غلقها... تلك الغفوات التي تأتي دون حساب ينالها أصحاب النفوس الصافية وقليلو التعلق بالدنيا، وإن كان كارم ليس منهم، لكن الشراب ربما أقنعه أنه كذلك، فنام ساكنًا بنفس راضية، أو هكذا كان يظن.
يشعر بالحر، أنّى لجوٍّ ساحلي أن يكون بهكذا حرارة! أحس بنفسه ممدًا على الأرض اللزجة، لكنه رغم ذلك لم يفتح عينيه، حتى مع احتراق ظهره أسفله إثر النار المشتعلة، وحتى لو ابتلعته الأرض لن يفتح عينيه، يشتم بوضوح رائحة الدم القوية النفاذة، ويشعر باللهيب على الأرض يأكل ظهره، وقطع ذلك همس غريب... همس أقرب لفحيح الأفاعي، بل لنعيق الغربان، همس شيطاني يداعب أذنه ويخترق فؤاده.
- افتح عينيك... استقبل قدرك.
ثم أخيرًا يشعر بالماء ينسكب عليه وصوت الساقي مطمئنًا يقول:
- لقد أفاق.
فتح عينيه بصعوبة، ونظر برؤية مشوشة أمامه، فإذا بالساقي ريحان أمامه.
- أكثرت في الشرب يا زعيم.
أخذ كارم نفسًا طويلًا، ثم نظر عبر النافذة بتؤدة، وقال:
- أنا بخير.
- جيد، هناك عصبة من رجال بثينة يودون رؤيتك، أبقيتهم في الأسفل إلى أن أرى إن كنت تود مقابلتهم أم لا.
تذكر كارم سريعًا ما حدث وفرك مؤخرة رأسه بتأفف، ثم أشار نحو ريحان بيد مجهدة، قائلًا:
- سأراهم، اسبقني وأبلغهم أني في الطريق.

تركه ريحان بنظرة مترددة ثم هبط السلم، وبصعوبة استند كارم على الجدار خلفه ثم وقف بظهر محني وتقدم بضع خطوات نحو النافذة.
أخرج من جيبه غليونه الخشبي الذي غنمه من قاطع طرق شمالي كبير يدعى راغب، أخشابه سوداء بها نحت غائر عناقيد عنب تبرز من كرومها الأشواك.
حشاه سريعًا ثم أشعله بالمشعل الزيتي جانبه، وأخذ يزدر أنفاسه، من الدور العالي للحانة يمكن للمرء رؤية كل شيء، البيوت والأزقة والمرفأ العتيق، وحتى البحر بزرقته الخدّاعة.
يرى الناس يروحون ويجيئون، يرى في الأفق عدة أشجار ملعونة لا يعرف من كان أو كانت، لكنه تأملها جيدًا، من الزقاق أسفل الحانة سمع صراخًا مبحوحًا يقول: تسعمائة وتسع وتسعون حجر... وبالألف يكتمل القمر.
كان أي أحد ليضحك على تخاريف المجنون، إلا كارم هو وحده لم ولن يقدر على ذلك، رمقه جيدًا، فإذا به نحيل العود بارز العظام يميزه عن غيره شيء وحيد؛ خيط من الخيش المجدول مخاط بعشرة أحجار يعرفها جيدًا، تذكره بأمه وبأيام يود لو كان لها عودة.
تذكر عندما كان طفلًا ولا يزال حميد رضيعًا، عندما كانت جوانب الطرقات بيتًا لهم، كان ينظر لذات القلادة التي تضعها أمه وكيف كانت تنهره بشدة عن العبث بها، مر كلامها عليه كأنه البارحة عندما سألها عن ماهية القلادة، فقالت: إننا -يا بني- قوم مشتتون، لا يجمعنا تاريخ أو مجد، يأكل بعضنا الآخر، كنا نعبد العشرة وكانت أسماؤهم معروفة يُتضرع بها إليهم وكانوا أملنا الوحيد.
سكتت برهة ورفعت نظرها للسماء، وقالت: ثلاثة للسماء وثلاثة للهواء واثنين لعذب الماء وواحد للبر وآخر للبحر، لما زاد تكبرنا تخلى التسعة عنا وعصموا عنا ضوء الشمس وقمرها ورفعوا أسماءهم من قلوب الناس ولعنوا من في الأرض بالأشجار السوداء، إلا صاحب البر هو الوحيد الذي لم يتخلَّ عنا.
دمعت عيناها، قائلة: كان اسمه المهاجر، وكان يجوب الجزر يعظ الناس ويذكرهم بمصير إخوانهم الذين تحولوا إلى أشجار لعينة يعذب الواحد فيها حتى تذوب الأرض وتتشقق السماء، فلما استيأس جمع من اصطفاهم وقيل إنهم ألف أو أكثر ثم ترك الجزر بمن فيها.
نفض كارم عن نفسه تلك الذكريات وتذكر رجال بثينة الذين ينتظرونه في الأسفل، يعلم جيدًا ما سيطلبون، لكنه ذاهب للقائهم على كل حال.
هبط السلم ببطء ليرى الحانة الخاوية وقد حطمت بعض كراسيها التي هي في الأساس فقيرة وقُلب منها عدة طاولات، منظر مألوف يتبع كل احتفال، وإن كانت قليلة، لكنها مميزة.
وفي طرفها جل ثلاثة من الرجال بمعاطفهم المخملية يرمقونه بنظرات متقلبة، بعضها خوف وبعضها احتقار، يعلم كارم كنه نفس كل منهم فأغلبهم قد عمل معه في يوم مضت ساعاته وولى منذ دهر بعيد.
شق طريقه نحوهم حتى إذا تعثر بأحد السكارى النائمين ركله عن الطريق فلم يزده سوى شخيرًا فوق شخيره قبل أن يصل إليهم أخيرًا.
جذب كرسي ملقى بجانب الطاولة، ثم جلس عليه ونظر نحو ريحان، قائلًا:
- كأسًا من الجعة.. بسرعة يا ريحان.
ثم قلب نظره نحو الرجال، قائلًا:
- تمتعضون من الجعة أعلم ذلك.

ثم نظر إلى الرجل أقصى اليمين، وقال:
- لم أعرفك يا حسن قد غيرتك الأيام حقًّا، آه كم تعيد رؤيتك لي الذكريات!
ثم التفت إلى زميليه، وقال:
- أمه يا رجال أفضل امرأة عرفتها الجزر كلها، كانت في زماني سيدة سيدات المواخير.
ثم أعاد نظره نحو حسن:
- يالها من ذكريات!
كاد الرجل يفقد صوابه، وبرزت عروق يديه، وكور قبضته، ولما همَّ بلكم كارم زجره رئيسه الذي انتصفهما، قائلًا:
- دعه، لم نأتِ لجدال فارغ.
ثم التفت إلى كارم، قائلًا:
- سيدتنا غير سعيدة على الإطلاق بما فعله رجالك برومان وتودّ تفسيرًا واضحًا لما حدث.
تكلم الرجل يسار الطاولة، قائلًا:
- إن كان أحد رجالك قد حاول تصريف بضاعتك لرومان بغير علم منك فلا ذنب لرومان كي تقتله.
أتى ريحان بكأس الجعة لكارم الذي نظر لسطحه هنيهة، ثم قال:
- أرومان يصرف بضائعي وبضائع غيري بعلم بثينة؟!
- هذا ليس من شأنك، عمومًا سيدتنا تود رؤيتك، وأنصحك بأن تهم بمغادرة الجزر إن لم يكن عندك ما يقنعها بموت رومان، المسكين كان مهمًّا عندها، وعلى قدر أهميته سيأتي الجزاء.
سكت برهة وخفض نبرته ضاغطًا على حروفه:
- بعد ثلاثة أيام في ساحة السادة.. إما تمثل أمام بثينة أو ترحل.
ثم نهضوا تاركين المكان كله له ولعقله الذي أخذ يعدو في ألف اتجاه، منذ أن سرقت حمولات الحرير تاه هو وحميد بحثًا عن الفاعل حتى وشى بحارث صبيه بمكان وميعاد التسليم، حارث كان يود أن يلتهم ذهب رومان وحده، حيث إن كارم أوقف البيع لنبراس وأراضي النور منذ ما يزيد عن عدة أشهر، إلا أن خططه باءت بالفشل، وها هي جثته تزين وسط الحانة.
لو ترك لبثينة الجزر وارتحل إلى أي مكان فلتستحوذن على الأسواق كلها ولتقطعن عنه سبل الرزق أينما كان، فأسواق جزر الملح هي شريان الحياة، النهر الجاري الذي يمد نبراس وأراضي النور بخيرات العالم، هي النقطة التي تلتقي فيها كل المحيطات وتتوسط الأزرق المهول ويتجمع فيها كل التجار من شتى بقاع الأرض، فمن ملكها ملك ذهب الدنيا بين ظفريه.
نهض كارم مغمومًا يجر خلفه أذيال الخيبة وأطلال اليأس وتتبعه أشباح من الماضي تنظر إليه، تلاحقه وتضيق عليه الخناق، بعضها يناجيه بتشفّي والآخر بعطف وحنان.
همسات الألم تلمّ به، هكذا في الأغلب تنتهي الحكايات وتنطوي صفحاتها بلا رجعة، لكن القدر دائمًا ما يحمل في جعبته المزيد.
ربما لو ذهب لبثينة بقصة مرضية قد تقنع، لكن الأمر ليس في خسارتها للحرير ولا لرومان ولا لغيره، الأمر ببساطة أنها كانت تنتظر سقطته وتتلهف بحرارة لأن يكون لها حق عنده أمام الجميع لتقتص منه بعدل واستحقاق، فبعده من ذا الذي قد يقف في مساعيها؟!
وحبذا لو كان حقها عنده دمًا، ولقد أهداه إليها بطبق من ذهب، من الذي وشى به وقد أجهز حميد على كل من حضر تسليم شحنة الحرير، فحتى الصبية كلهم ماتوا ورميت جثثهم في عرض البحر.

استيأس كارم من فهم أي شيء وصعبت عليه المهمة وثقل الحمل فلجأ لعادته الأثيرة.
- ستجد قنينة أسفل ذلك الدلو يا ريحان... آتتي بها.
بعض النبيذ المعتق النادر يحل مثل هكذا مواقف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يومان مرا منذ مجيء رجال بثينة لكارم وتلك هي الليلة الأخيرة وقد قرر كارم أن يقضيها دون شراب، بعض الصداع وشعور غريب باتزان العقل قد يشعرانه بعدم الراحة، لكنه أفضل من الغرق وهو الذي لم يفكر بعد فيما سيفعل حيال الغد اللعين.
دخل غرفته في الحانة وأجلس كرسيه أمام النافذة وراح يسرح في السماء المغيومة، سماء رمادية تذكرهم بغضب التسعة الدائم وهواء عطن راكد يثبط القلوب ويحطم الأفئدة.
أدار ظهره للنافذة مستقبلًا الغرفة العتيقة، أي رغد عيش هذا الذي أنت فيه! من يرى غرفته لا يدرك أبدًا أنها غرفة كبير السوق، بل هل يعقل أن يعيش كبير السوق في غرفة بعلية حانة؟!
سرير خشبي عتيق قد لانت أخشابه وتهلهلت مفاصله، وأغطية ذائبة عمرها من عمر كارم نفسه، بل ربما أكثر. بيمين الغرفة فتح الباب، فإذا به حميد قد وقف منتصبًا تغطيه عباءته السوداء المميزة ويتأمل كارم بملء عينيه.
بخطوات رتيبة اتجه حميد بالقرب من كارم وجلس إلى السرير قبالته. وبعين ملتمعة قال حميد:
- ما الذي سنفعله؟
تنهد كارم ومد يده في جيب سترته مخرجًا غليونه وجال بعينه يمينًا ويسارًا، اغتاظ حميد نوعًا ما، ولكي يقصر عليه المسافات ناوله المصباح الزيتي الصغير بجانبه، فأشعل كارم الغليون، ثم قال:
- ما نفعله دائمًا.
بدت أمارات التعجب على محيا حميد، فأردف كارم:
- ننفي معرفتنا برومان وعصبته ورجالنا للشهادة معنا كثر وحارث ورجاله أمرهم من شأننا وليس لبثينة أن تعرف لمَ قد نكلنا به.
- آمل تكون على حق.
وعلى غير عادته نهض حميد مدبرًا كارم، لا يزال كارم يرى فيه أطلال طفل صغير، الطفل الذي تركته أمه وليدًا وغادرت الدنيا، الذي لم يعبأ بأحد سواه، ابتسم كارم إبان مرور حميد بالباب وغمغم حميد:
- آمل ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صباح اليوم جميل ونسائم الهواء العليل تلاطف وجنته، تنسل أشعة الشمس عبر النافذة فتكنف كارم بدفئها، شعر بها ففتح عينيه ببطء، أكانت السماء بهذه الزرقة؟!
متثاقلًا نهط كارم ونظر عبر النافذة مندهشًا، آخر مرة انكشفت السماء لسكان الجزر كان كارم وأمه وربما جده لم يولدوا بعد، رنا إلى حواف الشاطئ، فإذا بالأمواج التي كانت تعاكس اتجاه الجزر دائمًا قد رضيت عنهم وأقبلت نحوها.
يصرخ المسن المجنون أسفل الحانة ويتقافز فرحًا:
- اقتربت، اقتربت كثيرًا، ستخمد النار وسينطفئ النور وستعلوا الأرواح القديمة من جديد.

كررها كثريًّا، جال يصرخ في المارة بها، بعضهم تحاشاه والبعض الآخر دفعه وأهال عليه وعلى كلامه التراب.
لم يعبأ كارم كثيرًا بأمر العجوز؛ فهو كذلك منذ أن عرفه، يركض عاريًا أحيانًا أو يصرخ بكلام غير مفهوم في أحايين أخرى.
لم يكترث لشيء قدر اهتمامه بالسماء، اليوم هي رائقة يكاد الضوء منها يصرخ فرحًا ويبرز قرص الشمس الوهاج، حتى السحب كانت بيضاء ناصعة كجدُول الحرير.
حتى الناس في الأزقة والطرقات كثر منهم وقفوا في أماكنهم يتأملون، أغلبهم من الكبار الذين يتذكرون كيف كان شكل الشمس، بكى البعض وتشاءم الآخر، يؤمن الجيل الجديد بأن السماء المغيومة والبحر الهائج دلائل وجود التسعة وحمايتهم إياهم، فبالتأكيد منظر كهذا كان ليؤلم صدور الكثيرين.
صرخ البعض "الرحمة" ونحب الآخر "ماتت الآلهة"، غريب أمر سكان الجزر اللعينين، يمكن للواحد منهم أن يسرق أباه ويقتل أخاه ويطأ النساء عنوة، ثم يسمي بحمد التسعة ويطلب بركتهم!!
أدبر كارم النافذة بعدم ارتياح ووضع حلته الزيتية القديمة التي كانت قد ورثتها أمه عن أبيه وهو عنها، أصر دائمًا على ارتدائها في أصعب المواقف، هبط الدرجات حتى بطن الحانة التي كانت خاوية وقتها، السماء صافية ولن يضيع أحد منظر الشمس الذي لا يعلم متى سيراه مجددًا أو على الأقل سيجد ما يحكيه لأبنائه.
مد يده نحو باب الحانة الخفيف ثم دفعه مستقبلًا قدره، هو ذاهب إلى مصير لا يعلم حقيقته، خرج يتأرجح الباب برفق من خلفه، تكمن الحانة في ركن قصيّ من شرق الجزر عند التقاء طريق (الرحى) الذي يصل بين الميناء الشرقي وقلب السوق الغربية، وطريق (الرخ) الممتد من ضواحي الشرق حتى الميناء الغربية.
كانا أعرض طريقين يمكن أن تقع عين المرء عليهما لو جال برهة في أسواق جزر الملح المكتظة طوال العالم.
وقف هنيهة ينتظره، لم يحب أبدًا أن يظله سقف أو تظلله سماء، حتى غطاء السحب كان يزعجه بادئ الأمر، لكنه اعتاده مع الوقت، وبهدوء رفرف بريشه الأحمر حتى رسى على كتف كارم.
أخرج كارم من جيبه قطعة خبز يابسة، ثم قذفها عاليًا ليلتقطها النسر بفمه.
- ولد مطيع.
أن تطوّع نسرًا فهو أمر ممكن، لكن أن تعوده على أكل الخبز اليابس يجب أن تكون كارم، صقره الذي غنمه منذ مدة طويلة؛ أحمر الريش، أنف النفس، وحاد الطباع إلا مع كارم، ولسبب ما أطلق عليه كارم اسم "رعد" على الرغم من لونه الأحمر المتدرج ببعض البرتقالي.
جرَّ أقدامه للأمام رويدًا يستنشق عبق الهواء عبيري الرائحة، فمع تبدد السحب وانكشاف الشمس ورضا الأمواج حمل الهواء هو الآخر جديد المذاق على الأنوف التي كانت قد بدأت تحلل إثر رائحة العطن وروث الخيول والأسماك الميتة في الأزقة والطرقات، حتى رعد انكمش على كتف كارم مغرقًا رأسه بين جناحيه بعدم ارتياح.
سلك الدرب الأيمن نحو طريق الرخ الذي يمر بصحن التسعة حيث وجهته، كثير من أبناء اليوم وجم في الطرقات ناظرًا نحو الشمس بانبهار، إلا قلة ممن عرفهم كارم، وقد أخذ يتخطفهم واحدًا تلو الآخر أثناء مسيره، فهذا عارف السمَّاك يشير لابنه لينتبه للدكان ريثما يعود، وهذا سمعان الاسكافي يفترش

بسطته يمين حوانيت القمَّاش صالح وينظر بعين عوراء نحو كارم بطائره البهي رعد يزين كتفه، يشق السوق بصدر منفوخ ويملأ المكان هيبة مع كل خطوة يخطوها، أيكون ذلك بسبب جلوسه أرضًا؟

ربما لو نظر له عن كثب لرأى وجهه المُغبَرّ وعينيه التي صَدَّأها الشراب قد أخذت صبغة حمراء وعندها سيشعر بشيء من التوتر، إلا أن انتصاب ظهر كارم ومشيته الواثقة جعلته ينهض مرتعشًا ليرافق زعيمه علّه ينال بعض فتاته.

تأفف كارم قليلًا لعدم رؤيته لحميد أثناء الطريق، حتى أنه مر على الخان الذي اعتاد البيت فيه فلم يجده.

قطع طريق الرخ وصولًا للصحن في ساعة أو بعضها ليرى أمامه تلك الساحة المهولة التي رصفت حوافها بأخشاب الزان وطرقت أرضياتها ببعض الفولاذ والنحاس النيئ وفي مقدمتها التمعت تسعة أزواج من الأقدام، رمقها كارم بتعجب؛ فقد كان يظن ذلك المعدن مجهول الكنه صدئًا، لكن خيوط الضوء الحريرية التصقت به لتبث الحياة إليه من جديد.

أمام أزواج الأقدام محطمة القوائم برز حفنة من الرجال قرمزيي المعاطف ارتكزوا أمام زوج الأقدام الخامس.

الصحن خالٍ كعادة بثينة التي تخشى على نفسها من لفحات الهواء وإن كان راكدًا عطنًا، فما بالك والشمس بارزة والهواء يلفح الوجوه وحبات أشجار الزفير قد تتطاير إليهم! كل شيء وارد.

تقدّم كارم برفقة رجاله الذين بلغوا عشرة رجال مع دخوله للصحن، ولدى اقترابه منهم التمعت أعينهم وانتصبوا في أماكنهم قبل أن يصيح أحدهم:

- عندك يا هذا!

رمقه كارم هنيهة، ثم داعب لحيته الشعثاء وأكمل مشيه.

همَّ الرجال بالانقضاض عليه، إلا أن صرخة غليظة دوت في الأرجاء: "دعوه".

وككلاب مطيعة تدرب بثينة رجالها فتجمدوا في أمكنتهم مفسحين الطريق ببطء أمام كارم الذي مر بينهم واضعًا يديه بجيبيه، يرفع رعد رأسه في تحدٍّ لهم نافخًا ريشه ناظرًا لكل منهم بزوجي عينيه الحادتين.

أغلق الطريق أمام رجال كارم، فصاح عارف بصوته الجهوري:

- لا يبرح الزعيم دوننا.

ونعق سمعان بنبرته الرفيعة:

- هذا صحيح... إما أن نعبر سويًّا أو لا نعبر مطلقًا.

دون أن يلتفت إليهم كارم، قال برتابة:

- رويدًا يا رجال.

ثم غمغم:

- سأريح العاهرة وأعود.

اتسعت أعين رجال بثينة، بينما انتفخت عروق وجوه بعضهم ممن سمعوا إهانته سيدتهم.

وأمامه على كرسي مخملي مظلل جلست بثينة، من يسمع صرختها منذ لحظات لا يمكنه تصديق أن صاحبة الطلة البهية والحسن الأخاذ تلك قد تطلق مثل هكذا صرخات.

استرسل شعرها الفحمي الصافي حتى ركبتيها ووجنة نابضة كحبات الرمان، تمشي فيتسابق الهواء لنيْل عطرها، إلا أن نظرة جوفاء اعتلت وجهها إبان إبصارها كارم.
قالت بنبرة تقدح شررًا:
- تملك من الجرأة ما يحملك على إهانتي!
تقدم منها كارم ثم رمق كرسيها وأخذ الصمت يلتهم الجميع قبل أن تصيح بثينة بأحد الرجال:
- إليه بكرسي.
فانطلق الرجل حتى عاد بكرسي خشبي متهالك وضعه قبالة بثينة.
- ولو أنني كنت أفضل أن أحصل على واحد كالذي لديكِ، لكن...
ثم جلس وأتبع:
- هذا سيفي بالغرض.
تنهدت بثينة، قائلة:
- أتعلم ما مشكلتك أنت وأجدادك من الأنبار؟ أنكم حمقى، تظنون أنكم تدركون كل شيء، تتحكمون بكل شيء.
- لم أكن أدرك أنني أتيت إلى هنا لمناقشة أصلي، لكن إن رغبتِ بذلك سأكون أكثر من سعيد.
زاد غضب بثينة، ومع كل كلمة تفوه بها ودت لو تطعنه ألف طعنة، لكنها تحاملت على نفسها، وقالت:
- لقد قتل رجالك رومان.
- رومان! أتقصدين ذلك البدين الهجين؟! أمات حقًّا؟!
- والآن تدعي البلاهة، اسمع جيدًا، بسبب فعلتك تلك يمكنني أن آخذ تجارتك، والاستيلاء على سوقك كلها دون الخوف من منع سفني من ركوب الأزرق، وأنت تعلم ذلك جيدًا.
- المسكين، مات صغيرًا.
وبطرف عينه نظر لبثينة، ثم غمغم:
- لا شيء لديك ضدي.
اتسعت ابتسامة على محيا بثينة، ثم قالت:
- بل لدي.
تسارعت دقات قلب كارم وارتعد في مكانه أثناء بروز رجل ملثم طويل القامة من خلف بثينة، طار رعد فجأة من كتف كارم وحطّ على أكتاف الملثم ينظر له بعين ملتمعة ويفرك رأسه بعنقه، فك الرجل لثامه فانساب شعره، نظر له كارم في غير تصديق وقام من محله حتى سقط كرسيه من خلفه.
- ألم أخبرك بأنكم حمقى.
شعر كارم بالكلمات تختنق في حلقه وبأنفاسه كالرعد تضرب هزيمها في صدره، في النهاية عبرت كلمة واحدة فمه، كلمة بألف ألف كلمة:
- حميد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حكيم

بقلب أراضي النور، تحديدًا بأرض العاصفة نكست الأعلام وانطفأت الألوان وطمِس كل بهيج لموت الملك سليمان.
احتشد العامة من الناس خارج أسوار القصر... ينحبه البعض ويشجبه الآخر، على كل أبطن كثير منهم ما أبطن ولولا البصَّاصون لاختلف المشهد قليلًا.
يبرز القصر ببرجه العالي خلفه بحر العبرات -كما يطلق عليه سكان أرض العاصفة- البحر الذي طالما كان مهتاجًا ثائرًا، لكنه اليوم فقط هدأ نعيًا للفقيد.
دقائق تمر حتى تبدأ بوابة الحرم الحديدية بالتزحزح رويدًا، فأسكت صريرها الهمهمات، خرج صفان من الحرس الملكي يشقون طريقهم بين العامة حتى كوّنوا ممرًا فارغًا أمام البوابة.
أن يموت ملك في هذه الأيام دون أن يصاب باللعنة لهو أمر نادر، وأن يموت بعمر السبعين فلا بد أن الرجل قد حمل سرَّ الحياة في طيات جسده.
خرج نعش حديدي لامع دقت زواياه بالجواهر وزخرفت حافته بغبار الذهب، وعلى الرغم من لمعانه وشدة سطوعه، إلا أن هالة الموت قد أحاطت به مُذهبة ما به من سحر للعيون.
على الناحية الأخرى من الممر المفرغ برزت زمرة من الجنود تؤمّن مقدمة المسير، بينما يطفو النعش نحوهم ببطء.
وفي ذيله تجلّى جواد أبيض راح يدق الأرض رويدًا كأنما يرثوا الفقيد، وعليه كان حكيم بن سليمان ثابتًا متشح السواد ونظرة جامدة اعتلت وجهه.
كان حكيم في أواخر عقده الثاني، شابًّا طويل القامة أسود الشعر متطبعًا بطباع أهل البادية على الرغم من كونه لا ينتمي إليهم، إلا أن إصرار والدته الملكة مهرة على أن يكون الفتى ربيب بني الأكمل في الصحراء سيشد عوده، فلم يقصر أخواله الأكامل في جهله كذلك.
قطع حصان حكيم الطريق برأس منكسة ومن خلفه هودج الملكة لينتهي الموكب بها وبحرسها الخاص.
إبان الساعة التالية كانوا قد وصلوا إلى المدافن الملكية حيث الحفرة جاهزة وبطن القبر مفتوحة لإيصال ساكنها حيث مثواه الأخير.
رفع خمسة من الجند غطاء النعش كاشفًا عن جثة العجوز سليمان المغطاة بالكامل، عدا وجهه الذي انطفأ مغلقًا عينيه بسلام.
على الرغم من اختلافه الدائم معه إلا أن فكرة كذهاب سليمان للأبد بثّت الذعر في نفس حكيم.
اقترب حكيم من جثة أبيه، وغمغم:
- أهكذا رحلت، أهذا وداعك لي؟
اقترب من وجهه ثم طبع قبلة على جبينه، ومع ملامسته إياه شعر ببرودته، أحس برائحة الموت تتسل منه، يشعر به باردًا مخيفًا، فتراجع بسرعة إلى الخلف.
سكت برهة متأثرًا بدموعه يخالط لبه نحب أمه مكتومًا آتيًا من قلب الهودج:
- آواه يا سليمان.
ففرت دمعة من عينيه، ثم أشار للجندي بجانبه.
أتاه سريعًا بخنجر رفيع، فسحبه من غمده، وببطء جرح جبين سليمان بعرضها، لم ينزف جرحه كثيرًا، فاتسعت عينا حكيم ومن معه، حاولوا نسيان الأمر بسرعة، وأخذ كل منهم ملء يديه قبضة من التربة الرطبة لتنساب من بين أيديهم نحو الجثة.

تنهد حكيم محاولًا تمالك نفسه، ثم قال:
- لتدمي جراحك.
ليردد الجند بخشوع:
- لتدمي جراحك.
ثم ردموا القبر حتى أتموا دفن الملك الحالم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أيام مرت... ربما أسابيع، الوقت يجري كسيل الشلال، كان حكيم لا يفعل شيئًا سوى استقبال المعزين بدار الضيافة في قصره، فهو الآن ملك على هذه الأرض، وإن لم يتوّج رسميًّا بعد.
كان اليوم روتينيًّا مملًا، يأتيه فلان باكيًا بعيون منتفخة ويباهي بمحبة سليمان في قلبه، وكم كان الرجل ذا مسيرة تشعر أبناء هذه الأرض العظيمة بالفخر على الرغم من أن حكيم نفسه لم يكن يسمع سوى عبارات الازدراء في نوادي النبلاء وحتى بالحانات الفقيرة عندما كان يجالس الناس متنكرًا فيما مضى.
لم يكن ليلومهم، فعلى الرغم من كون هذه الأرض أكبر أراضي أبناء الجريح المختارين، إلا أن سليمان كان ضعيفًا، يقرض دون مقابل، ويرمي بجنوده فقط بداعي الجيرة، حتى بنو عمه بأراضي السهل فرضوا عليه إتاوة سنوية، وقد قبِل سليمان بها.
كانت تلك الخواطر تمر عليه أمام عقله فيحاول تجاهلها، إلا أنه دائمًا ما كلل بالفشل.
قُطع حبل أفكاره بصوت حاجبه الرفيع، قائلًا:
- رسولان من نبراس وأرض السهل يطلبان الإذن بالدخول.
قاعة الضيوف التي حوت على مجالس أرضية مخملية بطول جدرانها الأربعة كانت خاوية البطن مفروشة بأبهى البسط من جزر الزعاف بالمحيط العظيم خلف جزر الملح، وتزينها الثريات والشموع من كل جانب، على الرغم من طغيان اللون الأحمر على جوانب الفرش عمومًا، إلا أن كسرة بالمنصة الذهبية بصدر القاعة حيث يجلس حكيم شاردًا أضفى نوعًا من التباين على المكان.
بغير اكتراث أشار حكيم له بالإذن لهما، ففتحت أبواب القاعة وسط صمت الجميع لدى دخول رسول نبراس بطلة بهية مسربلًا بمخمل الذهب من أعلى رأسه وحتى أخمص قدميه، بجواره رسول أرض السهل قصير سمين الجثة يمشي بعرجة خفيفة.
مع تقدمهما نحو حكيم رنت إليهم عيون الحاضرين من الشيوخ والوجهاء بنظرات جلها خوف واحترام لرسول نبراس وسخرية وكراهية لأخيه من أرض السهل.
وما إن استقرا أمام حكيم حتى أشار لرسول نبراس بالبوح بما لديه، فاعتدل في وقفته قليلًا، ثم قال:
- لدي خطاب من جلالتها.
بنظرة جوفاء غمغم حكيم:
- اتله علينا.
فضّ الرسول ختم الرسالة، ثم تنهد وقال بصوته الجهوري:
- من ميثاء ملكة نبراس وسلطانة أراضي النور، وليدة سراج والحاكمة بأمره، إلى حكيم والي أرض العاصفة والحاكم بأمر جلالتنا هناك.
علت الهمهمات بين الحاضرين وسط سخط وامتعاض البعض، إلا أن الرسول أكمل بنبرة أعلى:

- قد بلغني ما ألمّ بوالدك، وإن قلبنا يفيض حزنًا على ما ألمّ به، فكم كان مطيعًا صالحًا حافظا لعهدنا هناك، ونأمل أن تنير النار طريقه حتى يجد مكانه بجوار سراج. وإليك سَلم عهدته فصُن تُصَن.
تنهّد حكيم، لكَم كره نبراس بمن فيها، بجيشها وسلطتها تجوب القارة طولًا وعرضًا، وتفرض وصايتها على أراضي الغرب الأقصى حيث أراضي أبناء الجريح التي يحكمها هو وأبناء عمومته، حتى ثروة أرضه الوحيدة بمناجم الزيت فُرض عليها نسب مهولة من الخراج كحق لهم.
أغلق الرسول رسالته بهدوء، وأعين الحاضرين تنصب عليه حتى كادت تنسى أو تتناسى وجود رسول آخر بجواره، انسل الغم من أنفاس حكيم قائلًا:
- أودق.
تقدم شيخٌ من الوجهاء حتى بلغ كرسي حكيم، ثم انحنى وقال بصوته المتهالك:
- أمر مولاي.
لم يرفع عينه عن رسول نبراس، قائلًا:
- أودع ضيفنا بحجرة تليق وأكرم مُنزله حتى تنتهي مراسم التتويج.
- كما تأمر جلالتك.
ثم قلب نظره إلى الرسول الآخر، لم يكن ينقصه شيء ليجتمع كل ما يغيظه في مكان واحد إلا حضور سهلي في المكان، بل ومع رسالة من المبجل خان أرض السهل، ابتسم حكيم إثر هذه الخاطرة، إلا أنه سرعان ما قال:
- وأنت... هاتِ ما عندك.
لم يحمل معه رسالة، ربما لا يدوّنون في أراضي السهل، لعن حكيم اللحظة التي مُكن فيها همج كهؤلاء منهم.
تنحنح الرسول محاولًا الظهور بأنفة وجلال، ثم قال بصوته الأجش:
- يريد مولانا خان السهل أن يستعجل دفعة هذا العام.
احمر وجه حكيم غضبًا وشُحن الجو توترًا، نهض حكيم ببطء رامقًا السهلي بعين تتقد حقدًا.
ثم عضّ على أسنانه حتى كاد يسحقها ليخرج صوته المغتاظ متسللًا من ثغره:
- أكرم ضيفنا يا أودق.
تقدم أودق ناحية حكيم هامسًا في أذنيه:
- أرى أن تعطيه مراده يا مولاي، نحن في ظروف صعبة ولن نقوى على أي نزاع.
نعم لن يقوى أي أحد على محاربة السهليين هذا في أرضهم، فعلى الرغم من أن اسم السهل يوحي بأرض خصبة تفيض بالخير، إلا أن اللعنة لم تذر أحدًا، حتى الأرض الجامدة أتت عليها، فالأرض التي كانت يومًا تفيض بالحملان وتُكرم أهلها نُفث الرحيق المشؤوم فيها، البعض قال آتٍ من حزام الغابة شرقًا، والبعض قال إن سفينة الموت الأسود حملته إليهم، على كلٍ فقد تحوّل السهل إلى أدغال مميتة بينها عدة مساحات قد نجب وهي ما تكون مدن السهل الآن، لذا من يفكر في عبور دروب أدغال الزفير فهو مجنون لا محالة.
وكسابق حاله غمغم حكيم ناظرًا للسهلي:
- سأفعل بعد التتويج.
أماء أودق إيجابًا، ثم أشار إلى الخدم ليصطحبا الرسولين إلى غرفهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صبيحة اليوم التالي نصبت منصة أمام القصر وأحيطت الساحة الخراجية بعدد كبير من الحرس الملكي، ولم يخلُ جوفها من شبر واحد إلا وقد وقف فيه أحدهم ناظرًا نحو المنصة في ترقب.
تعالت صيحات الصغار بينما يحملهم آباؤهم فوق أكتافهم كي يتمكنوا من رؤية المنصة بوضوح، سرعان ما علت دقات الطبول ثلاثًا معلنًا بدء مراسم التتويج.
في بادئ الأمر مبارزة سريعة على المنصة حيث انشغل جل شغالي الصفوف الأمامية من شيوخ البلدان بوضع الرهانات على الفائز.
وبعد سقوط الفارس الأزرق بثلاث طعنات رفع منافسه يديه بسيفه عاليًا محيِّيًا الحضور.
اعتلى رهبان الدم ظهر المنصة بألبستهم الحمراء الفضفاضة، وقتها فقط خفتت حالة البهجة ليتولى الترقب والتوتر الدفة من جديد.
ببطء ترك حكيم مكانه من طرف المجلس حيث الوجهاء والأعيان، وكان من بينهم أودق والرسولان، بينما برز مقعد الملكة مهرة خاويًا.
تقدم حكيم نحو كبير الرهبان ثم انحنى أمامه، بيمين الراهب الأكبر رفع راهب آخر وسادة حريرية توسطها تاج ذهبي مرصع بنفيس الأحجار وتقدمه حجر لامع من العقيق الأحمر.
تناول الراهب التاج، وقال:
- أتقبل الحِمل المسند إليك؟
بثبات قال حكيم:
- أقبل.
- أتقسم على صون وصايا الجريح؟
- أقسم.
- إذًا حكيم ابن سليمان.
ثم وضع التاج على رأسه، قائلًا:
- أعلنك ملكًا على أرض العاصفة.
هلل الحشد وضُربت الطبول ونُثرت الأزهار فرحًا بالملك الجديد.
اعتدل حكيم في وقفته بسرعة مشيرًا للحرس، فتحركوا بسرعة البرق ثلاثة منهم قد أمسكوا بالرسول السهلي، بينما صاح هو فيهم:
- ما الذي تفعلونه!
انطبعت علامات الدهشة على محيا أودق متجمدًا في مكانه وقد طارت الكلمات من شفتيه.
جر الحرس السهلي وسط ذهول الجميع حتى منتصف المنصة وعندها رفع حكيم يده فعمت لحظة من الصمت، أخذ نفسًا عميقًا مغمضًا عينيه، كم كان ينتظر لحظة كتلك، كم كانت الأقدار لينة معه أن ترتب كل ما حدث دفعة واحدة، فتحهما من جديد على اتساعهما صائحًا:
- أيها الناس، هذا الخسيس أتاني بالأمس يطلب من المال ما يقينا به شر قومه.
سكت برهة ورمق السهلي بحدّة، قائلًا بحرارة:
- ألا لعنة الجريح على من مكنهم منا.
وأشار للحرس، قائلًا:
- اضربوا عنقه!
سمعها أودق فهرع نحو حكيم مرتعشًا قائلًا بتوتر:

- جلالتك أرجوك، لسنا في...
صاح السهلي منازعًا من أيدي الحرس:
- ستندمون، أقسم لكم ستندمون.
أخذ أحد الحرس من خلفه جديلة قماش ولفها حول فمه، فتعالت صيحاته في بادئ الأمر مكتومة، فلما استل الحارس سيفه وأخذ يرمق لمعته على ضوء الشمس الحارقة دمعت عيناه وآلت الصيحات إلى توسلات.
قطع نصل السيف كل شيء، السكون وحتى الحواء من حوله كل شيء قد تغير.
وكأن الجميع ثمل لوهلة ثم أفاقوا، فلم يسمعوا سوى ارتطام رأس السهلي بالأرض التي احمرت دمًا.
التفت أودق إلى حيث ضُربت عنق الرجل وراحت عينه المرتعشة تتقلب بين جسده الهامد ورأسه الملقاة بجانبها كثمرة فاكهة عطنة، صاح غير مصدق لما رآه:
- ما الذي...
قاطعه حد سيف حكيم الذي أخذ يداعب عنقه، بينما أودق متخشب في مكانه ينظر إلى حد السيف بوجل.
قال حكيم مبددًا الصمت:
- أنت وأمثالك من أوصلنا إلى هنا.
وبخفة أرجح السيف فطارت رأس أودق وانهار جسده النحيل كجذع مقصول، ثم أخذت دماؤه تسيل حتى أغرقت الأرض ورداء الكهنة وحكيم من حولهم.
بينما كل شيء يحدث بسرعة لم يستوعب الحشد كل ما قيل، بكى البعض وارتعد الآخر، تلى آخرون بعض الصلوات علها تقيهم من شر ما هو آت.
وبينما كلٌّ غارقٌ في بحره، إذ بحكيم يفيقهم جميعًا بصيحة رنت لها أركان المكان، صيحة سيتردد صداها أبعد من أراضي العاصفة وأبعد من نبراس وأبعد من كل شيء:
- أيها الناس، عهد الذل قد ولى، أنا حكيم بن سليمان بن راغب بن بجير بين عاصف...
أخذ نفسًا عميقًا وصاح كما لم يصح من قبل:
- ابن الجريح! ومعي يبدأ عهد جديد.
أنست عباراته الناس الجثث المرتمية على ظهر المنصة وأخذوا يهللون باسمه وحده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طريق الموت

تمرُّ لفحات الهواء باردة أمامه، تلفح وجهه والخوف ينسلُّ مع أنفاسه، متشبثًا بالجدار خلفه ضامًّا ظهره إليه، شهق بقوة حتى كادت أنفاس الهواء الباردة تجمِّد صدره، لكن ذلك أهون من السقوط، بعنق مرتعشة حاول النظر أسفل قدميه، فلم يرمق سوى الحافة... الحافة وأسفلها ألف ألف قدمٍ من الموت ينتظر من يلتهمه.
كل شيء أصبح واضحًا، ملوحة عرقه، دقات قلبه تضرب كالرعد بين ضلوعه.
من مقدمة الصف المتشبث بالجرف الصخري سمع صراخًا... عويل رجل فقد كل شيء، ثم العدم...
رنا بأذنه وأغمض عينه شاحذًا سمعه حتى منتهاه، فلم يسمع سوى ارتطام طفيف، وبالأسفل كانت جثة أخذت تروي الأرض بدمائها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ أيام اللعنة الأولى وأرض الغابة منجى كل هارب وموطن كل عليل، فقد يهيأ للبعض أن كون اللعنة متعلقة بالأشجار يجعل أرض الغابة خطرة، إلا أن الحقيقة عكس ذلك، فالواقع أن اكتظاظ الأرض بالأشجار جعل مرور رحيق الزفير أمرًا صعبًا، وحتى ما يمر منه يفقد كثيرًا من فعاليته.

بقرية صغيرة في أقاصي شرق أرض الغابة تجلّت أخشاب عتيقة تجمعت مع بعضها في رتابة وبؤس يطلق عليها أهلها "منزل".

بداخل إحداها جلس (أوس) ووقفت همومه تراقبه خلفه، ضامًّا كلتا قبضتيه تنهد، ثم نظر أمامه حيث تمددت أمه في قلة حيلة.

صحيح أن اللعنة لا تصل هنا بشكل كامل، لكن لكل شيء ثمن، فالرحيق الخامل يحوِّل المصابين ببطء شديد، يعيشون ألف حياة في لحظة، تمر عقود وهم لا يزالون يراقبون المصير الأسود.

استطالت أطراف أمه وتصلب نسبيًّا أغلب جسدها، حتى شعرها اكتسب صبغة زرقاء، كلها علامات تشير لاقتراب النهاية.

- أ...و...س.

قالتها أمه، ومع كل حرف تعالى أنين أخشاب عتيقة، هبط على ركبتيه وزحف نحو يد أمه، ثم برفق ضمَّ باطن يدها إلى كفه مربتًا بهدوء عليها.

دمعت عيناه واختلج صدره وشعر بالدنيا كلها لا تسعه، وإذ بيده تتحسس خنصر يدها.

ابتهج لوهلة وسالت دموعه أغزر، ظن أنها تحركت... شعر بأنفاس الأمل تداعبه من جديد، فنظر نحو يدها ليتجمد الدمع في عينيه، لم يرَ سوى عقلة خنصرها متهشمة سوداء سقطت عن يدها كذرّة رماد.

لم يستطع تمالك نفسه، فانسحب من المكان بسرعة خارجًا لما هو ليس أسوأ بكثير مما كان فيه.

سماء الرحى مغيومة وأرضها عطنة يفوح منها روث الخيول وجيف الدواب.

تنهد واقفًا بمكانه مدركًا أنه لو تأخر كثيرًا ليكونن طعامه اليوم قشر البلوط، أو ربما بعض ألياف الجوز الجافة.

لكم كره الدنيا، وبما أن عمله جزء من الدنيا فقد كرهه كذلك، خصوصًا إن كان أحوج ما يكون لبعض المال ليسد به حاجته.

فمساعدته للحداد (حمدان) لا يعود عليه سوى بثلاث "روبات" أسبوعيًّا في أفضل الأحوال.

خرج من القرية قاصدًا أطراف (رشتون) أقرب مدائن أرض الغاب إلى قريتهم العقيمة، فهناك على الأقل سيجد رزقًا، وإن كان قليلًا.

وعلى أطراف بصره راحت أمارات المدينة تتجلى بمبانيها الصخرية وأرضها الصلبة وشجرها أبيض اللون البهي يطوقها من كل جانب.

جميلة تلك المدينة، حتى أنه سمع أقاويل أن سيد أرض الغابة الشهباني يقضي الربيع هنا حينما تكون الأشجار في أوج بياضها تعارضها ثمار الخوخ الحمراء لامعة لتبدو من بعيد كبساط حريري مطعم بالعقيق الأحمر.

رويدًا جفت الأرض من أسفل قدميه الحافيتين حاملًا على ظهره كيسًا قماشيًّا به بعض معداته، أمام أبواب المدينة استوقفه الحرس بغلظة، تقدم أحدهم نحوه، قائلًا:

- من أنتِ؟

تنهد قليلًا، وبضجر قال:
- أوس صبي الحداد.
ابتسم الحارس، قائلًا:
- لا تبدو صبيًّا على الإطلاق.
ثم قهقه ببضع ضحكات هو وزميله، بالطبع يعرف من هو، فأوس يمره كل صبيحة، إلا أن الحارس اتخذ السخرية منه عادة، فلم يشأ أوس إحداث أي مشكلة، فمثله من الضعفاء لن يتحملوا سطوة حرس بني أشهب القساة.
ما إن فرغ من سخريته حتى أشار له بالمرور بعينين أدمعها الضحك.
بالطبع لفظة صبي لا تتناسب معه على الإطلاق، فمثله أمضى خمسة وعشرين ربيعًا يحرث أرض الرزق الجدبة ويرتحل حيث تنبت وإن كانت شحيحة.
على كل مر من البوابة العتيقة حتى شوارع رشتون العريضة تحفها أبنيتها الرتيبة طويلة البنيان يمنة ويسرة وتقف في شموخ بعضها تسلقت أعشاب الغابة عليه والبعض الآخر تآكلت أحجاره، لكن ذلك أفضل من كومة الأخشاب التي يعيش بها، أتتحسن حال أمه لو أتى بها للحياة هنا؟
أوس قنوع النفس مليء العين، إن كان مصير الإنسان الموت فلا فارق إن مات على الأرض الجدبة تدهسه الناس أو مات فوق الفرش الحريرية تحفه الخليلات، ففي النهاية سيموت.
جر قدمه حتى ورشة حمدان الذي تجلى على كرسيه الخشبي أمامها، وما انفك من إشعال غليونه حتى رأى أوس يقترب منه داخلًا الورشة دون النظر إليه حتى وكأنه لا يراه!
أخذ نفسًا عميقًا من غليونه المحشي، وداعب شاربه الكث، قائلًا:
- صحيح أنني أعور العين يا فتى، لكن هذا لا يمنع أنني أراك.
تجاهله أوس تمامًا ملقيًا كيسه القماشي بجانب كرسي المِسَنِّ، ثم جلس إليه ملتقطًا دلو الماء الصغير ملقيًا إيَّاه على الحجر الرملي الدوار.
سئم حمدان تصرفات أوس، إلا أنه اليوم متعب أكثر من أي وقت مضى، فلم يشأ طرحه أرضًا واكتفى بالجلوس.
تمر ساعات اليوم هادئة لا يقاطعها سوى صوت احتكاك النصال بالحجر الرملي، لينتهي منه أوس فيبدله بآخر.
ولما كان وقت الغسق ظهر شمعون الجزار على أعتاب بابهم وساطوره العريض يتدلى من حزامه القماشي. اقترب من كرسي حمدان مشيرًا لساطوره صائحًا:
- أتسمي هذا نصلًا؟
هيئة شمعون ترعب حراس المدينة، فما بالك بحمدان؟ سد الأفق أمامه بجثته العريضة ويداه اللتان يقارب عرضهما عرض الساطور نفسه.
تراهن ذات مرة مع زمرة من التجار أنه إذا لُعن شمعون ليسمينه الناس بشجرة العالم، ولربما حسبوه هو أصل اللعنة.
بتردد قال:
- اهدأ يا صديقي.. دعني أرى.
ناوله الساطور بيد واحدة، فما أسقطه على يدي حمدان حتى أخذه أرضًا.
لملم شتات نفسه سريعًا ونظرٍ للنصل، فإذا به سليم نوعًا ما، لكنه أدرك مصيره إذا ما قال ذلك.

وسريعًا ذهب إلى أوس، قائلًا:
- أعتذر منك، سيقوم الفتى بإصلاح نصلك، ومجانًا.
تأفف شمعون، لكنه انتظر على كل حال، وما هي إلا دقائق حتى أتاه حمدان بنصله الجديد ليتركه في سلام.
انتظر حتى اختفى شمعون من الطريق ليلتفت إلى أوس ممسكًا بحجر نحاس نيئ، وبعين تقطر غضبًا ألقى الحجر فأصاب به رأس أوس صائحًا فيه:
- قم بعملك جيدًا يا ابن الغانية ثم فكر بعد ذلك بتجاهلي.
ولما جاء على ذكر والدته أحس بالغضب يعتريه، كان صبره كالفتيل أُشعل حتى نهايته، ولم يرَ أمامه أي شيء سوى لون واحد... أسود.
شعر أوس بالألم في ركن جبهته الأيسر وبخيط دم قانٍ يسيل منها حتى غطت عينه.
تناول أحد السكاكين الصغيرة ثم نظر نحو حمدان وعروق جبينه قد انتفخت أسفل وجهه المُغبَرِّ، صاح حمدان:
- ماذا ستفعل!
وتابع بغضب:
- لقد سئمت منك ومن مشاكلك، اخرج من هنا.
التقط أوس نفسًا طويلًا ثم شحذ يده حتى دمت قبضته على المقبض وألقى بالسكين لتمر بالهواء كومضة سريعة مخترقة صدر حمدان.
نشج حمدان وبعنق مرتعشة رنا إلى صدره فوجد السكين نهشته والدم يسيل من خلفها.
لحظات مرت وحمدان جامد في مكانه، كان عقله يرفض تصديق ما حدث، لكن ما هي إلا لحظات حتى علا نفير الألم فيه، فصرخ.. أنّ كالأطفال، ارتمى على الأرض متقلبًا يمنة ويسرة.
صاح بصوت متقطع:
- اللعنـ... ة عليك.
تأمله أوس بتشفٍّ، في حقيقة الأمر لم يستطع منع نفسه من فعل ذلك، شعر بالنار التي كانت تأكله كلما طاله الذل والهوان قد انطفأت، أحس بأنه يطفو فوق نهر جارٍ، ببساطة ودَّ لو جاء بالكرسي والتقط غليون سيده المقيت وراح يتأمله في عذابة.
ثم فجأة أفاق، نظر إليه يرتعش ويتحشرج، تخف حركته شيئًا فشيئًا، أدرك فداحة فعله وعلم عاقبة مصيره، وقبل أن تسكن حركته تمامًا هرع أوس إليه وأخذ يقلب يديه بجيوب سترة حمدان حتى شعر بصرّة جلدية وأحس بالروبات تتراقص داخلها.
انتشلها منه سريعًا، ثم خرج من الورشة يتلفت يمنة ويسرة، وقبل أن يحرك ساكنًا التفت مرة أخيرة لحمدان الذي كان قد غادر هذا العالم القاسي لعالم ربما أجمل ولو قليلًا من هنا.
تمنى في قرارة نفسه أنه محق فيما فعله، وسرعان ما سلك الطريق الأيمن من الشارع، لم يركض فقد يشتبه به أحدهم إن فعل ذلك، حتى أصحاب الحوانيت أمام الورشة اليوم كانوا قلائل لحسن حظه، ربما ظنوا أنه شجار عابر بينهما لذا لم يؤرقوا أنفسهم بحشر أنفهم فيما لا يعنيهم.
خبأ الصرة ببنطاله وحاول أن يبدو طبيعيًّا قدر المستطاع، اتجه في بادئ الأمر إلى أقصى الضواحي، هناك يمكنه أن يهدأ ويفكر، وربما نال قسطًا من الراحة.

طرقات رشتون جميلة هادئة، تطمئن المار فيها، تكنفه كأم حنون، تحفها دومًا بعض الأشجار، وإن كان ذلك منظرًا غير محبب لدى كثير من سكان القارة، لكن في أرض الغابة يختلف الوضع قليلًا.
تضيق الطرقات وتقل المزروعات ويظهر بعض الروث هنا وهناك تمهيدًا باقتراب الضواحي، وإن كانت المدينة حقًّا جميلة ويأتي سيد الأرض سنويًّا إليها، فهذا لا يمنع أبدًا تكاثر الصعاليك في أقاصيها، بل بالعكس ربما ذلك يحفزهم للاستقرار في هذه المدينة.
تمشى بين الأزقة خائفًا يظله قمر الليلة المنير، يمر بهذا وذاك، أناس حتى النظر إلى محياهم قد يصيب المرء بأقصى درجات الذعر.
رأى لافتة تعلقت بيأس بارزة من إحدى الحوائط كُتب عليها بلون أبيض باهت "حانة".
جر قدميه سريعًا نحو بابها، وكعادة أغلب أبنية الضواحي لم يجد لها بابًا يسترها.
وقف على أعتاب البناية مترددًا، لم يرَ سوى... في الحقيقة لا يوجد شيء سوى كراسي متآكلة مقلوبة، أغلبها محطم الأقدام وحوائط رثة ترمق أركان المكان منذ أمد بعيد، بركن المكان الأيسر برز سلمٌ نحيل يكاد يتهاوى على نفسه، بجانبه جلست عجوز ملتفة حول أنسال بالية تنظر إليه بعين بيضاء.
- أستظل هكذا؟
خرج صوتها رفيعًا، صوت كأنين الأخشاب لكنه دافئ، تنهد أوس وهلة، ثم قال بتردد:
- أبحث عن مكان يظلني الليلة.
- لدي غرفة بالأعلى، عشرون فلسًا لليلة.
تلفت أوس يمنة ويسرة، وبوجل مد يده ببنطاله حتى طال الصرة، لم يخرجها، فهو ليس بالحمق الذي يدفعه لإخراج هكذا مبلغ من المال أمام حفنة من الحمقى العراة الجياع.
مد سبَّابته داخل الصرة متناولًا روبة واحدة، ثم شق طريقه عبر حطام الكراسي نحو العجوز مناولًا إياها لها.
تحسستها بأناملها الدقيقة ناظرة إلى وجهه بعين متسعة كبدر الليلة، شعر بها تنظر إلى فؤاده، في الواقع منظرها أرعبه قليلًا، لكنه لا يملك خيارًا أفضل، تنحنح أوس، ثم قال:
- يمكنك الاحتفاظ بالباقي.
لم تنبس العجوز ببنت كلمة، فقط ظلت تراقبه صاعدًا الدرج المتأوه.
لم يكن من الصعب عليه إيجاد الغرفة التي كانت العجوز تتحدث عنها، فبمجرد أن ارتقى الدرجات كان بالفعل داخلها.
هو ليس بخان فاره كي يطلب أكثر من ذلك، حتى الغرفة من الداخل كانت خاوية، أرض خشبية فرشت بقطعة ربما كانت حمراء أو بنية، لن تدري.
اتجه نحو ركن الغرفة المقابل للشرفة، لم تكن شرفة بالمعنى الدقيق، ربما ضجر أحدهم من حوائط الغرفة المصمتة وقرر شق منفذ فيها، فكانت مربعة غير متساوية الأطراف.
ثم تمدد مراقبًا السماء تزف القمر رويدًا، وسرح بعقله مفكرًا، بالطبع سيجدون جثة حمدان، ومن المؤكد أنه أول شخص سيبحثون عنه، هذا إن لم يبدؤوا البحث فعلًا.
اعتدل في جلسته ومد يده بجانب سترته قاطعًا جزءًا صغيرًا من نسيجها لتبرز من خلفه شفرة معدنية كان أوس يخبئها دائمًا لأوقات الحاجة.
ثم مرر الشفرة على رأسه، أزال أول حفنة من الشعر وأتبعها بالثانية، جرح رأسه مرات ومرات حتى أنهى تعرية رأسه وسريعًا فعل المثل مع ذقنه، بهذه الطريقة سيتغير شكله نسبيًّا.

عاد مجددًا لنومه مفكرًا، بهذا القدر من المال يمكنه أن يرسل والدته للكهنة، يقولون إنهم وجدوا علاجًا يشفي من الرحيق الخامل، يمكنه شراء منزل بالمدينة يريحه من ذلك المكان اللعين، لم يكن الاختيار صعبًا وسريعًا، كان النوم قد داعب عينيه حتى كنفه بالكامل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح التالي نهض أوس بظهر ينتحب ألمًا إثر النوم على الأرض القاسية، سريعًا نفض وجهه وعدل ملابسه ثم هبط السلم ليجد العجوز كما هي، ترمقه بعين منفرجة على الرغم من الضوء الساطع المنكب عليها.

نظر لها بغير ارتياح، حتى أنه تعثَّر في طريقه خارجًا من المكان، استقبله الزقاق الضيق كما كان، إلا أن الضوء قد كشف بعض معالمه، فهناك سَكِرٌ بالقارعة وبجانبه كلب ممد، ربما مات أحدهما أو كلاهما.. لا فارق، وعلى حافة الطريق اليمنى عدة براميل وصناديق خاوية.

سلك دربه خارج الزقاق، لا يجب عليه ترك الضواحي، وفي الوقت ذاته يعلم الحرس جيدًا أن صعلوكًا مثله أول مكان قد يتجه إليه هو الضواحي، وقد كان قراره بترك المدينة كلها، ولكن أنّى له ذلك!

فكر مليًّا حتى توصَّل لطريقة قد تنجح وقرر المراهنة عليها، اتجه حتى طرف الضواحي حيث أغلب القمّاشين، وانتظر رويدًا إلى أن لمح فرصته تلوح أمامه، قد وقفت عربة مدبرة زقاقًا ضيقًا بجانب أحد الحوانيت، قطع أوس الطريق حتى بلغ يمين الحانوت، ولحسن حظه فقد وجد ممرًّا ضيقًا بين بنايتين يساره، فالتف حتى برز ظهر العربة أمامه.

وكان الانتظار، يضع العامل لفافات الأقمشة واحدة تلو الأخرى، وأوس يختبئ خلف حائط الممر بانتظار الفرصة المناسبة.

نفدت اللفافات من أمامه، فذهب لإحضار المزيد، لم ينتظر أوس ولو غمضة عين، فهرع سريعًا إلى ظهر العربة ودفع نفسه بين اللفافات المرصوصة بعرضها عدة دفعات، سمع خطوات العامل يساره تقترب أكثر، فدفع نفسه بقوة أكبر حتى كاد ينسحق بين الأقمشة، ثم دخلت قدماه أخيرًا مع مرور العامل من مؤخرة العربة.

سكن بمكانه آملًا ألا يكون العامل قد لاحظ أمرًا، الهدوء بالخارج يقتله ويخنق فؤاده أكثر من خنق الأقمشة له، تعالت دقات قلبه وحاول مليًّا تهدئة أنفاسه ليسكن كل شيء عندما شعر بالعامل يضع لفافة أخرى ثم أغلق الستارة بظهر العربة.

أخذت العربة تتحرك بتؤدة، فحاول الاقتراب من المؤخرة بهدوء ليفرج عن نفسه قليلًا، وسرعان ما وجد نفسه بجوار الستار فمد رأسه ملتقطًا عدة أنفاس.

لم يكن اتجاهه لهذا الركن تحديدًا من المدينة وركوبه لتلك العربة مقامرة؛ فهو يعلم يقينًا أن تلك العربات تخرج قاصدة نبراس، كبار التجار تحديدًا يفصلون بين بضائعهم المعروضة لأراضي النور، وتلك الذاهبة لنبراس وأغلبهم يجهز بضائعه بالركن ذاته الذي ركب منه أوس العربة.

كان مغمورًا بالكامل أسفل الأقمشة، وبين الفينة والأخرى يرفع طبقة القماش عن رأسه ليلتقط بعض الأنفاس.

ساعة مرت حتى كانوا عند بوابات المدينة، توقفت العربة مرارًا ودنت الشمس من ركن السماء حتى علا صوت الحراس وأصبح جليًّا.

صاح أحدهم من بعيد:

- وما الداعي من التفتيش، لم يحدث هذا لي قط!
ليرد عليه صوت أجش:
- أنصع للأمر وإلا كبلتك الآن.
علت دقات قلب أوس وتراجع قدر المستطاع داخل العربة حتى سمع العامل يخاطب التاجر صاحب الأقمشة قائلًا:
- ألم يجدوا الصعلوك بعد؟
ليرد التاجر بصوت رفيع:
- يقولون إن السقيم قتل سيده وسرق أمواله!
تنهد العامل:
- ألا لعنة الجريح عليه، ألا يخشى مصيره؟
- الطماعون يا بني لا يسد عينهم إلا التراب ولا ينتهون حتى يسقطوا في القاع.
شعر أوس بالنار تأكله، الآن هو المجرم المقيت الذي قتل سيده ليسرقه، لكم سرقه حمدان ولكم قطع أجرته لأسباب تافهة والآن حمدان شهيد يكرّم وهو مجرم ذميم!
توقفت العربة أخيرًا إبان البوابات، وشعر أوس بالتاجر وصاحبه يترجلون عنها، وعلا صوت الحرس بالخارج:
- سنفتش العربة.
لم يعترض التاجر وقادهم حتى مؤخرتها كاشفًا عن لفافات الأقمشة غير المرتبة نسبيًّا، إلا أنها تقف الواحدة فوق أختها تسد بعضها بعضًا.
همَّ أحد الحرس بإخراج خنجر، فهمس له التاجر:
- هذه الأقمشة مسافرة لنبراس يا سيدي.
وميد يده بيده مناولًا إياه عشر روبات متبعًا:
- أعلم أن اليوم صعب، لكن لو ذهب أقمشتنا ممزقة لنبراس أو لم تذهب لربما توقفوا عن الشراء منا.
سكت برهة، وغمغم:
- وهذا لن يرضي جلالته.
تأمل الحارس الروبات، ثم صاح بزملائه:
- أفسحوا لهم الطريق.
ليعود التاجر إلى مكانه ويكملوا المسير.
أخرج أوس رأسه بعد ابتعادهم عن المدينة يتنفس الصعداء، كل شيء مَرَّ سريعًا، لكنه في النهاية مر.
لو كان للرحيق الخامل نعمة هو أن مريضه لا يحتاج إلى عناية، لا يحتاج إلى طعام أو ماء، حاله حال النبات، يستقبل الشمس ويتلقط ما يقوى عليه من الأرض؛ لذا لم يقلق على أمه كثيرًا.
أخذ الطريق يمر والهواء يعوي بهم، وأوس ينتظر، حتى أتت البقعة التي كان ينتظرها، فدفع نفسه خارج العربة بقوة، دفعة تلو الأخرى، ومع آخر دفعة خرج جذعة يتدلى خارج العربة تضرب رأسه الأرض الطينية، ولحسن حظه أنها كانت كذلك، فلو أنها جافة لصعدت روحه إلى السماء من فورها.
رفع جذعه بسرعة، ودفع نفسه مرة أخيرة ليرتطم بالأرض متدحرجًا عليها حتى استقر تمامًا.
غطاه الطين من جانب، فاعتدل وأخذ يسعل وشعر بالألم يلم به، إلا أنه تحامل على نفسه وقام يكمل مسيره.

أصابته عرجة خفيفة، ونال الجوع والعطش منه، وشعر بكل شيء حوله يدور، حتى برز أمامه. شامخًا ببرجيه الطويلين وحوائطه ذات الزجاج الملون وبنائه الحجري المطعم بالأخشاب في الزوايا والأركان، وعلى بابه الكبير برزت زخارف شتى وأحجار العقيق تنيره كالنجوم.
مغطى بالطين أعرج يتقدم من معبد الدم مرتديًا نسله البالي، رويدًا رأى الباب يقترب، لم يكترث إن كان هو من يقترب من الباب أم أن الباب هو من يتدانى إليه.
على الناحية الأخرى من الطريق الممهدة كان رجل يرتدي معطفًا جلديًّا أسود يمشي أمامه صف من الرجال والنساء، عراة إلا مما يستر عوراتهم.
يضرب صوته الأرض صائحًا:
- تحركوا... ليس لدينا اليوم بطوله.
رمقه أوس، تأمله برهة قبل أن ينهار أمام المعبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كارم

ظلام... ساعات تمر وأيام تعدو ولا شيء يحاوطه سوى الظلام، في ركن قصيّ من غرفة لا يدرك أبعادها تكوّر كارم على نفسه يصارع بدنه وعقله وتتآكل روحه، انفرجت عينه حتى آخرها خلف العصابة التي ربطت بإحكام عليها، وترددت تأوهاته أسفل كمماته، فلا هو مبصر ولا إلى الكلام إليه من سبيل.
لا يزال عقله يحاول استيعاب ما جرى، لم يكن يدرك ولو حتى في أسوأ كوابيسه أن ما شهده قد حدث فعلًا، حميد أخوه الذي ضحى بكل شيء من أجله، ضحى بطفولته في عالم تعيس وحرم نفسه من شتى الأمور لأجله، ونام ليالٍ بمعدة خاوية فقط ليجد هو ما يسد جوعه.
جرب أن ينام، أن يسلك بعقله درب الأحلام... ساعة تمر تجر أختها ولا فائدة.
يداه وقدماه كُبلتا، تمر صورة أخيه وهو يقف جوار بثينة التي نظرت له بتشفٍّ، صوته يعلو ويعلو أن كارم هو المسؤول عن قتل رومان.
منذ نعومة أظافره وعندما كان ابن التاسعة حفظ قاعدة واحدة، تجار الجزر لا يسرقون تجارة إخوتهم، وإن حدث ليبتلعنه الأزرق العظيم.
استثناء واحد لهذه القاعدة، استثناء واحد حرص تجار الجزر على عدم خرقه البتة، وإلا كانوا عرضة لخسارة كل شيء، نص التسعة على أن سافك الدم منبوذ فهو مثله مثل الأنعام، لا حق له ولا حُرمة.
وبطن البحر تشهد على أولئك الحمقى الذين سطوا على بضائع إخوتهم، البعض قال سحر والآخر قال إنه غضب من الآلهة، لم يكترث كارم لسبب ذلك، فقط اكتفى بمعرفة أنه ليس مزحة ساذجة أو خرافة يتناقلها العجائز.
علمت بثينة يقينًا أن كارم سفك دم رومان، وشهد أخوه على ذلك، وحُق لها أمام الناس كلهم أن تستولي على سوقه وتجارته.
لن ينسى كارم عيون رجاله وقد ربطوا أمام أزواج الأقدام العظيمة، كلهم ينظر إليه، تفيض وجوههم بالكلمات، يرنوا كل منهم له ولسان حاله: لماذا!
أُنزلت السيوف وعبرت الأعناق وسالت الدماء تروي ساحة التسعة، ونودي في الناس من الساعة أن للجزر سيدة واحدة، واسم واحد تعبر به السفن بقاع العالم (بثينة البيضاء) وليس لدونها على هذه

الجزر سمع أو طاعة.
وسرعان ما اقتيد إلى حيث هو، حيث لا طعام ولا شراب إلا بعض الماء العكر وكسرات الخبز القاسي.
كم مر من الأيام؟ لا يهم، لا يسمع سوى قطرات الماء المزعجة تهبط على الأرض القاسية أسفله برتابة.
حتى رعد لم يعلم ما أصابه، ومع كل قطرة ماء زاد اختناقه، تآكل عقله حتى أنه شعر بالجدران تكلمه.. أصبح النوم ضيفًا بعيدًا عنه وجحظت عينه.
علم فيما تلى من الأيام أن حميد تولى سوقه عوضًا عنه تحت إمرة بثينة، أخبره الحارس بالكثير من الأمور، لكنه نسي أغلبها، ربما فعل عقله ذلك شفقة عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دهر مر لم يدرِ حقًّا ما الذي قد يبقيه كل هذا الوقت محتجزًا، لو كانت بثينة تبغي إعدامه لفعلت، ولو أرادت تعذيبه فيمكنها فعل أكثر من ذلك، لكن ما الذي يدفعها للإبقاء عليه؟!
سمع صوت الباب الخشبي يُفتح، فاعتدل في جلسته، لا يرى شيئًا بسبب عصابته، ولا يقوى على الكلام بفمه المسدود، فقط انتظر، ربما هو الحارس آتٍ ليطعمه كما اعتاد أن يفعل الفترة الأخيرة.
لكنه شعر بيد تمسك ساعده، يد حانية شعر بدفئها يتسلل إليه، دمعت عيناه وشعر بفؤاده ينفطر، رويدًا ساعده صاحب اليد بالنهوض فرفع قدميه متثاقلًا مرتعشًا، لم يعرف للحركة طعمًا منذ أمد بعيد، ونسي جسده أبسط الأمور.
وما إن انتصب حتى ارتكز قليلًا على صاحب اليد بتؤدة قبل أن يقوده الأخير إلى الأمام.
خطوة ثم أخرى، شعر بنفسه يتعلم المشي من جديد، أحس بأنفاس الهواء تداعبه وتناديه، كم افتقد هذا الشعور!
خرج من الباب لا يزال لا يعلم أين هو، ربما حانت ساعته وهو الآن في طريقه لحبل الموت.
كان الهواء مكتومًا، لكنه رغم عطنه ذاك فهو أفضل من عرق الإبل الذي كان يتنفسه سابقًا.
رويدًا تسللت بعض خيوط النور من خلف عصابته وشعر بالهواء أخيرًا يلفحه، ملأ صدره حتى آخره، شعر بالسعادة تغمره، لو كانت هذه نهايته حقًّا فليس لديه مانع.
شعر بقائده يتوقف ثم حمله حتى أجلسه صهوة أحد الخيول، أدرك كارم ما قاساه، الرجل حمله كحفنة أغصان جافة، لم يكترث لذلك كثيرًا، فسرعان ما شعر بقائده وقد اعتلى صهوة الجواد لينطلق بسرعة.
ملأت التساؤلات عقله، ورويدًا أخذ يجهّز نفسه للأسوأ، تنهد واستذكر شريط حياته، لم تكن سيئة... على الأقل بالنسبة له.
مرت أقل من الساعة قبل أن يتوقف الجواد، شعر كارم بعبق البحر يملأ صدره، وأنصت جيدًا لألحان الموج الفريدة، فعلم أنه أمام صديقه الذي هجره منذ أشهر، أمام الأزرق العظيم.
ترجل قائده ثم أنزله من الجواد فشعر بالرمال الرطبة تملأ الفراغات بين أصابع قدمه، وأخيرًا مد الرجل يديه فاكًّا عصابة كارم وكمماته.
أغمض عينيه وملأ فمه بالهواء، ثم تنهد وببطء... فتح جفنيه ليبصره أمامه.
اختلج صدره واضطربت نفسه، لم يدرِ ماذا عليه قوله! أحبّه جدًّا وكرهه كثيرًا، انتصب حميد أمامه بشعره الأصهب ولثامه المعتاد.

التف حميد لظهر كارم حالا وثاقه، عقد الأخير حاجبيه وبالدموع اغرورقت عيناه، ثم تسلل صوته المبحوح لتفوح منه رائحة الألم، قائلًا:
- لماذا!
تنهد حميد، انتهى من تحرير أخيه، ثم أشار له على الشاطئ حيث رسا قارب شراعي صغير، قائلًا:
- كانت بثينة لتعدم لولا توسطي، ستتركك للأزرق ليفعل ما يراه فيك.
ابتسم كارم، ثم أطلق بضع ضحكات خفيفة:
- تقول للأزرق، وتوسطت لي!
أمسك كارم بمعصمه يتحسسه ويتأمل ندوب الوثاق عليها، ثم رفع رأسه إليه، قائلًا:
- بئست الحياة التي يمنحها لي خائن مثلك.
- أتفهم غضبك، لكن اعلم أن ما فعلته ليس لأجلي، لو استمر حال السوق على ما كان عليه كانت ستستولي عليه بثينة عاجلًا أم آجلًا، لكن الفارق الوحيد أنها كانت ستأخذه خَربًا، وبدون أحد منا.
اتجه حميد نحو القارب يرمقه كارم، تلفحه الرياح فيميس معها كعود قش وهن.
- اخترت الصالح لنا يا أخي.
تقدم كارم حتى دنا من القارب ثم التفت إلى حميد، قائلًا:
- بل اخترت الصالح لك.
وعلى ظهر القارب كان رعد بريشه القاني ينتظره، طار إليه مبتهجًا، ظل يصفر بعين ملتمعة يداعب عنق كارم.
ابتسم كارم، على الأقل أحدهم لا يزال يكنّ له الاحترام، أشار حميد إلى مؤخرة القارب، قائلًا:
- زودتك بطاعم يكفيك أربعة أيام... آمل أن تجد طريقك.
دفعا القارب سويًّا حتى اعتلى ظهر الماء، غمغم كارم:
- سأفعل.
ثم ركب القارب وأخذت المياه تدفعه رويدًا بعيدًا عن الجزر، تزفه عنها بينما حميد أدبره عائدًا حيث كان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأزرق العظيم... طالما نظر لذلك الوحش المهول منذ صغره، ليس بخوف ولا بوجل، وإنما كان يتأمّله باحترام بالغ، ذاك البحر أنف النفس، حاد الطبع، لا يدع أي أحد يعتليه؛ إلا من يستحق فعلًا.
تموج به الريح بعيدًا وبعيدًا، التيارات مهتاجة والهواء مستنفر، وكلهم يتجهون في اتجاه واحد، عكس جزر الملح.
لا يهم من أي أنت آت ولا يهم حجم السفينة، فقط بحّارة الجزر هم من يعلمون طريق العودة إليها.
تمدد كارم على أرضية القارب الخشبية يتأمل السماء وقد غطت نفسها من جديد، يستذكر كل ما حدث، يحوم رعد رويدًا في السماء ثم يعود إلى طرف القارب، يتأمله كارم قليلًا، يشعر بثقل جفنيه وأنامل النوم تحثه نحوها حثًّا ثم....
ظلام، شعر بنفسه ممددًا كما كان، إلا أنه لم يرَ شيئًا سوى العتمة، يشعر بالأرض أسفله صخرية قاسية، جافة مخيفة، يحس بسائل دافئ لزج يحيط بح، لكنه لا يرى... حاول تحريك يديه أو عينيه، حتى الهواء لم يجد لصدره طريقًا، بدأ الذعر يتسلل إليه، وكأنه قُطع تمامًا من الدنيا يطفو في الفضاء، إلا أنه يشعر بكل شيء.

بدأ السمع يتسلل إليه من جديد، أنصت جيدًا... ثوانٍ، دقائق، قطرات ماء ترسو على السائل المحيط به.
سمع همهمة من بعيد، صوت رخيم أشيب، صوت تطمئن له أي نفس، نبرة كانت لتلين الفولاذ، شعر أنه يعرف هذا الصوت، بل هو متأكد أنه سمعه من قبل، كل شيء بدا مشوشًا... أخيرًا لم تعبر أذنه سوى جملة واحدة: أنا هنا يا بني.
وبعدها لم يسمع شيئًا، انتفض من مكانه كالملسوع ممسكًا بأطراف القارب، يلتهم صدره الهواء في نهم، يلتفت يمنة ويسرة في ذعر، يعلو صفير رعد في الأفق، صفير طير مذعور.
التفت أمامه فلم يصدق ما رأته عيناه، سمع عنها في حكايا البحارين، هو بنفسه كان يضع التمائم على سطح السفن تعوذًا منها، إلا أنه ولأول مرة رآها.
برزت أمامه بأخشابها السوداء العريضة تمخر عمام البحر بلا أشرعة، تبرز وجوه المعذبين على ألواحها هنا وهناك وتتسلل أوراق الزفير الزرقاء اللامعة عليها هنا وهناك.
تبرز أعين الأشباح المتأملة على سطحها في انتظار الخلاص، حتى السماء من فوقها وجلة، ترتعش السحب من فوقها في ذعر.
لم يتخيل أبدًا أن سفينة الموت الأسود قد تبدو كذلك ولو في أسوأ كوابيسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حكيم

في أعلى نقطة يمكن للمرء أن يصل إليها في أراضي النور كلها وقف حكيم معتليًا برج قصره مطلًّا على مدينة عات التي لا تزال أنفاس الموت تطالها من حين لآخر.
ممسكًا بحافة البرج تأمّل منازل الشيوخ والوجهاء بالقرب من حرم القصر تليها بيوت العامة على استحياء.
يسد الضباب بثقل الفراغات بين المنازل وتظلهم السماء مهتاجة، لا تزال تبكي الراحل سليمان.
على الرغم من بعد المسافة بينه وبين المنازل، إلا أنه سمع منها ألف حكاية وحكاية، كل ما فاته وما هو فائته، إما بسبب موت أبيه أو بسبب الحمل الجديد.
من السلم الملتف حول البرج علا صوت اللهيث رويدًا حتى مثل حاجبه خلفه، قال بصوت متقطع:
- جلالتك، الكل في انتظارك.
التف حكيم نحوه مطلقًا بعض النظرات إليه، شاب فقر الوجه، أوسد الشعر، باهت الملامح، حاله حال الكثير من الكدادين في هذه البلاد، بعد قتله أودق لم يرتئِ أفضل منه ليقلده منصب مستشار الملك الأول.
- اسبقني يا ثامر.
لاهثًا سقطت كلماته منه، سريعًا انحنى بيده الواحدة، قائلًا:
- أمر مولاي.
ثم هرول عارجًا نحو السلم.
مد حكيم يده اليسرى أمامه متأملًا ما فيها وابتسامة عريضة برزت على محياه، ثم ضمها إلى جيبه مرة أخرى متجهًا نحو الدرج ببطء.

أثارت أحداث التتويج الكثير من البلبلة، وراح عقل حكيم أثناء نزوله يضع كل شيء نصب عينيه، نار الحرب تلوح في الأفق والأخبار تسري في أراضي النور والكل يتصبب عرقًا، شيوخ أرض العاصفة كثير منهم قد أنكروا فعلته، وزاد البعض حد التبرؤ من جريرته.
الأجواء محتقنة والوضع صعب، لكن نظرته دومًا للأمور كانت مختلفة، كان يرى العلة تطفو على سطح المعلول، كل التراكمات كانت تشير إلى هنا، كل أفعال أبيه وفساد مستشاريه، تنازله عن مقدرات البلاد تاركًا رعيته لسوء الأقدار تفعل فيهم ما تشاء.
ازدرى فعلة أبيه بحق، أليس أولئك شعبه، أليسوا أحق من همج أرض السهل بما يأخذونه كل عام؟!
كان قد وصل إلى قاع البرج حيث لم يمكن الحال هنا أفضل من الحال أعلاه، على بوابة البرج بانتظاره تجلت زهرة، واحدة من جملة جواريه هو قبل أن يرث أباه.
- مولاي الأمير.
ولوهلة اتسعت عيناها ثم تنحنحت بحرج وانحنت قائلة:
- أرجو من جلالتك أن تعذرني؛ عادة اللسان.
ابتسم حكيم بخفوت، قائلًا:
- لا عليك... ستعتادين الأمر.
انسدل شعرها أحمر قانيًا حريريًّا طويلًا خلف عنقها، وللمعانه كان المرء ليميزها وسط فلاة، وعلى اسمها كانت مسماة، زهرة... لو وقفت في حديقة جلالته لتعثر المار بها.
جيد رفيع وعينان تتضحان بالنور وألوان الربيع، اعتدلت في وقفتها، ثم قالت جامدة:
- جلبت ثيابك كما أمرت.
شكرها حكيم ثم أشار لها بالانصراف.
سريعًا رفع عنه قمصيه القطني الأبيض وبنطاله البني الذي لو رآه أحد بهما لظنه ابن رجل من الفلاحين.
ثم اتجه لدلو الماء الواسع منظِّفا وجهه، تأمّل نفسه على سطح الماء المستوي، ناعمة هي حياة النبلاء، لا ندب قد غار على صدره أو إصبع بُتر في عراك على طبق يخنة عطن أو ربما ما هو أقل من ذلك، ارتدى لباسه المخملي واضعًا فوقه عباءته الاستبرقية الحمراء، ثم خرج من البرج حيث حصانه الأبيض ينتظره.
اعتلى صهوته ثم لكزه فتحرك به، كانت دار ضيافته تتوسط المسافة بين البرج ودار الحكم، وبعدها لم تجد ثمة بناية عدا الإسطبلات، وسكنى الخدم، وجملة المملوكين والجواري.
يتحرك به الجواد لينسل الهواء بنعومة بثنايا عباءته القانية حتى وصل أخيرًا أمام دار الحكم.
ترجّل متأملًا النافورة العريضة أمام الطريق الرخامي الأبيض الممهد لبناية عرشه، فبرزت النقوش والزخارف عليها يمنة ويسرة، وفاح عبير الأزهار خلفها مطيبًا هواء اليوم الراكد.
التف حول النافورة تلفظ عبيرها متلألئًا أمام الطريق المشجر الذي سلكه حكيم حتى دلف من البوابة المفتوحة آخره إلى ساحة فسيحة كان المرء ليسهب في تفصيل كل باب فيها، كل ركن وكل دهليز وكل مكان مهما بدا صغيرًا هنا إلا أنه لم يشتم منه سوى رائحة الكره وعبق الخيانة.
تجاهل كل شيء متجهًا نحو آخر باب وأكبرهم، بطول ستة أمتار كاملة وقف صخريًّا جامدًا يحكي ملحمة أبدية، برز عليه رجل قد جلس أرضًا مسندًا رأسه للحائط المتهدم خلفه، ومن وراء الحائط ارتفعت السيوف شاهقة لتطال حد السماء.

اقترب حكيم من باب قاعة العرش أكثر، ومع اقترابه علم بما هو آت، سمع صليل السيوف وصرخات الأعداء، والدم يعبق بالأجواء وأنين ساحات الوغى يطرب السامعين ويكسب الطامعين ويثلج أفئدة المنتقمين.
سرت ببدنه رعشة خفيفة لدى سكونه أمام الباب، شعر به يخاطبه، انسلت كلماته لتملأه ألمًا وحقدًا:
- أي بني، مجدي لك.. بركتي لك.. بخلت الأرض وبارت النفوس وكلها أمانة لك.. فاستردها.
ولوهلة أدرك أنها جدارية مصمتة أمامه، إلا أنه يكاد يقسم أنه سمع الكلمات.
انفتح الباب كاشفًا عن قاعة كبيرة صلدة الحجارة داكنة، وبلمعان كرسيها المذهب آخرها كانت فاتنة.
ببطنها صف من الكراسي قبالة بعضها البعض، لو أدركت فقط من تحمل لانهارت على نفسها.
دلف حكيم رافعًا يسراه ليغلق الباب خلفه ببطء، فوقف الحاضرون، وكانوا خمسة.
بثقل جرّ أقدامه، فانحنوا لدى مروره بهم كلٌ بدوره حتى جلس إلى العرش واضعًا قدمًا فوق الأخرى.
هادئًا قال حكيم:
- لنبدأ يا سادة.
وقف ثامر مبتور اليد بأقرب الكراسي يمينًا إلى العرش، وبوجل جلي قال:
- نبدأ المجلـ...
لم يكد يكمل جملته إلا وصوت رحبان صاحب الشرطة الأجش الجهوري قاطعه، قائلًا:
- دعك من الرسميات يا فتى.
بتردد أوقف ثامر كلماته حتى كادت تخنق حلقه وشعر بالهواء يضيق به وبالجو قد شُحن.
التفت رحبان إلى حكيم عاقدًا حاجبيه في سخط، قائلًا:
- جلالة الملك، أرجو أن تفسّر لنا ما حدث يوم التتويج.
بأقصى يسار الطاولة هم سعيد السماري أن يقاطع رحبان مؤنبًا إياه على مقاطعته فاتحة المجلس، إلا أن حكيم أشار له بيمناه، قائلًا:
- لا عليك يا سعيد.
بجسده الرفيع عاد سعيد إلى مجلسه رامقًا رحبان بأقصى درجات الكره والازدراء. ربما كره رحبان مشترك بين رجال أرض العاصفة عمومًا، فالرجل يمشي بتاريخ أسود يسبقه، يقال إن شِعبًا من بين سهيل قد عادوا متمردين على سيرة أجدادهم، فأصر رحبان على القبض عليهم أحياء، وفي النهاية وزعهم على مدن المملكة وفي الميادين والساحات العامة وقام بإخصائهم أحياءً، حتى أن الملك راغب وقتها غضب من فعلته وعزله قبل أن يعيده سليمان لمنصبه من جديد.
زفر حكيم، وبثبات قال:
- فعلت ما كان يجب أن نفعله منذ زمن يا رحبان.
ضرب رحبان الطاولة بيده ينسلُ اللهيب من بين أسنانه حتى يكاد يحرق القاعة بمن فيها، قائلًا:
- لقد أشعلت حربًا لن نقوى على دخولها.
هنا رفع جهير العامري عينيه في عيني رحبان، فسكت لوهلة، راحت ندوب وجه جهير تقطر وعيدًا، ولربما رآها رحبان تنزف من أمامه ينسل منها الوعيد خانقًا إياه.
عريض المنكبين، حليق الذقن، يتشح وشاحًا أحمر قد تدلى بعضه مغطيًا رداءه الأسود.
أتى صوت جهير ساكنًا هادئًا، بكلمات حادة أجبر الجميع حتى الملك نفسه على الإنصات بتمعّن:
- لا بركة فيمن يحادِث مليكه بهكذا طريقة.

التمعت عيناه، قائلًا:
- ولولا حرمة المكان وحضرة جلالته لسفكت دمك الآن.
اعتدل رحبان ممتعضًا، وأخذ يغمغم بكلمات متقطعة غير مفهومة، التفت جهير إلى حكيم، قائلًا:
- على كلٍّ أخشى أن صاحب الشرطة لم يجانب الصواب كثيرًا.
ثم نهض فجرّ ذيل عباءته القرمزية الأرض من خلفه، مقتربًا من ملكه متبعًا:
- أرض السهل ملعونة، لم يطأها أحد من غير أهلها إلا ضاع في أدغال زفيرها.
تنهد ثم التفت لباقي المجلس، قائلًا:
- غير أن جيوشنا لا تزيد عن الأربعين ألفًا... هذا مع احتساب حرس الكهوف والمناجم وأرباب الأزرق العظيم الذين لا يمكنهم ترك أماكنهم.
بتؤدة عاد لمجلسه مردفًا:
- على أقل تقدير جيوش السهل تسعون ألف جاهزون لدفع أبوابنا.... على أقل تقدير.
رفع حكيم رأسه بثبات، قائلًا:
- أعهدتني أرعنًا يا جهير؟
أصاب سؤال حكيم بؤرة في ذكرياته، كان جهير من حرس أبيه، ويقال إنه تدرب صغيرًا مع زمرة جند الراحل راغب قبل أن يتخذ مكانه في حرس الملك ولم يبارحه منذ ذلك الحين.
عهد حكيم طفلًا، بل وربما تشرب منه بعض سلوكه وحكمته ونظرته الثاقبة.
كان جهير يعلم يقينًا أن وراء فعل ملكه أمر ما مبطن، تنهد حكيم ناهضًا من مجلسه، قائلًا:
- يا سادة، أتحسبون أن ما أسلفتموه يقع في حكم المجهول عندي؟! إن إرث أبي لم يكن مملكة مدمرة وأرضًا منهوبة فحسب.
أخرج من جيبه لفافة جلدية ورفعها بقبضته، قائلًا:
- لقد ترك لنا مفتاح الخلاص.
أخذ الرجال يرسلون النظرات في تعجُّب إلى بعضهم البعض، تارة إلى حكيم وأخرى إلى جهير، وكلهم يرمقون اللفافة بنفوس وجلة، لسبب ما دارت حولها هالة غريبة، هالة باردة خاوية من المشاعر.
فرد ظهرها أماهم لتتجلى الكتابات السوداء عليها واضحة، لا يدرك كنهها إلا القليل، جهير نظر إليها صامتًا، ورحبان صاحب الأعصاب الفولاذية ارتعد في مكانه.
سعيد وثامر والبقية لا تزال وجوههم ترمق حكيم بنفوس غير مطمئنة.
هبط حكيم من عرشه حتى بلغ طاولتهم، ثم قلب اللفافة على استقامتها أمامهم ليظهر رسم يدوي لبقعة مشجرة تتقاطع بينها الطرقات الرفيعة كخيوط الحرير وتتناثر عليها دوائر ورسم رديء لقلاع ومنازل.
إحداها كُتب عليها (تمرذ) يقابلها شمالًا واحدة صغيرة كتب فوقها (كملة)، وأخرى في الوسط أكبر من إخوتها قليلًا برزت كلمة (هوار) عليها، وفي أقصى يسارها تجلت أكبرها وكتب عليها بخط أكبر مزخرف قليلًا (عمارية).
- يا سادة ترك أبي لنا قبسًا من تدوينات الأكمل.
غمغم جهير والدمع يترقرق في عينيه:
- قمر وصواعق.

الكل ينظر بغير تصديق، الجميع شعر بالأمل يتدفق فيه من جديد، وكأن صخرة الغم انزاحت عنهم، وكأن الهواء زار صدورهم أخيرًا بعد طول غياب.
رفع رحبان عينه على اتساعها متسائلًا:
- أترك منه شيئًا آخر؟
سكت حكيم وارتفعت الأعناق له في ترقب، تنهد أخيرًا قائلًا:
- لا.
عادت غشاوة اليأس قليلًا، إلا أن حكيم أتبع عائدًا لعرشه:
- هذا رسم لأرض السهل بمدنها وطرقها، لن يتوقعوا أبدًا هجومنا يا سادة، وريثما نصل لأكبر مدنهم سيكون عددهم قد قل حتى الربع على أقل تقدير.
سليمان المثنى ينظر إليهم من زاوية المجلس يترقب، يحلل كل شاردة وواردة، أخيرًا أرسل نظراته من خلف جفنيه المترهلين، وبصوته الشاهد على مئات السنين، قال:
- الأخبار تطير بسرعة عبر أراضي النور، حتى لو باغتناهم بسرعة سيتجمعون في آخر الأمر.
تنهد ثم أتبع مشيرًا بيده المرتعشة إلى اللفافة الجلدية:
- وهذه الخريطة عمرها من عمر المملكة نفسها، وقد تكون الدروب داخل السهل تغيرت، بل أنا متأكد من ذلك.
نظر حكيم نحو جهير، قائلًا:
- سأعدّ لهذا الأمر برفقة جهير فلا تقلق.
- بقي أمرٌ واحد.
قالها سعيد السماري موزعًا نظراته إلى رجال المجلس، ثم أتبع:
- أرجو من جلالتك أن تعذرني، فأمور الحرب لا أفقه فيها شيئًا، لكن...
سكت برهة والعرق يتصبب منه، لكنه في النهاية باح بما لديه:
- خزائننا لن تقوى على إطعام كل هذا العدد.
التفت جهير نحو سعيد، قائلًا:
- لدينا مخزون بسيط يكفي لوصولنا حتى حدود السهل، بعدها خبرنا في علم الجريح.
أشار حكيم نحو رحبان قائلًا في صرامة:
- أريد أن تفرض جزية على كل تاجر يدخل بحرًا إلينا.. كل على حدة، لا أريد أن تتطلي حيلهم على رجالك.
مال بوجهه على راحة يده واضعًا قدمًا فوق الأخرى، قائلًا:
- من لا يدفع سيفك أولى به.
- أمر جلالتك.
مبتسمًا قالها رحبان، فقد مر دهر لم تطعم أنفه رائحة الدم ولم يُذِق سيفه العاصين طعم العذاب.
- والبقية حلفاؤنا الأكامل سيمدوننا به.
التفت إلى سليمان متبعًا:
- أريد رجالك في مكان، كل زقاق.
أماء سليمان المثنى له إيجابًا في تفكير.
- جهير، جهز الرجال وأعد العدة، قريبًا سيبدأ الفتح العظيم.

ارتعشت النفوس مع آخر كلماته التي قالها واقفًا ثم خرج من قاعة العرش ينحني له القادة كل بدوره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوس

ظلام... شعر بأنه تاه بالفراغ، يسبح بين آلاف الوجوه التي تطير في الفضاء السرمدي، وجوه صامتة متألمة، كلها ترمقه في ترقب.

طار حتى بلغ آخر الوجوه، سطعت النجوم والتهب الفضاء وأضاءت الدنيا، ترقرق الدمع من عيني الوجه الأخير، بدا أكبر من البقية.. طمست ملامحه عدا عينيه، وفجأة سمع صوتًا أشيب رخيمًا، صوتًا سافر عبر المجهول، قال بحزن بالغ:

- ظلام حتى شمس المغيب، طامس سيعود أقوى من جديد.

وهنا انفجر الفضاء وتبخرت الوجوه، انطلقت صيحاتهم مشوهة، تستجديه بأمور لا يفقهها، حاول جاهدًا الهرب من ألسنة اللهب، إلا أنها في النهاية طالته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتفض في مرقده والعرق يتصبب منه بكل جانب، السقف رمادي مزخرف تدلت منه ثرية تلقي بضوئها الذهبي الخافت.

حاول رفع جذعه ببطء، ورويدًا انزاح الغطاء الصوفي من فوقه، التقط أنفاسه كما لم يفعل من قبل، تأمّل المكان جاهدًا في تذكّر أي شيء.

فُرش حمراء وسرير مظلل، كلها من أخشاب الزان، حواف الكراسي بطرف الغرفة طعمت بالعاج، وعلى الحائط قبالته علقت لوحة زيتية.

طالما سمع عن تلك اللوحة، والتي ما إن رآها حتى أدرك أين هو؛ باللوحة سلم حجري عريض يرتفع حتى عنان السماء المصمتة بالسحب والبريق يهدر منها مشعلًا كل شيء، وبمنتصف السلم يجلس شيخٌ كبير يتكئ على الدرجات المعطوبة، يقف اللهيب والرعد وكل مؤذٍ عنده، إلا أنه ينزف... ينزف من كل مكان، عيناه تسيلان دمًا أسفل جفنيه المغلقين، أقدامه ويداه وكل عقلة فيه تغدق على السلم أسفلها مدرارًا.

فتح الباب ليبرز من خلفه شاب طويل، ما إن رمق أوس حتى اتسعت عيناه وجرّ قدميه بسرعة نحوه.

- أنت بخير؟

قالها الشاب والترقب بادٍ على وجهه، نظر إليه أوس، فبدا له أنه بعقده الثالث أو يزيد قليلًا، ولم يصعب عليه معرفة الرجل، أو بالأحرى أصبح كل شيء واضحًا أمامه.

قال الشاب:

- وجدتك منهارًا أمام المعبد فلم أشأ تركك للموت ينهشك.

- أشكرك.

قالها أوس بصوت مبحوح، في الحقيقة لا يعلم ما الذي دفع الكاهن الشاب لمساعدته، إلا أنه ممتن، ربما الحياة تلين عليه ولو قليلًا بعد كل ما جرى.

لو كان الشاب حذقًا بما يكفي لأدرك أنه من يبحث عنه الحرس في كل مكان، تأتي الأخبار بمقتل الحداد واختفاء مساعده، وبعد أيام تجد أحدهم منهارًا أمام عتبة بيتك بشكل مريب، ظن بالكاهن الظنون، لكنه لم يشأ أن يفصح عن شيء عله لا يدرك أو أنه فعلًا طيب القلب.

اتجه الكاهن الشاب إلى المدفأة أسفل اللوحة مشعلًا إياها، بتؤدة أخذ قدرًا صغيرًا ووضع به بعض الأعشاب والماء، وبينما الصمت يغطي المكان وخلاصة الأعشاب ترسو بالماء، قال الكاهن:
- إذًا ما اسمك؟
تنهد أوس قليلًا، ثم قال:
- أدعى.. سَليم.
رنا إليه الكاهن بطرف عينه أثناء تقليب الشراب قائلًا:
- لا تبدو كسليم لي.
توتر أوس، شعر بنبضه يعلو ويعلو، إلا أنه حاول تمالك نفسه قليلًا.
صب الكاهن ما في الوعاء بكأس خشبي، ثم اتجه نحو أوس، قائلًا:
- أدعى إدريس... وأنت صبي الحداد حمدان.
ارتعد أوس في مكانه، شعر أن الغرفة تتهاوى عليه، حتى أطرافه أخذت ترتعش.
مد إدريس الكوب لأوس، فأخذ الأخير يتراجع بمكانه وعيناه لا تبصران سواه.
- اهدأ، لو أردت إيذائك لفعلت، سيسكن هذا آلامك قليلًا.
ثم قرب الكأس منه مجددًا، مد أوس ذراعه مرتبكًا حتى طال الشراب.
ورويدًا قربه من فمه لاثمًا منه القليل، شعر بطعمه اللاذع يغزو فمه وأنفت نفسه منه، إلا أنه بعد برهة شعر بآلامه تقل رويدًا، فأخذ يجبر نفسه عليه.
جذب إدريس كرسيًّا حتى استقر بجوار السرير، ثم قال:
- أعرف حمدان منذ زمن، رجل سارق طمّاع يستحق ما أصابه.
سكت برهة ثم نظر إلى المدفأة، وأتبع:
- ذات مرة طلب المعبد منه إصلاح بضع قضبان من السور الخلفي، فإذا بنا نكتشف إخفاء بعض الأحجار النفسية من القضبان السليمة.
لو حكى إدريس ذلك دون ذكر اسم الفاعل لأدرك أوس أنه حمدان بلا أي شك، فأفعال عفنة كتلك لا تصدر إلا من وغد مثله.
نهض إدريس مدبرًا السرير وهو يقول:
- على كل لن أستطيع أن أساعدك أكثر من هذا، أنهِ شرابك وسأزوّدك ببعض الطعام وأنصحك أن تترك المدينة بأسرع وقت.
- لكن..
قالها أوس وقد رنت عيناه إلى إدريس في تأمل، التفت له بوجه جامد منتظرًا كلمات أوس.
- قصدت المعبد لأمر ما.
- إن كانت البركة أو الغفران ما تريد فلن تجد شيئًا هنا.
- لا.
تعجّب إدريس، اقترب منه بفضول، ثم غمغم:
- وما الذي يريده مجرم من المعبد إذًا؟
حاول أوس أن يلتقط أنفاسه، سعل كثيرًا، ثم رشف بعض الشراب، وقال بصوت مبحوح:
- أريد أن أودع أمي لديكم.

اتسعت عينا إدريس، يعلم جيدًا كنه تلك الكلمات، اقترب منه أكثر وأخذ يتأمله من رأسه وحتى أخمص قدميه، ضاقت عيناه، ثم قال:
- وهل يقدر صعلوك مثلك على تحمّل تكلفة ذلك؟
أمل أوس في علاج أمه اليوم أكثر من أي وقت مضى، لاحت بسمتها أمامه، عطفها وحنانها، كان ليأخذها لمدينة أخرى حيث يمكنهما أن يحيا حياة أفضل، مكوثه في تلك القرية عديمة الاسم لم يكن سوى لاستحالة شكلها لتشبه أشجار الزفير ببطء.
قال بنبرة يقطعها الألم:
- لدي المال.
أشار إدريس بيده إلى كومة من الأقمشة المهترئة، قائلًا برتابة:
- إن كنت تقصد صرة المال فقد خصمت منها ثمن اللباس الجديد والطعام الذي أخذته وستأخذه، وحق مبيتك في غرفتي ليلتين.
كانت صرة حمدان سمينة بحق، فلم يكترث كثيرًا لذلك، نظر له بعينين متوسلتين، إلا أن إدريس أتبع قائلًا:
- وحتى لو لم أفعل فما بها لا يكفي.
انهالت كلماته عليه كلهيب حارق، شعر بآلامه تزداد، وبالدمع قد تجمد بمقلتيه، بصوت متقطع قال:
- وكم... تريد؟!
عاد إدريس إلى مجلسه بجوار أوس، رمق الشاب الذي بعثرته الحياة يمنة ويسرة، ودّ لو كان ألطف عليه من الأقدار، بهدوء قال:
- يحتاج المعبد لخامات نفسية جدًّا ونادرة لعلاج المصابين، تكلفة المصاب الواحد قد تصل إلى خمسة آلاف روبة.
أيتركها للموت؟ أيتركها تواجه قدرها؟ أيمكنه أن يراها تتحلل أمامه ببطء لتصبح في النهاية جذعًا أسود تذوب هي بداخله حتى نهاية الزمان!
شعر وقتها أنه مستعد لفعل أي شيء، أي شيء حتى لو فقد حياته لأجلها.
أتبع إدريس:
- بصرّتك تلك ألف روبة، ينقصك الكثير.
رمق السقف بلا توقف وببطء ارتسمت ابتسامة ساخرة على محياه، ساخرة من كل شيء، هبطت عيناه إلى اللوحة، الجريح ينزف ليحمي بني البشر، يحميهم من حرب سرمدية تدور في الأعالي، أليس أجدر به أن يحمي بنيه أولًا؟
- لكن هناك ما يمكنك فعله إن كنت تريد علاج والدتك بشدة.
التفت له بسرعة، شعر بالهواء كضيف عزيز يزور صدره من جديد، لمعت عيناه، قائلًا:
- أي شيء، سأفعل أي شيء.
ابتسم إدريس وبسرعة قام وترك الغرفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بضعة أيام مرت، كل شيء أصبح جاهزًا، يقف أوس بجوار إدريس على بعد أمتار من المعبد تظلهما سماء الليل الباكي، تتساقط قطرات المطر بوداعة على الأرض الطينية، من بعيد يقترب رجل ذا معطف جلدي أسود تحاول الريح أخذه بضراوة، إلا أنه يتقدم بعدم اكتراث.

أخذا يتحركان حتى وصلا إليه، قال الرجل أسود المعطف:
- أهذا هو؟
أماء له إدريس إيجابًا، وسريعًا خلع العباءة من على أوس ليبرز جسده العاري من أسفلها، ندوب قد غارت على صدره ونظرة حادة تعتلي وجهه، لوهلة أحس بالمطر يهدر به وبالبرد ينخر عظامه.
- أعهده إليك إذًا.
ابتسم الرجل مخرجًا صرة كبيرة من معطفه يعلو صدى العملات فيها، تناولها إدريس بعين ملتمعة قبل أن يدفع أوس إلى الأمام.
أمسك الرجل بذقن أوس بقوة ورفع رأسه إليه، قائلًا:
- ستعجبك نبراس يا عزيزي... صدقني ستعجبك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كارم

قيل إن ألف حرب قامت بالأعالي، دام بعضها أيام والآخر أشهر وسنين، إلا الأخيرة، يعلم الجميع لسبب أو لآخر أن ما يؤمن به قاطنو أراضي النور صحيح بشكل ما، ربما لعنة الزفير لسيت غضب التسعة، وليست بسبب موت إله الكهوف والوديان (آرام) قبل ألفي عام.
سمع كارم البحار أشفار معلمه يحكي ذات مرة عن ثعبان البحر والرجل الذي امتطى الباهموت الجبار والذي انحنت له الممالك كلها قبل أن تقلب أشجار الزفير كل شيء، كان معلمه قليل الكلام، لكن ما إن أتى على ذكر تلك القصة كانت الجمل تنهمر منه مدرارًا:
- كان اسمه (آبق)، قيل إن البحر كان يجر مركبه حيث يريد، وأن طائر الرخ المهول سمح له بجولة فوق القارة الكبرى... جاب الأرض فلم يبقِ شبرًا بها إلا وقد وطأته قدماه.
سكت أشفار برهة ثم رمق السماء، تنهد وكأن الكلام يأبى الخروج عن فيه:
- عندما ظهرت الشجرة كان في عرض الأزرق العظيم، لم يعد أبدًا، قال أبي فيما مضى إنه رأى سفينته التي أصابته اللعنة عليها هو ورجاله، لكنه لم يصف لي أبدًا شكلها.
آنت الفرصة التي لم يحظَ بها أشفار لكارم وها هي أمامه، تمخر البحر... تنشق المياه من أسفلها وتتبخر، حتى السماء نفسها ذعرت... صاحت مستغيثة تأبى أن تظلها.
كارم بقاربه الشراعي الصغير يراقبها من بعيد تقترب ببطء، يدور حولها الرذاذ الأصفر وتلتمع أوراق أشجار الزفير من فوقها ووجوه البحارين الموتى بارزة عليها في صمت.
تجمد الوقت لديه، يبدو أن حُكم البحر قد صدر ولا مرد له، تنهد ناظرًا لأرضية القارب الخشبية، عدا عقله ألف اتجاه واتجاه، نظر نحو سفينة الموت الأسود رويدًا عله يجد مما هو فيه مخرجًا.
كانت السفينة تتجه نحوه بميل بسيط، فبدا المسار الذي مرت به واضحًا أمامه، انفرجت عينه حتى آخرها، انتصب على ظهر مركبه واقفًا، في الحقيقة لم يدرِ إن كانت محاولته ستجدي نفعًا، لكنها أفضل من أن ينتظر موته في صمت.
ملأ صدره بالهواء... رنا إلى سطح الماء ثم قفز، كان الماء دافئًا، فتح عينيه ناظرًا نحو سفينة الموت، فإذا بالبحر يغلي من حولها، شعر بملوحة اللج تحرق عينيه، بيد أنه لم يملك فعل أي شيء آخر.
سمع الصفير عاليًا من الخارج، صفير مستغيث مذعور، ذهل كارم وانتفض خارجًا بسطح الماء، رعد يدور فوق القارب يصيح بلا توقف.

لمعت عيناه، بيد مرتعشة وضع كارم إصبعيه في فمه مطلقًا صافرة مبحوحة يصل صداها حتى رعد.
ما إن سمع الطائر الأحمر نداء سيده حتى نزل كالسهم سريعًا حتى حافة القارب.
كارم برأسه البارز خارج الماء نظر لرعد هنيهة، ظن رعد أنه يغرق، راح يمد منقاره قدر استطاعته للأمام صائحًا.
نظر كارم إلى السفينة تقترب أكثر وأكثر، شعر بالموت يحيط به من كل مكان.
بصوت متردد غمغم:
- تعال... تعالَ يا فتى.
ثم مد يده خارج الماء ببطء نحو رعد حتى أدرك صدره، أخذ يداعب يده بمنقاره ثم... سحبه سريعًا أسفل الماء.
شعر كارم به ينازع بين يديه، علم أنه لو تركه لأصيب باللعنة، أحس بأجنحته تنتفض في كل اتجاه، كان رعد الشيء الوحيد الباقي له من حياته السابقة، لكن بعض الأمور يجب أن تتم.
أمسك رأسه الصغير ببطن يده، شعر به كم هو ضعيف، هنا كانت دموع كارم أغزر من بكاء السماء، كان ذعره ليغطي الأزرق كله، عض على أسنانه باكيًا بعين متسعة، أخذ شهيقًا طويلًا ثم أغمض عينيه.
بحركة سريعة كسر عنق رعد، سكنت حركته تمام، ملأ صدره بالهواء وعاود الغوص.
نظر إلى طائره وقد غادرت الحياة جسده، فاردًا جناحيه على اتساعهما، اختلطت عبرات كارم بالماء الأجاج، لو لم يفعل ذلك لتعذب أبد الآبدين داخل شجرة سوداء مقيتة، فاللعنة لا تفرق بين بشر أو غيرهم.
كان موته رحمة له، شعر كارم بالاختناق، الماء يسخن من حوله رويدًا، وعلى بعد أمتار منه كانت الوجوه ببطن السفينة تمر بجانبه، يغلي الماء من حولها، بينما يشق الموت الأسود اللج ببطء حتى مرت منه.
كان كارم قد لاحظ أن رحيق الموت لا ينتشر من خلف السفينة، كان عليه أن يصمد تحت الماء حتى تبتعد قليلًا.
شعر بالهواء ينفد منه وبصدره فارغًا ممزقًا يتسول الهواء من بدنه، احمرت عيناه وبرزت عروقه واصطبغ وجهه أرجوانيًّا، حتى أدرك أنه سيموت إن لم يزدرِ بعض الهواء والآن.
ارتفع عن سطع الماء شاهقًا مالئًا صدره بالهواء الذي نزل عليه كالشهر، شعر أنه ارتوى بعد طول ظمأ، عدة أنفاس التقطها، نظر إلى السماء لاهثًا، كان شراع القارب منزلًا فلم يبتعد عنه كثيرًا.
سبح متعبًا حتى أدركه، ثم صعد مرتميًا على أرضه الخشبية، يلهث ويدقّ الذعر أوتار قلبه الذي انتفض في غير تصديق، أمسك بطرف القارب ثم رفع رأسه ناظرًا إلى سطح الماء أمامه وجثة رعد تطفو على وجهه تتهادى بوداعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حكيم

منذ ذلك الاجتماع اعتزل حكيم الناس بغرفته، فلا يقربه أحد كائنًا من كان، تأتيه الكتب والأوراق عبر الباب ليراجعها فيقرها أو غير ذلك.

تلك الأوقات جاب رهبان الدم الأزقة والطرقات يرددون خطبًا رنانة عن الفتح العظيم وعن الخير الوفير، وشر السهل الذي طالما أحاط أرض العاصفة وكيف سينتهي عما قريب.
طعمت تلك الخطب بالحماسة وراح الأمل يتجلى من جديد لأناس كانت لفظة "عزة" لديهم مجهولة، الكل صار أسرع، اتحد الجميع بجسد واحد لهدف بدا أنه من المعقول تحقيقه، بل من الطبيعي ذلك.
غاص حكيم بأوهامه هنيهة، لم يدرِ إن كان طريقه الذي سلكه صحيحًا، لكنه علم جيدًا أنه مخطئًا كان أو مصيبًا فذلك الطريق لا بد مكملهَ.
غرق بين وسائد الاستبرق تفوح منها رائحة العنبر، وبخور الصندل تعبق بالهواء من حوله، تأمل الظلام الذي يراه، ظلام اعتاد أبوه وجده من قبله عليه، قيل إن الرخ العملاق بنى عشًّا على ذراع الشجرة الأولى شهورًا فغطى سماء الغرب بالكامل عقدًا أو يزيد.
اعتدل في جلسته شاعرًا بالألم يغزوه بكل مكان، فقرات ظهره وعضلات يديه كلها تئنّ بصمت.
تحامل على نفسه ناهضًا إلى كرسيه أمام المدفأة البعيدة بجدار الغرفة.
تهاوى إلى مجلسه شاعرًا بعظامه تتآكل، فوق المدفأة الجيرية علقت لوحة طالما خشي منها، يبرز عليها فارس قد امتطى أفعى عملاقة ذات قرن ذهبي تزحف به إلى الأمام، لا يدري أين هو ذاهب، قال راغب ابن الجريح في مأثوره من الحديث أن ذلك ما يلقبه أهل الجزر بالباهموت الجبار، أو أنه سحلية أرض الغابات السحيقة التي آمن بها أهلها سنين قبل اللعنة.
تخيل حكيم ألف احتمال لجهة الفارس بتلك اللوحة، يعتقد آل عاصف كلهم أنه ذاهب لحربه، لكن حكيم لم يستطع ولو لمرة واحدة أن يرى هذا، كل ما رآه أنه يهرب.
مرت ساعات الظهيرة ثقيلة تتدانى بها الشمس ببطء حتى آن الغسق، وضع حكيم عليه رداءه الزيتي المخمل ثم ترك الغرفة.
في الحقيقة لم يدرِ أين يذهب، فكَّر أن يترك القصر برهة ويقصد شاطئ الأزرق العظيم، فكر أن يجول بالحرم كما كان يحب أن يفعل، لكنه أخيرًا استقر على أمر واحد.
جرَّ قدميه خارج الجناح بعين حمراء أضناها السهر، حرس الليل يرمقونه بنفوس غير مطمئنة، بدا يوم التتويج قويًّا، ورن صوته أركان قاعة العرش في اجتماع الحرب، حتى أن الحرس بالخارج ركعوا خلف الباب الموصد، أمضى لياليه بعدها ساهرًا يدرس كل عقبة ستواجهه.
أرسل الكتب إلى خيلانه من بني الأكمل وبعث بها إلى أمه مهرة؛ علّها تتوسط له عندهم، فلم تقبله دون أن ترى الأوراق.
كان فراق سليمان لمهرة أليمًا، عاشا معًا خمسة عقود هي أطول مدة اتحدت بها روحان بأراضي النور كلها، ولولا إشفاق الزمن على سليمان لكانت ناضرة كما عهدها الجميع.
تمشي فتنبت الأرض موطئها، ويتسابق الهواء خلفها طلبًا لحمل شذى عطرها الفواح، مهرة التي كانت جوهرة القصر وسره المكنون أضحت حطامًا متهالكًا، يعلو العويل من مخدعها ليلًا، وتنهمر دموعها بصمت نهارًا، جف عودها ولانت أوصالها وغزت التجاعيد وجهها فصارت كصرة خاوية بعد أن كانت تتلألأ كحبات الرمان.
كان حكيم على أبواب جناحها، يقف على المرر فارسان يستبقان بعضهما لعالم الأحلام، عبرهما مكملًا سيره بالرواق الطويل يعلو العويل كلما اقترب أكثر وأكثر.
حتى وصل أخيرًا إلى الباب، ومن خلفه تسللت عبرات مهرة، كلمات معطوبة لاهثة تبحث عن سامعها، نفس فقدت أنيسها تصيح بصوت مبحوح: آواه يا شِق روحي، يا عضد فؤادي.

أطرق إلى الباب منصتًا، كان حزينًا على أبيه مثلها، إلا أنه رأى بكل شيء نعمة وإن تجلت عليها النقمة.
كان أبوه طالحًا، وهو يعلم ذلك، دفع الباب فانفتح بنعومة، تتسل أنوار قمر الليلة البهيج عبر النافذة بجدار الغرفة المقابل للباب.
وكحال بقية الغرف بقصر الجلالة المهيب اتسعت الحوائط وتباعدت، ورسا فوق كل شيء نور وهاج، أحجار نفيسة تعتلي أدقّ الأشياء، حتى الفواصل بين بلاطات الأرض كانت فضية، تلألأ كل شيء... كل شيء إلا القابعة فوق أفرشة المهد المظلل بيسار الغرفة.
مددت مهرة قدميها مسندة ظهرها إلى السرير من خلفها، ترنو بعين جوفاء إلى ظُلل السرير المنسدلة فوقها، تئن تارة وتلين أخرى.
اقترب منها حكيم ينتحب قلبه وفؤاده، تعتصر الدموع عينيه، إلا أنه يأبى أن يخرج منها شيئًا.
كان على بعد برهة منها يرمق جلدها المتهدل وشفتيها الجافة ولونها الناضب.
لمحته مهرة بطرف عينها، نظرت له هنيهة ثم هربت منها دمعة، عدلت رأسها ونظرت إلى أفرش المخدع من فوق ساقيها.
خرجت كلماتها تفوح بالحزن وتحمل بين طياتها الأسى:
- لماذا؟
ثم عقدت حاجبيها بوهن، يعلم أنها لا تعترض على القدر وما ألم ببيتها، أدرك جيدًا إلى ما ترمي، تنهد رامقًا وجهها الذابل وحالها المتبدل، ليست هذه أمه التي عهدها، تناول كفها بيديه مقبلًا إياها فشعر بجلدها الجاف الرقيق... دمعت عيناه قائلًا:
- هي الدنيا يا أمي.
تمالكت مهرة نفسها وبنبرة حادة قالت:
- تعرف ما أقصده، لماذا فعلت تلك، أتحل عقالًا ربطه أبوك!
سكتت برهة ناظرة في عينيه متبِعة:
- بأست يا حكيم، إن أباك سليمان ما اتخذ في حكمه أمرًا إلا لفائدة يراها، أو تحسب أنه مثلك!
رغم كل شيء علم حكيم أن تلك الكلمات كانت قادمة، رآها من بعيد حتى قبل أن يلج الغرفة، لكنه يعلم جيدًا أن كل هذا ما هو إلا حرارة أم مكلومة وأرملة فقدت بعلها.
نظر لها فأطال، شغر بالغم في فؤاده، ثم قال:
- لم يقل أحد إن أبي كان غير ذلك، أنا لم أحل عقال أبي، بل إنه هو من أرخاه لي.
لم تتفهم مهرة ما قال، أشاحت بنظرها عنه إلى الحائط الزجاجي تتأمل القمر يتهادى بين القوم في رقصة الليل:
- حرب كتلك لن تأتي علينا سوى بالخراب، نبراس تبسط يدها على أراضي النور، ونزاع كهذا لن يمر دون حساب.
تقدم حكيم نحو النافذة مدبرًا أمه:
- بل إنهم لن يفعلوا شيئًا.
من غير المعقول توقع ذلك، خصوصًا مع تشدد أهل تلك المملكة وجيشها وقوتها الضاربة، تحكم ممالك أرض النور الأربعة بحزم وتبقى عمال عليها من أهل أرضها استرضاءً لهم، ففي النهاية هم

أعلم بأحوال تلك البقاع ومن فيها، وليس يهمهم غير الغنيمة والعطايا وسباق الترقب منهم والمداهنات وغيرها.
فلو بسط حكيم يده على الوادي لن تسكت عنه نبراس... أو هكذا ظنت مهرة.
- دماء الرسول السهلي لا تزال تتلألأ على المنصة، وقد كان ذلك على مرأى ومسمع رسول نبراس.
تعجبت مهرة أكثر وأكثر:
- ألا تسمع ما تقول؟! إذًا سيبلغ ملكته بما رأى ولتبعثن بجنودها لتأمين خير السهل الذي يمدهم بنصف معادنهم ولن يخاطروا بذلك.
التفت لها حكيم وابتسامة لؤم قد ارتسمت على وجهه:
- وقد فعلوا.
اتسعت عينا مهرة، تعلم أن حكيم عنيد مستعد لفعل أي شيء للوصول إلى هدفه، لكنها لم تتوقع أن يتجرأ إلى هذا الحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت أيام عدة وافق فيها الأكامل على مد خزائنهم بما يحتاجون، جزءًا منه رثاءً للراحل سليمان، وآخر يُرد بعد الفتح على أن يلتزم به مضاعفًا إن تم له أمره.
بأطراف أرض العاصفة وبالثغور التي تبدأ الأرض عندها تلين وتبرز التلال القصيرة من فوقها تجري بينها بعض الأنهار وتتفجر فيها العيون، قطعة مخطرة من الأرض تفيض بالحياة تحمل ببطنها كل نفيس.
تناثرت عليها ألقى عنها وهناك تدبر كل مجموعة منها مدينة أكبر وتصل ببينهم عدة طرق غير ممهدة.
نودِي بالناس هناك وفرض على أغلبهم خدمة في جيش الجلالة الجبار، تحرك كل شيء بتلك البقاع سريعًا، حتى الطيور والسحاب.. كانت الدنيا كلها فياضة بالخير مستبشرة بما هو قادم، لم يقصر رجال المثنى وكما أمر جمع من الناس عددًا كبيرًا ممن يتقن القتال ليدربوا من فرض عليهم، وامتلأت الخزانة من عملات رحبان، والتي يعلم حكيم جيدًا أنه قد اجتزأ لنفسه منها، حتى هو لم يحاول إخفاء الأمر، فلم يشأ حكيم إضرام خلاف لا محل له الآن.
اجتمع الناس كأسراب النمل ونصبت الخيام على حدود أدغال الزفير ودقت الأعمدة وأشعلت النيران وامتلأت القدور.
أرض المخيم قبالة الأدغال معشوشبة مستوية تبعد عن الدروب القاحلة وخطر الزفير عدة فراسخ، إلا أنها ارتفعت عن الأرض ترنو إلى حيث يُرى الموت الأسود من علٍ.
بعض الجنود توارى خلف الخيام، والبعض الآخر شارك قصص الملاحم التي تواترها أبوه عن جده، وآخرون اجتمعوا يتأملون زرقة الأوراق الملتمعة من بعيد، لكن حكيم لم يكن لديه وقت إلا لأمر واحد.
يتسلل الهواء بين أزقة الخيم حتى يعتلي خيمة حمراء خماسية الأركان ترتفع عن باقي إخوتها، يمشي سهيل العامري متجهًا نحوها فتشرئب النفوس لرؤيته بينما يدلف إلى الخيمة، بالداخل خان حكيم برفقة رحبان ومستشاره الأول الجديد ثامر، بينما يدبرهم جميعًا سعيد السماري في توتر بالغ.
ما إن دخل سهيل حتى لمح الطاولة بمنتصف الخيمة قد رسمت عليها خريطة أرض السهل التي رآها بيد حكيم آخر مرة، لكنها الآن أكبر وأوضح.

لم ينتظر حكيم كل منهم حتى يستقر بمجلسه، فبادر قائلًا:
- لنبدأ يا رجال... أرض السهل كما ترون واسعة كبيرة، إلا أنني أرى أن أدغال اللعنة تخدمنا كثيرًا.
سكت برهة، فأكمل سهيل كلام مليكه، قائلًا:
- بسبب الأشجار وما تفعله فيمن يجرؤ على العبور بتلك الدروب المميتة فإننا نعلم بشكل يقيني أماكن تواجدهم ولن يستطيعوا تغيير أماكنهم وإلا فالرحيق المميت أولى بهم.
تنهد رحبان وابتسامة عريضة ترتسم على محياه ببطء:
- باختصار، لا يملكون الحراك مطلقًا، فرسة مكبلة تنتظر مفترسها.
كانت الآمال عالية ودروب الأمن التي لم تمسها الأشجار أمامهم واضحة والشكر للأكمل ومذكراته.
علا صوت حكيم، قائلًا:
- بعرض السهل توجد عدة مدن، سينقسم الجيش إلى نصفين، الأول سأكون أنا فيه برفقة سهيل لنبدأ بتحرير (كملة)، والنصف الآخر معك يا رحبان ستقوده نحو (تمرذ) وستزحف بالطريقة التي علمتك إياها.
أماء رحبان إيجابًا، النفوس عالية وكل شيء يبدو بمكانه، لكن نفس حكيم لم تكن مطمئنة، أعين رحبان ملتمعة وسهيل يبدو واثقًا من النصر رغم اعتراضه أول الأمر، كل شيء يبدو مثاليًّا... ترنو إليهم الأقدار من الأعالي لتتابع حربها ضاحكة.
- غدًا يبدأ الزحف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظــلام فوق صوت الألم
ومعه فقط تزيـد المحن
ظــلام رغم أنف البائسين
ليعلو الألـم ويموت الحنين
ظــلام حتى شمس المغيب
آبق سـيعود أقوى من جديد
من كتاب: "قمر بلا سماء"

أوس

تمر الأيام وتمضي، تعدو كمواخر البحر، لحظات وساعات فأيام حتى كاد يفقد إحساسه بالزمن، لا يدري حقًّا إن كان ما فعله صحيحًا، لا يعلم أي شيء.. فقط يدرك جيدًا أنه لم يكن هنالك سبيل، وأنه سلك أأمن طريق وأكثرها منفعة.
طلب منه إدريس مبلغًا من المال ما كان ليجمعه ولو سرق مئة من أمثال حمدان، هو نفسه تعجّب لدى معرفته المبلغ الذي غنمه منه.
لكنه رغم كل ذلك اضطر لبيع شيء آخر، لم يبع بيته، فلا دار له أصلًا وليس له من نفيس الأحجار شيء، في واقع الأمر ما باعه كان أغلى من أي بيت وأقيم من أي عقيق، لقد باع نفسه.
سلّم نفسه طواعية لنخاسه مقابل أن تودع أمه لدى الكهنة للعلاج، فيجد هو مهربًا من أرض الغابة وتُعالج أمه بالوقت ذاته، كم اعتقد نفسه ذكيًّا، لكنها هي طبيعة الإنسان الحمقاء التي لو سنحت له الفرصة مستقبلًا أن يعود لمفترق حياته لفعل.

اقتاده النخاس أول يوم بعين معصوبة حتى بلغا إسطبلًا للخيول، لم يدرِ أين كان وأي طريق سلكا، لكنه خمّن من منحنيات الأرض وعشبها البراق أنهما بالقرب من قرى التيه حيث يقطن جلّ فلاحي أرض الغابة.
بسطات من الحشائش الذهبية تفترش الأرض على مد البصر، تتناثر البيوت والأكواخ عليها هنا وهناك منذرة باقتراب أبراج نبراس الخشبية ومن خلفها غابات الزفير الأولى.
نام أوس بفرش من القش الذي راحت أشواكه تزعج منامه وتؤرقه، تملأ رائحة الروث والعلف الصالح منه والتالف صدره وتفعم الأجواء من حوله حتى كادت الأعين عندها تدمع لشدة سوئها.
لم يكن وحيدًا، فعدا الجواد الأدهم الذي نام يجانبه كان هناك ثلاثة آخرون معه.
تداعى قمر الليلة قتيلًا، بينما تألقت شمس الصبح وهّاجة، سمع الصوت يدوي على الأرض نحوهم، بينما اهتاجت الدواب والحيوانات من حولهم فأفاق سريعًا متكورًا على الزاوية الخشبية، لم تمر عدة دقائق حتى علا عزف الصوت مجددًا على أجساد النائمين فارتفعت الصيحات.
اقتيدوا صفًّا خارج الإسطبل لا تختلف أشكالهم كثيرًا عن بعضهم البعض، وجوه مبلسة تجر خلفها أذيال الخيبة والضياع.
نظر إليهم نخاسهم، تنهد بينما أحصى مساعدوه عددهم، ما إن تأكدوا من كمال المعدود حتى امتطى جواده متقدمًا الصف بتؤدة، بينما مساعديه ينظمون الحراك.
خلال ساعات مرت قطعوا قرى التيه سيرًا، تعالت الأرض تلالًا وتلألأت البرك هنا وهناك وداعبت نسائم الهواء خصائل العشب المياسة كجدائل الحرير، أتى المساء وغامت السماء، وقتها كانوا قد اقتربوا من الأبراج.
بأعلى أحد التلال توقف مسيرهم، بينما رمق النخاس الأفق من جواده، ارتفعت سلسلة أبراج خشبية متباعدة عن بعضها، أنير كل منها بأربعة شعلات، بينما حوض زيت كبير انتصف قمة كل منها.
تأفف الحصان ودق الأرض بتململ، سرعان ما ترجل النخاس عنه وببطء تجلت رأس أحدهم آتيًا من السفح حتى برز لهم بهيئته الكاملة، اتشح الرجل الذهب، كل شيء فيه كان يلمع متحديًا حتى شمس اليوم الآفلة، وعلى صدره ربطت سلسلتان متقاطعتان يبرز من خلفها الدرع المفصل على كل ثنية من جسده.
سلم عليه النخاس سريعًا مخرجًا صرّة جلدية، تناولها الحارس النبراسي متفقدًا ما فيها، دمع الطمع من عينيه، وتعالت أنفاس العملات، فملأت صدره، أغلقها سريعًا قبل أن يثمله شذى الذهب الفواح مشيرًا له باتباعه.
سرعان ما اتسعت المسافات بين الواقفين في الصف، أخذ المعاونون يشيرون لهم بالمشي جاثمين قدر المستطاع.
وتحت غطاء الليل البهيم تسللوا تباعًا نزولًا من منحدر التل حيث خذلت الأقدام الكثير منهم، مرورًا بالأبراج الخشبية الشاهقة، مع مرور أوس بها حتى أدرك لمَ يهاب سكان القارة كلهم نبراس، لمَ يخشى عبَّاد الظل تلاوة صلواتهم حتى بقلب أراضي عدم، إن كانت هذه ثغورهم التي تسبق الأدغال، فما حال المدن وغيرها! لسبب ما استبشر، فحياة عبد هنا ربما توازي حياة وغد كحمدان وإن اختلفت في المال.
نظر أوس من أسفل البرج فلم يرَ أعلاه، وعلى الرغم من عتمة الليل كانت تلك الأخشاب تلمع، ولو أنّ النهار أصبح لظن الناظرون أنها أعمدة ذهب خالص.

قلت الحشائش تدريجيًّا مع ولوجهم نبراس، الأرض جدبة صخرية عكس ما اعتاد عليه من الغابة، تبرز شجرة عرحيب هنا وهناك على استحياء، بينما اصفرت الحشائش وجفت على قلتها كاشفة عن التربة القاسية بينها.
وقبيل ترك الحارس لهم ترمدت الأرض، وكأن محرقة دارت في ذات البقعة، حتى العشب القليل الذي برز بين الفينة والأخرى اختفى تمامًا، تجلت أمارات الخبث بذلك المكان وعَبِق الهواء من فوقه بريح الموت.
تخشبوا جميعًا في أماكنهم، سمع كثيرًا عن الزفير وأشجاره، لكنه يومًا لم يرَ واحدة، أما الآن فقد أبصر سيلًا منها يقف أمامه، يكاد يقسم بكل ما آمن به أنها فياضة بالحياة، ترمقهم أعين المعذبين بقلبها متجمدة، لم يكن موقع أوس من مقدمة الصف بعيدًا، فكان دائم النظر إلى النخاس الذي لم يبدُ عليه أي قلق، أخذ البعض في تلاوة الصلوات، ولشدة الذعر بعضهم خانه لسانه فلم يجرؤ حتى على الكلام، ومن ذا الذي يرى مئات الموتى يرقدون أمامه ولا يشعر بمثل هذا!!
ترك النخاس جواده للحارس الذي طار به عائدًا حيث كان، بينما راحت عينه تترامى بالصف حتى استقرت على أحدهم، صاح به هادرًا:
- أنت!
انتفض طفل على أعتاب ربيعه السابع بمكانه، تقدم منه النخاس ناظرًا بعينيه، أشار لمعاونيه فاقتربوا من الفتى بروية، لم يعلم الجمع أيًّا كان ما يحدث، بعضهم حتى لا زال محدقًا بالأشجار كما هو، أردف الرجل قائلًا:
- ستقود الصف.
ذعر الفتى وارتعشت أقدامه، وبينما كلاب النخاس ممسكون به إذ بشيخ شق الصف، بينما لعنات وسباب المساعدين تنهمر عليه، صاح أحدهم به:
- بَئِست أيها الآبق.
ثم ضرب مؤخرة ركبته فتهاوى الرجل أرضًا، بصوت مبحوح وبعين تترقرق بالدمع، غمغم الشيخ:
- خذ.. خذني.
ثم سعل مرات عدة، وأتبع:
- سأقود الصف أنا... أرجوك.
رنا إليه النخاس، فكّر في الشيخ وحياته التي لا بد منتهية عما قريب، بينما الفتى اليافع قد يكسبه أكثر إذا تروى قليلًا.
استقر باله فزفر قائلًا:
- لك ذلك.
بينما الغلام غارق فيما حدث بتسارع بالغ، لا يزال عقله يعالج ما رآه، ذلك الذي فداه توًّا وحياته التي كاد يفقدها منذ لحظات، حتى قبضة الرجال من حوله لم يلحظ زوالها، كان ذاهلًا شاخص البصر إلى الشيخ الكبير، تمتم:
- جدي!
زحفت الكلمات بتأنٍّ على لسانه بغير تصديق، ذلك الذي أمامه لم يكن إلا الرجل الذي رباه وكنفه قبل أن يترك منزله هاربًا، صاح وعلا صوته مرة أخرى:
- أرجوك!

ثم التفت إلى النخاس بعين دامعة وبنفس لاهث متقطع، قال:
- أستحلفك بأيٍّ كان ما تؤمن به أن تتركه وتأخذني.
سئم الرجل ذلك النقار الفارغ، فلم يلتفت حتى للصبي وأكمل تقدمه.
- أرجوك، لا تفعل.
سريعًا كُمِّم الفتى، جال المعاونون حولهم مناولين بعضهم لثامات مشيرين أن يغطوا أفواههم وأنوفهم كما هم فاعلون.
لاحظ أوس أن الشباب الأقوياء هم من أعطوا تلك اللثامات دونًا عن غيرهم وقد حالفه الحظ لمرة في حياته بأن كان منهم.
اقتيد الفتى حتى آخر الصف تتعالى همهماته المكتومة بينما هم سائرون إلى قلب الهلاك بنفوس مرتعدة.
مع اقترابهم من الغابة أدرك كل منهم رعب الفاجعة التي حدثت، لحاء أسود فحمي يكاد يلمع لشدة سواده، أنوار الأوراق الزرقاء تظلهم بينما الأزهار مغلقة الأوراق ترنوا من بعيد.
ولحسن حظهم أن الخريف لا يزال ضيفًا بعيدًا، فتلك الأزهار تكنف رحيق الموت ولا تطلقه إلا عندنا تتعرى إخوتها من بني الأشجار.
نظر يمنة ويسرة، الهواء ثقيل عطن، حتى النسمات الباردة التي لفحتهم قبل الولوج إلى الغابة أبت أن تصاحبهم، وحتى الصوت نفسه خشي المسير.
بدا كل شيء متجمدًا، يمد قدمه بخطوة ثم يركن مكانه يتأمل كل شيء قبل أن يتبع بالتالية.
العجوز ببداية الصف تقدمهم كثيرًا، بدا أن النخاس يعلم عن الطريق الكثير، كان يصيح فيه من حين لآخر بأن يتجه لليمين قليلًا أو لليسار، عدا صوته فلم يسمع الشيخ سوى أنين الأوراق الجافة أسفل قدميه.
يضع قدمًا غارقًا في عرقه، ينظر إلى الأمام ثم يملأ صدره بالهواء مرتعشًا قبل أن يخطو التالية، وهكذا دواليك.
بدا كل شيء بطيئًا، كل شيء قبل تلك الخطوة، وضع الشيخ قدمه بعد أن اعتاد هذا المسير قليلًا، فلم تكد قدماه تطأ الأرض إلا وحفنة من الأوراق الزرقاء قد سقطت غامرة إياه.
تجمّد أوس ولم يكن البقية أفضل منه حالًا، في بادئ الأمر لم يشعر الكهل بأي شيء، حاول إزاحة الأوراق عنه كي يكمل طريقه، لكن رائحة نفاذة اخترقت أنفه ودمعت لها عيناه، عبق لم يشتم مثله قط.
يرمقه أوس والبقية، تحيطه غيمة صفراء، وأمام أعينهم أخذت أصابع الرجل تطول، صرخ وتعالت صيحاته حتى اخترقت أفئدتهم، من المؤخرة ارتفع عويل الفتى من جديد.
أنَّ الشيخُ بكلام مبهم المعاني، استطال ظهره وتمددت قدماه منغرسة في الأرض، بدأ جسده يسود وشعره الأبيض يتوهج بالزرقة.
لم يرَ أحد شيئًا كهذا، ومن المؤكد أن من رأوه لم يعشيوا ليحكوه، فلا قصص ولا حكايات قد تجرؤ على وصف هكذا منظر.
الرجل الكهل الذي منذ لحظات كان يضرب الأرض بخطى شبه واثقة تخشب بالكامل، في النهاية وعلى صدر الشجرة برز وجه أسود يصيح في صمت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كارم

كهذا المنظر لم يرَ من قبل، الأرض تزأر والجبال تستغيث، الدم يطير بكل مكان.. اليابسة.. البحر.. كل شيء ذاب، التحمت الشمس والقمر بصفحة السماء، وتعالت الصلوات من العدم بصوت أثيري رنان:

- عساه يولد، ليحمينا بعدله... لينهي اللعنة، هو من سيعلو العالم، من سيطهر الأرض.

تشوشت الصلوات، فلم يعد يسمع منها إلا هسهسة مبهمة، ارتفعت ألسنة اللهب مختلطة برذاذ الأرض الحارق يعلو لظاها، ثم شعر بنفسه يغوص بالأرض، يسبح بين شقائق اليابسة بنعومة ويسر، بدا كل شيء بالأسفل أكثر جمالًا وأكثر دفئًا، لم يدرِ لأي سبب تاق للتوغل أكثر وأكثر.

ثم... لفحات الهواء الباردة وصفير اللج الصامت، علا شهيقه نافضًا إياه عن مكانه، يغزو العرق جسده على الرغم من نفاد المياه منه، لكن جسده بطريقة تدبر أمره وتعرّق.

رمق السرمد الأزرق بعين جاحظة محمرة، لوهلة ندم على تركه جثة رعد، صحيح أنه صديقه الوفي، لكن لحم نسر وإن كان ميتًا سيفيد في سد جوعه.

منذ عدة أيام عبر الموت الأسود، قديمًا سأله ربانه عن أي شيء يتوق، لم ينسَ يومها ما قال "يومًا ما سأذهب لأرض القدر بقدمي وأنظر للموت بعينيه ضاحكًا ثم أبصق بوجهه"، وقتها ضحكوا... ربما سُمع في الأعالي وقتها وقوبل بالإجابة، كان أقرب ما يكون للموت، أقرب شيء يمكن أن يكون الإنسان بينما هو حي.

وبينما هو شارد أنَّ جوفه، تضرعت أمعاؤه لو كان لها أن تتضرع، زحف لحافّة القارب ناظرًا لصفحة الماء، ليته بقي بالجزر ليلقى حتفه، ليته مات عند السفينة المقيتة، لكنه كان دائمًا ما يُترك، لسبب ما كانت تلك الأرض تزفه نحو مصير هو ملاقيه وإن أبى.

بكته السماء، راحت عبراتها تتهادى عليه بصمت، امتص جلده الجاف تلك القطرات بشوق، مدد لسانه مغمضًا عينيه، اختلج صدره فشعر بألف ثقل عليه، ببطء انفرجت عينه.. لم يشعر من قبل بالشفقة على حاله كما شعر الآن، حاول تمالك نفسه، لكنه أخيرًا انهار، أغدقت عيناه دمعًا، جاد بالنحيب.. رأى أمه تفترش الطريق وكلاب التسعة يضربونها بالمداسات:

- آه لو تعلم يا حميد!

رنت صرخته الهواء، سمعت في الأعلى وترامت حتى حواف العالم، أخيرًا أرجأ رأسه لحافة القارب متنهدًا، استسلم جسده عندها تمامًا، لكنه غفل عن اهتزازات القارب، تلك الاهتزازات الخفيفة التي سرت بالماء حوله، تدانى إلى أذنه من بعيد صوت ارتطام شيء بالماء، رفع عنقه بثقل وسرعان ما أتبع ذلك الشيء بآخر.

تقافزت الأسماك واحدة تلو الأخرى، لم يدرِ إن كان يحلم أو أنه يرى ما يرى، لمعت عيناه بغير تصديق، وقبل أن يدرك كانت إحداها قد رستَ على ظهر القارب متراقصة.

لم يفكر كثيرًا، انقض عليها كأنه لم يرَ سمكة في حياته قط، غرس أسنانه فيها بغير تردد ليشعر بها لا تزال تتشنج بين فكيه قبل أن يقضمها وخيوط الدم تسيل من طرف فمه، لاك اللحم النيئ بلا مبالاة شاعرًا بحراشف السمكة قاسية تتكسر تحت ضروسه، لكنه لم يبالِ، أتبع بقضمة أخرى وأخرى حتى لم يبقَ منها أي شيء.

ربما انشغاله بالسمكة وفرحه بفرج التيه الذي كان فيه، وإن لم يكن قد خرج بعد، لفت انتباهه عما يحدث حوله، لم يدرك بعد ارتفاع القارب وهبطوه المتكرر، ولا عتمة السماء وبرودة الجو، نسي أن غالطته الرياح أو ربنا استغلت ضعفه فعصفت، جرّت القارب بشراعه يمنة ويسرة، وعندما أدرك كارم كان أوان العودة قد فات، ركب موج البحر الأزرق ومن علٍ قذفته المياه ليسقط القارب على ظهره، لم يستطع أن يتشبث بومضة عين، وجد نفسه بين تيارات الماء تدفعه واحدة تلو الأخرى فلم يعد حتى يرى القارب، صرخ وانتحب، نادى بأسماء عدة... أسماء أحبها وأخرى أحبته.
على كل لم يجبه أحد، فقد ارتخت أطرافه وتسللت غمائم اليأس فغطت الأفق أمامه ولم يعد يرى أي شيء، أو هكذا كان يظن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نداء العرش

سميح

أرض السهل فاسدة لعينة كأهلها، وربما لذلك كانت أكثر أرض غزتها أشجار الزفير، بقلب الأدغال الصافية اجتمعت البيوت والمنازل، التفَّت حولها الأسوار وأقيمت فوقها الأبراج تراقب الأفق البعيد، وبأحد الأكواخ العتيقة لينة الأخشاب وقفت منار أمام قدر خاوية بحيرةٍ لا تعلم ماذا ستفعل.

خلفها خمسة أفواه مفتوحة وأمعاء خاوية تنتظر ما يسدها، تأففت... تناولت بعض الدقيق وعجنته بالماء والملح وشيء من الزبد.

علا صوت زوجها من الطاولة يلاعب أطفاله، عريض المنكبين ذا شارب كث، وهيئة فولاذية، إلا أنه مع أبنائه أليَن من القش، رغم أن الدنيا لم تكن أبدًا في صفّه حتى بعد ما خبر غِيَر الدهر وعبره وتفقهه عيال عجز عنها وتراكم الديون عليه يومًا بعد يوم، حتى بعد كل ذلك لم ترأف به.

إلى أن وهب نفسه لخدمة خان أرض السهل المبجل وبأعجوبة أصبح حارسًا للجدار.

في كملة وأغلب مدن السهل عمومًا الجدار دائم التقديس، يفنى من يفنى ويعيش من يعيش، فالجدار ثابت ومن حوله متغيرون.

كانت تلك اللفظة عمومًا تطلق على أسوار المدن بغير تخصيص، فزادها ذلك هيبة.

أخرجت منار الخبز الدافئ من قلب التنور تفوح رائحته العطرة مفعمةً المكان.

التمعت أعين الأطفال بينما الصحن يهبط ببطء على الطاولة.

مد صغيرها تيم يده نحو الخبز، فنهرته قائلة:

- صبرًا!

رمقها بلال متنهدًا:

- رويدًا، الطفل جائع!

قالها متعجبًا، بينما راح يداعب الفتى مطيبًا خاطره، قطعت الخبز لكل نصيبه، إلا أن بلال أرجعه إليها، قائلًا:

- لست جائعًا.

هو هكذا دائمًا يرفض ملء جوفه قبل ورديات الحراسة، صاح ولده الأوسط سميح:

- ستأخذني إلى البرج اليوم كما وعدتني.. أليس كذلك؟

ودَّ ولو لم يفعل بلال، ود لو أنه ينقض عهده للفتى، لكنه لم يشأ أن يره يكسر كلماته فيعتاد الفتى على ذلك، زفر متعبًا، ثم قال:

- سأفعل.. لا تقلق سأفعل.

- أمي، أريد المزيد.

لمعت عينا الأم، قائلة:

- لقد أكلت قطعتك، يجب أن تعتاد ذلك.

- لكني جائع!

صاح الفتى بينما إخوته الأكبر يرمقونه بصمت، يحمل كل منهم نفس الكلمات، لكنه يستحي قولها.

تناول بلال قطعته واضعًا إياها أمامه، قائلًا:

- هيا فتى كل كي تصبح قويًّا كأبيك.
تهللت أسارير وجهه، بينما قد خرج بلال وفي ذيله سميح.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
متشحًا درعه الفولاذية مشى باتجاه السور تزفّه أنظار العابرين، يجتمع بقلب المدينة جل التجار صائحين:
- أسماك من بحر العبرات، اقترب.. أسماك مملحة يا سيدي.
جر قدميه بخطى حثيثة والجوع ينهش جوفه، لكنه لم يملك فعل شيءٍ.
سميح يتأمل الموجودات بعين واسعة متعجبًا من كل شيء، على كلِّ قطع بلال المسافة حتى اقترب من سلم السور الطويل الملتف حول البرج.
بأعلى البرج تتجلى أدغال الزفير بالية، أمسك سميح ورفعه على كتفه، شهق الفتى من المنظر والهواء يلفح وجهه، لأول مرة يرى المدينة من علٍّ، ولأول مرة يرى أوراق الزفير اللامعة تتكاثف بجوار بعضها البعض حتى غطت الأفق.
- تبدو جميلة يا أبي.
تأمل بلال الأوراق، حقًّا من بعيد تبدو كبحر من نفيس الأحجار المتلألئ، تنهد قائلًا:
- هؤلاء موتى يا فتى.
- بل هم أشجار، ألا ترى الأغصان والأوراق، أهناك بشر لديهم أغصان وأوراق؟
قالها الفتى متعجبًا من ادعاء أبيه، ضحك بلال حتى دمعت عيناه، ثم أتبع لاهثًا:
- ليس كما تظن، هؤلاء كانوا بشرًا يومًا ما حتى اشتموا عبق الموت فتحولوا إلى ما تراه.
ابتسم الفتى قائلًا:
- عندما أكبر سأنظف أرضنا منهم.
تبسم أبوه مربتًا على رأسه:
- أنت لها.
نسمة هواء مرت، تعالا حفيف الأشجار، هواء بارد قاسٍ، كل شيء هادئ، شعر شيء ما يقترب من بعيد، نقطة بالأفق تعدو نحوه.
تجمد الوقت ولم يشعر بأي شيء سوى بارتداد كتفيه للخلف، سكون قد كنف المكان هو نفسه لم يستوعب ماذا حدث.
سرعان ما شعر بماء دافئ يسيل على رأسه، سقط سميح من كتفيه على الأرض الحجرية، التفت له بلال ليرى سهمًا قد استقر بجبين الفتى، اقترب منه زاحفًا.
- سميح؟
سبحت رأسه ببركة من الدماء، بينما انطفأت عينا الغلام بصمت، لم يأتِ منه رد، وأي رد يُرجى من جثة هامدة! سهم آخر طار مستقرًّا بجانبه.
التفت إلى حافة البرج، فإذا برايات العاصفة تبرز حتى السماء بخيولٍ تجر الأرض نحو الأسوار، وقف غير آبه بما قد يحدث، أي هول أحاط بهم!
مرت لحظة جرت أختها يتأمل الجنود يقتربون أكثر وأكثر، ومن بعيد طار سهم جديد حتى وجد مأواه بصدره، كأن بلال كان ينتظره، فلم يعترض وسقط ميتًا بلا حراك.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حكيم

بظهر اللفافة المتداعية قرأ:
"ومن فوق الأعالي انهاروا، لم يبقَ حجر على حجر، ذابت الأرض وتبخرت البحار، بقلب الكهوف هبطت (اللاخدات)، وبسفوح الجبال تآوى كل خبيث".
قطع انتباهه دخول جهير عليه، اقترب منه قائلًا:
- كل شيء جاهز.
أعاد غلق اللفافة متنهدًا، لم يزُر النوم عينيه منذ أيام، وعلى الرغم من ذلك لم يملك شيئًا سوى المسير.
أغلق جفنيه متثاقلًا مستندًا إلى الطاولة بقلب الخيمة وقد غطى عينيه براحته، التقط نفسًا طويلًا.... نفسًا مكتومًا محملًا بالهموم، ومن بين أصابعه أرسل نظراتٍ طالت أطلال جهير.
طأطأ كتفيه ورأسه متمنيًا أن يسري كل شيء كما أراد، غمغم بصوت أضناه السهر:
- مُر بتجهيز جوادي، ساعة من الآن ويبدأ الزحف.
كان رحبان قد ترك الجيش بالفعل مع قواته نحو تمرذ، بينما بدأ حكيم يعد العدة لما هو آت.
نهض محاولًا فرد ظهره الذي أحناه تعب الليالي وتسلل إليه الألم من كل مكان، كل وصلة في جسده كانت تئنّ... تصرخ طلبًا للغوث.
إلا أنه وضع رداءه الجديد، درع سوداء سواد الدجى ومن خلفها غُطي بقميص من الحلقات المعدنية، وكذا مع أطرافه، إلا أنه ترك رأسه بارزًا، لا يغطيه شيء سوى تاجه اللامع الذي حرص أن يكون بارزًا.
تنهد واقفًا أمام باب الخيمة قبل أن يخرج، يتحرك عسكره كالنحل كل كما أُمر، شعلة وقادة أفعمت صدورهم ولسبب ما تحول ردع اعتداءات السهل إلى فتح لأرض لم يملكوا منها شيئًا من قبل، لكن قانون الدنيا خط منذ بدء الزمان بخط واضح (إما أن تظلم أو تُظلم فاختر أي الأمرين شئت).
كان جواده الأبيض ينتظره بعين بالضوء نضَّاحة، كل شيء يبدو على ما يرام، امتطى جواده يمشي الهوينا بين أزقة الخيام تغوص قوائم مطيته بالوحل ومن خلفه الجند يصطفون حتى وصل إلى نهاية المخيم.
ثلة من جنده كانوا هناك عراة الصدر رقيقي الملبس أخذوا يصلون، كان حكيم قد قسم الجيش سرايا، والسرايا فرقًا، رماة ومشاة وخيالة، إلا أنه استحدث فرقة جديدة لم تكن قد وجدت قط، فمسير الجيش بعرض الطرق الآمنة لن يتحمل عددًا كبيرًا منهم، هذا على فرض أن الطرق لا تزال آمنة، لذا كانت كل سرية ستسلك طريقًا حتى أقرب سهل أو سفح آمن من كملة، وعلى طليعة كل منها يمشي ستة من الرجال المتطوعين لتحري الطريق، يعلمون جيدًا أنهم سيلقون كثيرًا من المهالك، لكنهم أبوا دون نيل المراد.
كرمهم حكيم ووعد المتطوع منهم بإجزال العطاء لأهله من بعده وإن تمت له النجاة لا يشقى بعد هذه الحرب أبدًا، فداعبت تلك الكلمات نفوس الكثيرين واستبقوا لنيل رضا حكيم والجريح.
تقدم حتى حافة الجرف الصخري تشرئب النفوس لرؤيته، يفسح له جنوده طريقًا حتى بلغ أقصى الجرب وحيدًا.
تلفحه نسمات الهواء باردة جوفاء، تخبره بما يريد سماعه، نظر إلى سيل الأشجار اللعينة، فضاقت نفسه، ومن لن يفعل!

كل هؤلاء كانوا بشرًا في يوم ما، كانوا أناسيَّ لهم من الحياة ما لغيرهم الآن، مئات، بل آلاف، وربما لو أحصيت عددًا لتعد عشرات الآلاف.
كل هؤلاء -على أقل تقدير- موتى إن لم تصح التكهنات أنهم أحياء داخل تلك الأخشاب السوداء يعذبون حتى يفنى الكون ومن عليه.
كل سنة يزيدون، فعلى الأطراف هذا فلاح تاه حتى قاده حظه التعيس إلى هنا وها هي شجرته بجواره شجرة أقصر ربما لولده الذي اقتفى أثره... ربما.
تنهد سائلًا جهير بغم بادٍ:
- أين وصلت سرايا الاستطلاع؟
تقدم منه جهير بتؤدة، قائلًا:
- مسيرة يومين بالكامل تم التأكد منها.. لم تبقَ سوى برهة أخيرة قبل سفح جبل السديم.
ازدر نفسًا وأطلق آخر:
- وكم رجل خسرنا؟
يعلم جهير جيدًا أن حكيم يختار أسئلته بعناية، يعلم حتمية الموت لكثير من رجاله فهي حرب بعد كل شيء، لكن تلك الطرق هو من أرسلها إليهم، الميت منها لا يخسر حياته فحسب، بل ربما يعلق كغيره أبد الآبدين.
اقترب جهير منه أكثر مغمغمًا:
- أحد عشر رجلًا.
نظر حكيم إلى السماء، قائلًا:
- لتدمي جراحهم.
ردد خلفه جهير خاشعًا:
- لتدمي جراحهم.
التفت حكيم تجر عباءته الهواء من خلفه، عينه محمرة جاحظة، لكن ربما لمعان ذهب التاج قد أخفى ذلك ولو قليلًا، لكن الجميع أدركوا حقًّا كم هو متعب.
لم يكن ليسمح لهم برؤيته هكذا، رفع رأسه.. التقطت نفسها طويلًا، شعر بالدنيا كلها تسكن من حوله، أغمض عينيه فأحس بنفسه هو والخواء فقط لا غير، فجأة فتح عينيه على اتساعهما مبرزًا حمرتها أكثر وأكثر واشتدت عروق عنقه وجبينه صارخًا:
- يا رجال!
صرخة دوت بقلوب الماثلين، ارتعشت أفئدتهم ناظرين إلى ملكهم الذي نفخ صدره قائلًا:
- لقد عاث أولئك الهمج بأرضنا فأفسدوا ونهبوا، فبحق كل ما هو غالٍ ونفيس، بحق كل ما اختبأ ببطن كل كهف وكل وادٍ، لن نتوقف، حتى لو شكتنا الأرض للسماء، وحتى لو ترقرقت الأرض بالدماء، ولو تبخر البشر وغيض الماء... لن نتوقف.
شخصوا كلهم إليه، شعروا الدماء تعدوا بعروقهم، لم يقوَ أي منهم سوى على رفع يديه والصراخ:
- لنثأرن!
- عاش حكيم.
- عاش المحرر.

ثم انطلق بجواده كالسهم يجر خلفه صفوف جنده هابطا من فوق التلة التي أقيم بها المخيم حتى هبط إلى مُستهل الأدغال، كان جنديان يقفان هناك يحرسان الطريق، بينما آخران مثلهما على بعد عدة أمتار.
لثم كل منهم وجهه سائرين بتلك الطرق الوعرة الضيقة، لو كانت أدغال نبراس كهذه لما قوي أحد على ولوج نبراس، بل إن نبراس ما كانت لترسل بجندها للعالم بهذا الشكل، فأنى لأرض السهل أن تفعل كل هذا بهم من إتاوات وسرقات وأرضها بهذه الحالة؟!
سار جوادة بتؤدة متأملًا الأوراق الزرقاء، وجل فؤاده، شعر بألف عين وعين تراقبه، إلا أنه تماسك.
وعلى مسيرة لم تكن بالبعيدة برزت شجرة حادت قليلًا عن إخوتها، أمامها وقف أحدهم يبكي وينتحب، يضم وجهه لراحتيه لينظر مرة أخرى لوجه زميله المتخشب بلحاء أسود لتغرق عيناه بالدموع مجددًا.
مر بهم حكيم متأملًا هول القصص الذي ما كان ليصف عشر أعشار ما يراه وسيراه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يومان مرا سريعًا وهم لا يزالون يسيرون بأرض الممر الآمن جرًّا، سئمت نفسه جوانب الطريق المقبضة، ولم يكن جنده أفضل منه حالًا، حتى النوم لم يكن ليزور أيًّا منهم، فحتى لو دفنت نفسك بتلك الأرض لن تشعر سوى بجذور الأشجار ترنوا إليك بجمود.
في نهاية اليوم الثالث وبقلب جنح الليل برزت قمة جبل السديم من علٍّ، ربما كانت أكثر شيء مبهج رأوه خلال الأيام الثلاثة المنصرمة، برزت شامخة يحوم حولها ألف لون ولون، غبار من شتى الأصناف يلتمع ويدور حولها كأنما يبجل الجبل ذاته، لسبب ما كان يبث الدفء بقلوبهم، ربما لأنهم كانوا يودون التشبث بأي بهيج، وربما فعلًا ما يحاوط هذا الجبل من قصص وأساطير حقيقة.
على كلٍّ لم يشغل حكيم باله بهذه الأمور كثيرًا، وقاد الجند عبر المنعطفات الحادة يمنة ويسرة حتى انتهوا إلى منطقة أوسع تنتهي بسفح الجبل العظيم.
بادرتهم الأرض منبسطة خضراء قد اكتسبت لونًا جديدًا غير الرمادي وبعض الأزرق الباهت الذي لم يروا غيره، تهدهد الرياح خيوط العشب لتتراقص بوداعة، تبث الهدوء والطمأنينة في نفوس الناظرين، لم يعلم حكيم أنه كان يحتاج أن يرى مثل هكذا منظر إلا عندما أبصرته عيناه، تلك الأرض بالخير فياضة ولولا الأشجار السوداء لكانت الحيوانات فيها ترعى، تكنف كل بهيج، لكن سيف الأقدار أمضى.
مشى جواده أسرع مما مضى، حتى هو شعر بذات الشعور، أخذ يركض للأمام بسرعة، حكيم نفسه واجه صعوبة للسيطرة عليه:
- اهدأ يا فتى.
قالها مبتسمًا تتهادى نسمات الهواء بين أذرعه، لسبب ما اطمأن الجند لمرآه، يعلم الجميع قناعه الذي كان يرتديه، لكنه ولأول مرة حتى وإن كانت الأخيرة رأوه متبسمًا.. بسمة صادقة هدأت لها نفوسهم.
أخيرًا أدرك جواده فترجل عنه تاركًا إياه يداعب خصلات العشب، عدل عباءته جيدًا واتجه نحو آخر الصف.
تعانق صخور الجبل الأرض المنبسطة بنعومة، بينما اتخذ منها جنده حوائط لخيمهم، بعيدًا عن كون صخور جبل السديم دافئة لكنها أيضًا كانت تحمي ظهورهم.

تجلت الخيام صفوفًا تتباعد عن الجبل، المهم فالأهم، بالطبع مثلت خيمته بآخر صف ملتصق بالجبل كانت السرايا التي سبقتهم قد تولت أمور المخيم ليكون جاهزًا لدى وصولهم.
دلف إلى الخيمة خالعًا طبقات درعه الثقيلة يستمع إلى الجنود بالخارج يصلون سرية تلو الأخرى، العدد يزداد ومعه الضوضاء بالخراج تعلوا وتعلوا.
ارتدى حلة خفيفة ثم اقترب من باب الخيمة خارجًا، ولدى بروزه أمامها نظر إليه الحرس وهلة ذاهلين، تدارك أحدهم الصمت قائلًا:
- جلالتك، ألا يجب... أن تضع درعك على الأقل؟
التفت له حكيم بنظرة حادة، تجمد الحارس بمكانه، سقطت الكلمات من فيه فلم يجد ما يقوله، لكنه أخيرًا غمغم بتردد:
- عذرًا.. عذرًا يا سيدي.
تركه حكيم ماشيًا بقلب المخيم، هذا يفترش الأرض ناظرًا للسماء، وذاك يتلو صلواته، وآخر اجتمع حوله ثلة يستمعون بعض الحكايات.
استقر أخيرًا أمام النار، نظر إلى ألسنتها المتراقصة تأكل بعضها بعضًا، دقائق مرت حتى أدرك البعض أن الملك بينهم، يتشح قميصًا من الصوف الأبيض جالسًا أمام النار كجندي مشاة، بل ربما ما هو أقل.
اجتمع عدد منهم غير مصدقين، يرسلون نحوه نظرات فاحصة، أسفل المخمل الناعم وحلية الذهب وجملة الجواري والعبيد ما كان إلا رجلًا عاديًا، باهت اللون حاد الملامح، نبتت ذقنه بغير نظام عكس وجهه الذي اعتاد أهل العاصفة أن يروه نظيفًا، تجاهل الجميع، كلهم ينظر إليه، لكنه لم يكن يراهم من الأساس، يعلم أن ما قرأه بظهر المخطوطة صحيح، الطرق الآمنة أثبتت ذلك، كل كلمة إذا قرأها كانت حقيقة.
لمعت عيناه، ود لو يبكي الآن غير آبه بأي شيء آخر، لكن ساعة الحسم تقترب وليس لها رادّ، ما تبدأ معركة الغد حتى لا يكون هناك للعودة سبيل.
ربما جيش رحبان قد بلع تمرذ بالفعل، بل ربما قد فتحها بالفعل... لن يعلم.
انسل إلى أنفع عبير مرقة صافٍ، ريح زكية تتعالى.. كان بأمسّ الحاجة إليها، أتاه أحدهم بغطاء كتاني كما أن البقية، فتح عينيه ليبصر الصحن الخشبي أمامه بألسنة البخار تميس من فوقه.
أمسكه بكلتا يديه اللتين خرجتا على استحياء من الغطاء، أخذ الغناء يعلو رويدًا.
- وحيدًا في الغابة لا أحد ليرعاه، بالماضي يحبوا فنسر لرؤياه، ويسير رويدًا يتبع أخاه.
سكتوا ليعلو الغناء هادئًا بصوت أحدهم:
- وذئب وحيد أراه من بعيد، بقوائم راسخة وعين تقطر بالوعيد.
كان صوته دافئًا مطمئنًا، يصفق الرجال مع حلو الإنشاد تلفحه أنفاس الليل، بينما يكنفه الدفء الخافت أسفل الغطاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صباح جديد، الحركة بالمعسكر سريعة، تنتقل الأخبار بين المخيم كالرعد، كم سهمًا ناقصًا، كم من المؤونة يجب أن يُحمل.
حكيم بخيمة القيادة برفقة جيهر الذي وصل مع آخر سرية من الجيش قبيل الفجر.

بقلب الخيمة رسم على قطعة جلدية دائرة حصينة يمر بها نهر بعرض مستقبلة حشد من أشجار الزفير، بينما تفصلها عن تلك الغابة برحة من السهل الأخضر.
أشار حكيم نحو القلعة، قائلًا:
- لن ينفع الحصار.
نظر جهير لوهلة متأملًا، خاض الرجل أكثر من حرب فيما مضى، ليس كأن سليمان الخانع مستسلمًا، فذلك يعني أنه لم يقد عدة معارك قبل عهدته أو بعدها.
ردع جهير تمرد الرفيديين الأول، وكان لهم كالشوكة في الثاني وخرط من معركة وادي التيه التي كانت بها ستة من القادة دون أن يخسر المزيد.
بعين ملتمعة التفت له، قائلًا:
- إن كنا نرتكز إلى السرعة في إتمام هذا الفتح فلن ينفع الحصار، لكنه في أسوأ الظروف ممكن...
خطرت ببال حكيم فكرة، ربما سيلعنه التاريخ بعدها، ما كان ليعلم ذلك من عدمه، لكنه ابتسم على أية حال.
كملة لم تكن قلعة كبيرة، لكنها تمتاز بالنهر الجاري بعرضها وأرضها الخصبة لكل مزروع، قسم حكيم جيشه ثلاثًا قبل أن يبدؤوا الزحف.
بأعماق الغابة كان جنود الكشافة يأمنون الطريق، يسقط أحدهم.. عدة دقائق ليأتي مكانه آخر، كان الأمر في البداية مليئًا بالكثير من المشاعر، لكنهم قد اعتادوا ذلك الآن.
ساعة كانت الشمس قد بلغت عنان السماء تبعث ألسنة نارها الحارة، يكاد يُسمع لظاها بهذا اليوم الذي كتب بأحرف من ذهب عند البعض وبالدم عن الكثير.
قبل ولوجهم السهل قبالة كملة، توقف الجميع وانتصب أعتى الرماة بأعين تثقب الوجود، رفع يديه صامتًا، ثم...
- أطلقوا!
أمواج من السهام والموت الأجاف اندفعت طائرة في السماء كسيل البحر تأكل الأخضر واليابس.
لم تكد الأسهم تهبط حتى انطلق الجيش يجر بعضه بعضًا بسرعة جنونية، كان الحال كذلك بكل من الجهة الغربية والشرقية من الحصن.
صحيات كثر علت فوق الأسوار، وربما بلغت بعض الضواحي.
اصطف الرجال أمام الباب الجنوبي للحصن يتقدمهم حكيم بجواده الأبيض ملتمعًا مع الشمس الوهاجة، يمشي بأنفة أمام صفوف وصفوف من رجاله، هو بالمقدمة يعلم جيدًا أنه في خطر، لكن أحدًا لن يحارب لملك ليس مستعدًا أن يحارب لهم.
تقدم من الصفة مجموعات من الجند كل معه دابة أو حصان، كان يرى جند كلمة فوق الأسوار يرمقونهم ذاهلين، وكأن الموت الأسود ليس كافيًا، وكأن خان الأرض الأواب ليس حملًا ثقيلًا بما يكفي، وكأن مصائب الدنيا كلها التي اجتمعت فوق رؤوسهم كانت لتكفي ليأتي أهل العاصفة إليهم.
يرمقون جمع الجند بأعين دامعة، استل جندي من كل حشد منهم سيفه ناحرًا الدابة أو الحصان الذي كان أمامه، برهة مرت حتى كانت دماء الخمسين دابة وحصان هي ثاني ما أريق اليوم، ولن يكون الأخير.
ولسبب ما توقفوا، نعم لم يتقدم جيش حكيم خطوة أخرى، فقط خط من الدواب يرتسم حول الحصن، بعد موجات من الأسهم تنطلق من حين لآخر مستقرة بعين هذا وببطن تلك.

كان حكيم قد استقر على أن يفعل بهم ما سيتحاكى بهم أهل البلاد، سترتف ميثاء على عرشها بقلب نبراس ولتتحطمن الألواح التسعة بقلب عمارية حزنًا على ما سيحدث.
أيام مرت كانت الآفات قد بدأت تلتهم الجيفة الملقاة، زاد عدد الجثث حتى كانت تقريبًا لا تُحصى، وبين ليلة وضحاها اختفوا جميعًا.
خط الجثث والفئران وكل شيء... اختفى، استيقظ أهل كلمة ليوم جديد، لكنهم ما لبثوا أن فعلوا حتى رأوا النهر الجاري وشريان حياتهم الوقاد أسودَ تسبح فيه الديدان وتطفوا على وجهه بعض المتحلل من تلك الميتة القذرة.
ليس هذا فحسب، بتلك الأيام عمل العمال بجنح الليل حتى كونوا مجانيق قابلة للنقل عبر الأدغال بسهولة، نصبت أمام البوابات عليها مع من اللحم العفن وباقي ما تركته الآفات.
قطعت الحبال، فطارت المهلكات تغطي السماء من فوقهم حاصدة معها من تستطيع.
من خارج الأسوار سمعت التوسلات، يبدو الآن أن الآية قد انقلبت وأن جند حكيم هم من يغلقون الأبواب على من فيها.
تعالت الصلوات بالحرمة، سد الجيف مجرى النهر فركد متعطنًا بما فيه حتى مرت عدة أيام، تعالى فيها الدخان من الداخل، لم يعلم أحد مصدره، لكن روائح اللحم المحترق أفعمت الأجواء.
يومان آخران لم ينقطع فيهما الدخان المتصاعد حتى عمَّ الصمت، وكأن الموت ذاته قد سكت بالداخل، أنفاس الدخان وروائح الجيفة اجتمعت معًا في مزيج مرعب أقبضت له القلوب، بكل هذا يتخذ حكيم مجلسه متبسمًا.
انهارت الأبواب، وكان الملك المحرر أول الداخلين، تطأ قدما فرسه الأرض منغرسة بأمعاء محترقة، تبرز يمنة ويسرة جثث متفحمة وأخرى مرتعشة، أم تحتضن ابنها أو كانت تفعل ذلك قبل أن تلتهمها النيران، يبدو أن الخوف من المرض قد طال نفوسهم محرقًا حتى من يشتب به.
خطوة أخرى يخطوها الجواد، كانت المنازل سليمة عدا سكانها الذين تركوا ذكرى عذاب أمامها، كل جرى خلف مصيره، حتى الجثث التي نالت منها الأسهم لم يرفعها أحد، لم تفرق تلك الأسهم بين رجل أو امرأة، كهل أم طفل رضيع، كل سواسية صرعى بالطرقات.
جال بالأزقة يرمق نصره الذي كونه بيديه، مات كل من بالمدينة عدا الجزء الشمالي منها، ما إن وصله كانت الشمس تهبط دامعة يسيل دمها حزنًا بصفحة السماء، احتشد الناجون بالركن الشمالي ينتظرون موتهم الحتمي يحتضن بعضهم بعضًا، تقدم منهم حكيم بعين تقطر حقدًا، أحسه وأحسوه، ارتجفوا بأماكنهم، صاح بهم:
- حد الموت آت يا أهل السهل، املؤوا أعينكم، أريدكم أن تحكوا لخانكم المقيت عن الموت الأسود الذي أتيناكم به.
حكيم المحرر فتح كملة دون خسارة رجل واحد، ليكتب التاريخ ولادة الشيطان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوس

تمضي الساعات وتمضي معها ذكرى العجوز الذي مات أمام أعينهم، لا تزال صرخاته تردد في آذانهم، نحيبه يعبث بعقول الجميع، حتى الغلام في مؤخرة الصف كان الأنين لا يزال رفيقه.

تم تغيير العجوز بآخر يقود الطريق، ولم تكن تلك آخر مرة يتم استبدال قائد الصف فيها، فأزهار الزفير مثقلة بالرحيق تنتظر الخريف لتنطلق في رحلتها.
نظر أوس إلى النخاس الذي لم يبدُ مستاءً على الإطلاق، حتى لو اعتبرهم بضائع يبيع ويشتري فيها -وقد كانوا- فلا بد أن يحزن لخسارة قطعة أو اثنتين، لكنه في الأغلب كان يعلم.
ضاقت الطريق أكثر من مرة حتى كادوا يعانقون لحاء الزفير، يوم مر أو اثنان لا فارق، على كلٍّ بلغوا نهاية الأدغال الأولى بعد مدة ما من الوقت لم يكن عقل أوس أو غيره قادرًا على حسابها.
انبسطت الأرض صفراء حريرية، تبرز منها كثبان الرمل الناعمة وتتهادى الرياح فوقها تقلب بعضها بعضًا.
تأمل المنظر رويدًا، منذ قليل كانت الأوراق الزرقا هي السماء، والتربة الرمادية كل الأرض وأخشاب الزفير ما بقي من العالم، أما الآن يرى الدنيا على اتساعها، شعر بها تناجيه... تملأ صدره، أي شعور ذلك الذي كان ينتابه داخل الأدغال إن كان يمكن أن يشعر من الأساس! قد مات هناك وهو حي... وعطش في قلب ارتواءه، كل شيء مهما بدا جميلًا كان منقوصًا، حتى لمعان الأوراق ما كان ليشعر أي منهم سوى بالوحدة ومصير الموت المقترب..
صاح بهم النخاس:
- تحركوا.
لم يكن الرجل يملك أي وقت ليضيعه، قد خسر ما يزيد عن ستة رجال، وإن كانوا عجائز وأطفال، لكنها خسارة بعد كل شيء.
وعبر الكثبان الذهبية زحفوا، تعوي بهم الرياح تارة، تحرق الشمس بأشعتها الوهاجة جلودهم، ليأكل ليلًا زمهرير الفلاة ما بقي من صبرهم.
بين المنعطفات اللينة وسهول الحرير تبرز النباتات الجافة هنا وهناك، تتحجر الأرض رويدًا، في تلك الرحلة مات الكثيرون، كان الطعام يوزع بغير تساوٍ، علم ذلك عندما أعطاه أحد المساعدين يومًا نصف رغيف خبز، بينما تناول البقية من حوله لقمة أو ربع رغيف.
كان ذلك النخاس كأي تاجر، يود الحفاظ على أقيم ما لديه، فلن يحمي الصائغ اللؤلؤ كما يحمي الذهب، رجل كأوس ربما يكسبه هناك سبعة أو ثمانية آلاف شمس أي ما يعادل ثلاثة عشر ألف روبة لذا كان من الطبيعي أن يحرص على سلامته هو وأقرانه من الأصحّاء نسبيًّا.
مروا بقُرى صغيرة، إلا أنهم لم يدخلوا أيًّا منها، فقط اكتفى النخاس بالولوج وحيدًا ليوفر المعونة ويعود.
جرَّت الأيام بعضها جرًّا، بدأت الأرض تظهر بعض الكرم فتناثر عذب الألوان رويدًا ما بين بنفسج هناك وبعض الياسمين واللافندر، كلٌ برز على استحياء يمنة ويسرة.
بدت معالم الطريق غير ممهدة على الرغم من معرفة الجميع بمدى نظام نبراس إلا أن تاجر رقيق مثله لن يجرؤ على البروز أمام الحرس وإلا فالنار أولى به.
أضيف لون جديد للوحة البيان الخلابة مع اقترابهم من عاصمة نبراس ومدينتها الخلابة (قَبَس)، لم يكن لونًا جديدًا، بل بالعكس بدا شديد الألفة لدى كثير منهم، غطت زرقة الأشجار خط ما من شيء يقطعها عدا جبلين برزا بطول الأدغال.
تجلى الضباب بالوادي بينهما بهيًّا، شق النخاس عمامه بثبات بينما الصف خلفه يتحرك بتؤدة وتأني.

لم يكن الممر ضيقًا ولا كان متسعًا، الجو خانق رطب والعرق يتصبب من جُلهم بغزارة، بالكاد المرء منهم يرى موطئ قدمه بصعوبة، يخطو خطوة فلا يدري إن كانت التالية ستأتي، فحتّى وإن قطع ذلك الجبل الأدغال لكن واديه لم يسلم من اللعنات فبرزت على جانبي الطريق عدة أشجار ولم تكن كثيرة، تلك النفوس التي اعتادت رؤية الأشجار كثيرًا لم تكن لتعذر من شجرة أو اثنتين على أية حال، لكن ذلك الغرور ينكسر دومًا إبّان تحول أحدهم أو إصابة آخر.
يتأمل أوس حاله وحال البقية، لم تربطه أي صلة، فإن ذهبوا إلى الجحيم جميعًا لن يبالي، حتى لو كان أولهم، لكنه ربما شعر ببعض الأواصر قد امتدت بينهم، عله طول الرحلة ووعثاء السفر... ربما.
مط النخاس خطواته حتى برز شق صخري يمين الممر الذي ضاق، أخذ الشق بالاتساع رويدًا آكلًا حق الوادي بأرضه، أشعل مصباحه الزيتي فأنار عدة أمتر أمامه والتمعت غشاوة الضباب مغطية سيلًا من الأشجار قد سدت الطريق.
اتجه نحو الشق الذي بالكاد ساع فردًا واحدًا، التفت إليهم صائحًا:
- ورائي، إلى الأعلى.
لم يعلموا أي أعلى يقصد، الأرض سوداء والهواء مكتوم، بينما الضباب يجثم على صدر كل منهم، اعتلوا الشق واحدًا تلو الآخر، بينما عواء الريح يشتد وبعضهم حث الآخر على الاستمرار.
مثل أوس أمام حافة الطريق المرتفعة فتشبث بها، انسلت بين أنامله برودة الطريقة المريحة فرفع نفسه لأعلى دافعًا صدره حتى استقر على الطريق.
خطوات متتابعة لا يرمق فيها سوى موطئه لوهلة ثم الطريق الممتد بطول الجدار.
مرت ساعة كاملة، بعدت الأرض عنهم رويدًا بينما ارتفع الشق بهم تدريجيًّا كلما مضوا فيه حتى كانوا يرون الأشجار أسفلهم كغبار ود أحدهم لينفخ فيه فيزيحه.
زأرت الريح بهم وضاقت الأرض حتى اضطروا في النهاية إلى المشي بشكل جانبي تعانق ظهورهم جدران الجرف الصخري، مع أنفاسه انسل الخوف متشبثًا بالجدار خلفه ضامًّا ظهره إليه، شهق بقوة حتى كادت أنفاس الهواء الباردة تجمد صدره... لكن ذلك أهون من السقوط، بعنق مرتعشة حاول النظر أسفل قدميه فلم يرمق سوى الحافة... الحافة وأسفلها ألف ألف قدم من الموت ينتظر من يلتهمه.
كل شيء أصبح واضحًا، ملوحة عرقه، دقات قلبه تضرب كالرعد بين ضلوعه.
من مقدمة الصف المتشبث بالجرف الصخري سمع صراخًا... عويل شخص فقد كل شيء، لم يرَ أغلب جملة العبيد الطفل الذي تسلل مقدمة الصف بينما هم مشغولون باعتلاء الجرف، صاح الفتى راكضًا نحو النخاس:
- أيها القاتل!
لم يبدِ النخاس كثيرًا من الذعر، لم يبدُ عليه أي شيء، كان الرجل اعتاد هذه المواقف منذ دهر مضى.
أخرج خنجره وبينما لهيب الانتقام يعمي عيني الفتى إذ به قد ألقى الخنجر بسرعة كالرعد حتى استقر بعنق الغلام.
سقط أرضًا، راح يتلوى يمنة ويسرة محاولًا سرقة عدة دقائق أخرى وما هو بآخذها، حتى سكن تمامًا.
عوت بهم الريح مجددًا ملقية بجثة الفتى إلى قاع الهول أسفلهم، لم يسمع أوس سوى جلبة الجثة التي أخذت تروي أرض الوادي بدمائها.

كل لم يخف سوى على نفسه وليذهب الباقون إلى الجحيم، حتى جلهم لم يلحظ مسحات الدم الطازجة لدى موطئه مكان مقتل الفتى.
أخذ الجرف يحبو هبوطًا بشكل غير ملحوظ حتى انتهى بهم خارج تلك الأدغال.
بينما أوس يهبط آخر خطواته حتى برزت أمامه بهية كما لم يستطع أي كتاب وصفها.
بأوراقها النارية البرتقالية المحمرة بدا بستان قبس بهيًّا، تجول أسراب النحل والفراشات بينها تزف بعضها بعضًا، لأول مرة منذ تلك الرحلة العقيمة يرى شيئًا خلابًا، شيئًا يستحق أن تدمع العين لرؤياه.
نقص عددهم كثيرًا، لدى تلك النقطة تحديدًا كل من تبقى بالصف كانوا عشرة، أما الآخرون إما ماتوا أو هربوا، لكن لا خوف على البضائع القيمة منهم فكلهم قد نجوا.
كانت سماء الليل تطل عليهم حانية وبدر الليلة وهاج بنور سماوي دافئ يبعث على النفس الطمأنينة.
مرت نصف ساعة حتى اجتازوا السهل الفاصل بينهم وبين البستان البديع السابق لقبس، أسوار تلك المدينة المهولة برزت من خلف السهل المزهر يلتمع بها قالب ذهب هنا وهناك وإن أرادوا جعله كله ذهبًا لفعلوا، أخذوا يعبرون عدة منحنيات تحيطهم أصوات الليل وحفيف الأشجار حتى هدأ كل شيء فجأة.
رغم عدم تمرس أوس بالقتال أو تعرضه لمواقف من تلك النوعية كثيرًا، إلا أنه بغريزته أدرك أن هناك من يراقبهم، برهة من الزمن مرت حتى سمع هسيسًا بين كتل الحشائش الطويلة، تأكد خطأ ظنه فهم ليسوا مراقبين؛ وإنما محاصرون بالكامل.
تصبب النخاس عرقًا، جحظت عيناه وبرزت عروق جبينه، لم يبدُ هكذا أبدًا طوال رحلتهم السقيمة، فتلك أول مرة يُرى فيها بنفس مترنحة.
بهدوء بالغ برز رجل من بين الأوراق المحمرة متشحًا درعًا فضية براقة يكاد لمعانها يعمي الأعين، بينما عُقفت سلسلتان قبالة بعضهما على صدره.
لم يكن وحيدًا، فقد ظهر من بين الحشائش الطويلة وخلف الأشجار آخرون مثله، أي حظ تعِس قادر النخاس إلى موطئ قدمه هنا! التف يمنة ويسرة، رمق كل وجه وكل عين محاولًا إيجاد أي ثغرة قد تخرجه من هنا.
بينما العشرة من الناجين لا يدركون حقًّا ما الذي يحدث، فحتى لو قُبض عليهم بالنسبة لهم لا فارق، اليوم يستعبدهم هذا وغدًا ذاك، في كلا الحالتين لم يكن ما يحدث بالنسبة لهم أمرًا جللًا، ربما توتر بعض النفوس لهول الموقف وهيب دروع حرس نبراس المجلين.
بعض الجند حمل هراوات ذات نهايات حديدة، وآخرون استلوا سيوفهم، بدا كل شيء محسومًا مع تقدم كبيرهم صائحًا:
- وقعت أيها الوغد.
مكبلًا إياه بالحديد قبل أن يوسعه ضربًا، بينما هم ينظرون له لا يملكون سوى شعور واحد؛ إنه التشفي.
لم يهتم لهم حرس نبراس كثيرًا، فقط اتجه نحوهم عدة رجال وناولوهم أغطية كي يستر كل منهم عورته ويدفئ جسده الذي نال منه الطريق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

داخل قبس، تلك المدينة الأسطورية التي يتردد اسمها عبر السهول والوديان، التي يتمم بها الآلهة في الأعالي، حيث معبد سراج وضريحه والشعلة الأبدية وعرش مملكة النور نبراس.

دلف كل منهم عبر البوابة الكبيرة بقلب السور يرمقون الأعمدة الحجرية تلتمع أحجار نفيسة بزواياها يمنة ويسرة، ينظر إليهم الحرس نظرات متململة غير أنهم بيد أنهم عاملوهم بشيء من اللين.
ظروف قاطني أراضي النور صعبة ولا بد من مد العون لهم، حتى وإن كانت تلك اليد هي المتسببة في ذلك الأذى.
ضمَّ أوس غطاء الكتان الذي لُف حوله كأنما يعانق أمه، أول مرة منذ دهر يشعر بدفء يكنف صدره، نظر حيث الأبنية الطويلة في الضواحي طوابق تعلوا بعضها بعضًا، خطا بجانب إخوته على تلك الطريق الممهدة متماثلة الجوانب صممت بعناية بالغة بحيث ترتفع بهم نحو مركز المدينة.
بقبس كل شيء يشير نحو المنتصف، الطريقات ومجار الماء وكل شيء يتجه إلى أعلى نقطة في المدنية، إلى حيث تتأجج الشعلة الأبدية فوق الرؤوس ويتعالى لظاها متراقصة أمام كل عين.
كانت الطرق كلها ذات انحناءات هندسية حادة غير لينة، أغلبها كان عريضًا بما يسع عدة عربات بعرض الطريق.
يبدو أن اليوم مميز، شيء ما يحدث، حتى غريب كأوس أدرك ذلك، خرج الناس من بيوتهم، بالطبع كثير منهم تأملهم، لكنه رأى بنظرة كل منهم أن هذا ليس ما يشغلهم، اتجهوا كالجراد عبر الطرقات، أما هم فقد أركبهم الحرس عربة، بينما اقتيد النخاس وحيدًا في أخرى برفقة عدد لا بأس به من الحرس.
قاد الجواد الطريق يجر الأرض نهبًا بسرعة مهولة، فعلى الرغم من عدد الناس بالطرقات إلا أنهم يعلمون جيدًا أين يقفون، عربات الشرطة وغيرها من العربات الملكة لها أولوية قصوى في العبور خصوصًا في يوم كهذا، وقد لعب القدر لعبته وأكسب ملكة نبراس هدية لم تكن تحلم بها.
مضوا حيث ترتفع الطريق بهم بين الأزقة وعبر الحوانيت الصغيرة إلى الخانات والحانات، كلها بهية مزدانة بشتى الألوان، كل شيء هنا بدا جذابًا يسلب الألباب، ربما غشاوة عظمة نبراس التي تربوا عليها صغارًا، لكن المعمار هنا فعلًا كان بمستوى آخر عن أي مكان، قناطر الماء تظل كثيرًا من الطرقات تحمل سيلًا من الفرات العذب موزعة إياه على مكان بالمدينة، بينما عطر الأزهار الفواح يشذو يمنة ويسرة.
تمتم الحرس وقائد العربة بعدة كلمات حال تعب الرحلة بينها وبين أوس، لم يكن يرجو من الدنيا شيئًا، لو بقي بأرض الغابة لم يكن ليعيش، وحتى لو ود الهرب ما كان ليعلم إلى ذلك سبيلًا، وفي أسوأ ظرف إن سرق إدريس ماله فقد خرج كذلك حيًّا.. لكنه لسبب ما أهمل آخر احتمال.
تتثاقل أجفانه بظل العربية حريرية الكراسي، يشعر بظهره ينزلق مناسبًا عليها بينما دفء المقصورة يكنفه.
أول مرة في حياته يشعر بلذة في الجلوس، كان محقًّا بعد كل شيء، لأن يكون عبدًا في نبراس أكرم من حياة حر بأراضي النور.
ساعات مرت حتى توقفت العربة أخيرًا، سرعان ما انفتح الباب أمامهم خارجين من العربة، كانت أول مرة يرى بها أوس أو أيًّا منهم -وربما النخاس الفاجر نفسه- منظرًا كهذا.
ارتفع سلم رخامي أبيض حتى بلغ عنان السماء، بينما من أعلى ألسنة اللهب تتعالى متراقصة تؤجج قلوبًا وتهيب أخرى.
بكل ست درجات من السلم الطويل الذي كني بحبل السماء برز عمود قصير على كلتا جانبيه، لم يدرِ أي منه كنه محموله، بمعنى أصح لم يكن لديهم وقت لذلك فصيحات الناس من أسفلهم تتعالى.

نظروا حولهم بعد ما أفاقوا من هول السلم وأجيج النار إلى هول آخر، كانوا على طرف منصة حجرية كبيرة تعتلي كل شيء حولها، من موقعهم هذا رأوا كل شيء، رأوا قبس كلها وقناطر الماء تتقاطع فوقها منها الدقيق ومنها العريض كشباك العنكبوت يجري بها الماء المتلألئ تحت أشعة الشمس الوهاجة، غير أنها لم تغطِ جمال ما تحتها.
رنا بعينه، فإذا به يبصر الغابة الحمراء تتهادى الرياح من فوقها، بل رأى حتى الجبلين الذين عبروا بينهما أدغال الزفير.
كان الهواء فقيرًا باردًا، سرعان ما شعر كثير منهم بالاختناق، لكن لا وقت للتفكير بذلك، حولهم صفين من الحراس قد التفوا حول المنصة بثبات يكاد المرء يظن الواحد منهم حاملة دروع لشدة ثباته.
دقت الطبول فهدأ الحشد، عزفت أنغام النصر المعتادة تستهلها ترانيم مدح سراج، بينما المزامير تداعب الآذان والقلوب، لحن شاعري يلامس القلوب خشع الجميع إبانه، حتى هو غير المؤمن بسراج ورما الجريح لم يملك شيئًا سوى الإنصات.
فجأة بالسلم ظهر شيخ سمين ذا ظهر محني أثقلته الحلي وسلاسل الذهب، حتى صولجانه الذي أمسكه بيسراه كان إبريزًا خالصًا التمع مع نور الشمس الوهاج.
ببطء وصل إلى قلب المنصة، رفع يده لتهدأ الهمهمات، لحظة انتظرها الجميع، موقع أوس من ذلك الحدث كان ليتمنى أي نبراسي أن يكون مكانه، أن يعيش ليرى ما سيراه وعن قرب لهو أمر يموت ويحيا لأجله كثير من رجال هذه الأرض.
بفستان أخضر باهٍ أخذت تجرّ الأرض من خلفها، تنساب عبر الدرجات بنعومة كأنما تطفوا فوقها، يفوح شذاها على بعد أمتار منها، انساب شعرها النبي مرتبًا بينما تاج الذهب بأحجار من الألماس تناثرت عليه يمنة يسرة.
دقت القلوب لمرآها وكيف لا تفعل! الجميع واجم النظرات، أوس نفسه لم يقوَ على رفع عينيه عنها، أنى لكل هذا الحسن أن يجتمع بمكان واحد!
صاح الشيخ:
- لتحيا ميثاء، ملكة نبراس، خان أرض السهل، مكلة العاصفة، ابنة سراج والحاكمة بأمره.
صاح الناس من الأسفل، تقاذفت الورود الحمراء، تسابق الناس على حب ميثاء، نظر إليها، كل شيء بها مبهر خلاب، عيناها كفلاةٍ تاه فيها فلا يجد منها مخرجًا ولا هو فيها حي، كماء البحر يرمقه الظمآن، يود لو يصيب بعضه فإن فعل زيد عطشًا وإن انتهى قتله العذاب.
رفعت يدها فصمت الجميع، قالت لقائد الحرس بجوارها:
- آتني به.
أماء إيجابًا بينما الفرسان أقل رتبة اقتادوا رجلًا عاريًا غزت التقرحات والندوب جسده، صف من كهنة النور خرجوا عبر السلم تدثرهم عباءاتهم البيضاء، بينما قلنسوة ذهبية تدلت فوق رأس كل منهم.
رفع الحرس عمودًا خشبيًا بأقصى مقدمة المنصة وسرعان ما ربض الرجل مكممًا عليها.
تقدمت ميثاء حتى كانت بمواجهة شعبها صائحة:
- لقد وعدنا سراج فصدق، ومن علينا فأجزل، وإن أذنبنا غفر، ولقد حرر تلك الأرض من مصير لعين فأصبنا بأخف ضرر ممكن وغرت لعنة الزفير القارة وما حولها.
سكتت برهة، ثم صاحت:
- فما جزاء من يكفر به ينكر فضله، بل ويبجل عديم الاسم سيد ناقضي العهد وسفاكي الدماء!

تعالت صيحات الرجل مكتومة فوق العمود محاولًا التملص مما هو فيه، لكن بلا جدوى.
أتبعت قائلة:
- من يفعل ذلك فالنار أولى به.
ثم تراجعت عدة خطوات للخلف، بينما النار تشتعل بالأطباق بجانبي حبل السماء منسابة من الشعلة الأبدية وحتى مكانهم بالمنصة.
وضعت الأخشاب الجافة أسفله ورشّ عليها الزيت، بينما أحدهم ممسك بمشعلة بها من تلك النار العتيقة.
ببطء ألقاها على الأخشاب فسرعان ما أكلتها النار، في تلك اللحظات تخلص الرجل من لاثماء فمه، تنهد ناظرًا إلى جمع الناس يرسلون نظرات جلها تفشي نحوه.
دمعت عيناه، ثم صاح:
- تسعة وتسعون حجر، وبالألف يكتمل القمر، الأرض ومن عليها كل إلى الممات وليعلو اسم طامس بين السماوات، عسى أن يأتي وليد الظل تجري الفضة بدمائه كما قيل بالنبوءات، عساه يطهر الأرض من زيف النور، عساه يقلته الزفير من جذره الحقيقي.
ارتعشت الأفئدة، ذلك الاسم وتلك الترانيم السوداء، صرخ بكل ما امتلك، صرخ بأعلى صوت يمكن لبشر أن يصدره بصدره برزت عروقه مغمض العينين بارز العنق:
- حد الحقيقة أمضى من الحسام، ومن قلب النور يولد ظلام.
علت الهمهمات بين الحشد والحرس، كانت أول مرة تتلى صلوات الظل بقلب نبراس، بأقرب نقضة لضريح سراج، تعالت ألسنة اللهب سريعًا وكأنها تدرك خطر ما يتفوه به، وسرعان ما تعرفت قدمه وساقيه بليونة ثم ارتفعت مجددًا كأنما تخشى فقداه حتى كنفته كله.
لم تسمع كلمات الرجل الأخيرة غير أنها خلطت بصيحاته المنتحبة.
كانت الصدمة تعتلي كل وجه، حتى أن إعدام النخاس على المنصة لم يُلحظ، وكأنه لم يحدث، لا تزال عبارات المحروق تردد وكأنه يقولها بمسمع كل منهم.
أخيرًا نظرت ميثاء نظرات غاضبة إلى الشيخ الكبير قبل أن تغادر المنصة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كارم

لم يعلم كارم لماذا الآن تحديدًا أراد تذوّق طعم الدم، نزوة غريبة تجتاح أي إنسان بين الفينة والأخرى بشيء على الأرجح لم يكن ليفكر فيه، لكنها تأتي على أية حال.
شعر بعطش بالغ وبحلق جاف، الأرض الصخرية الخشنة أسفله تحتك بظهره بينما عبير البحر لا يزال يداعب أنفه.
- أيقظوهم.
سمع نبرة حادة تصيح من بعيد، شعر بجفنيه ثقيلين وبعينه قد ملأتها الرمال، طعم مالح مقزز ملأ فمه، بينما صوت معدته الخاوية يدوي داخله.
لحظة تجر أخرى لم يشعر بعدها سوى بموجة ماء باردة انهمرت عليه، أحس بها كصفعة أفاقته مما كان فيه، شهق منتفضًا، شهقة دفعته للأمام لشدتها.

سعل كثيرًا حتى احمرت عيناه، حاول التقاط أنفاسه عبر حلقه المعتل فصعب عليه الأمر، رويدًا أفرجت مسالك الهواء بعد أن زفر بعض الماء العالق بها فشعر بالحياة تسري به من جديد.
- قم يا ابن موج.
تهاوت عليه تلك اللفظة كالصاعقة، لعب معه القدر لعبته من جديد، فلو كان هروبه من قبضة بثينة ونجاته من عرض الأزرق بعد ما رأى سفينة الموت رؤيا العين الجانب اللين من صحيفة المحتوم، يبدو أن جانبها العصيب قد بدأت تلاوته وهذا أولها.
يعلم جيدًا مثله مثل أي بحار أن لفظة ابن موج لا تطلق إلا على عبيد السخرة الذين يعملون بمناجم الزيت بأرض العاصفة، يالتعاسة حظه، ليته تخشب بعرض البحر أو ليت بثينة أعدمته في الساعة التي قبضت عليه بها.
نظر إلى الحارس أمامه فرآه مشوشًا وقد غطت الرمال بصره، حاول مسح عينيه بيد مرتعشة، لكن الحارس لم يترك له مجالًا ورفعه بشدة حتى أسنده على الحائط.
خلف الحجارة رأى أمواج البحر تمسح الشاطئ بليونة، بحر العبرات كما يسميه أهل العاصفة، قالوا إن الجريح بعد حرب الأعالي الأولى بكى فملأ الهول الأسود فيما يعرف الآن بالأزرق العظيم، ودمى فملأ الأرض زرعًا وخضارًا وجرت بها الأنهار بعذب الماء توزع الخير وتنبئ بالبركات.
تركه الحارس ليرى أنه ليس الوحيد الذي جذب إلى هذا المكان؛ فقد ارتمى معه خمسة آخرون، كل لا يزال يدرك هول مصيبه، هم لا يعلمون، فبالتأكيد كل منهم ترك حياة خلفه، لكنه لا يعلم ما هو مقبل عليه، إلا أن كارم كان يعلم.
اقتادهم الحرس عبر الشاطئ وحتى السهل الرملي بأقصى غرب أرض العاصفة ثم ركوبًا حتى الجبال.
تلونت الأرض أسفلهم عدة ألون حتى استقرت على البني المشوب بياضًا، تلك البقعة من أرض العاصفة تمتاز ببرودتها الأخاذة ببقع جليدية تتطاير على الأرض هنا وهناك، بينما التلال القصيرة تعلوا وتعلوا حتى أصبحت جبالًا رواسي.
تبرز شامخة تحكي حربًا أبدية، هنا وبتلك البقعة بالذات بدأ التمرد الأول، هنا نشبت معركة التيه التي خلدها التاريخ، بينما هم يجولون بين الجبال كانت ريح الدم لا تزال طازجة فواحة، حتى هياكل الجثث المتحللة بدا كأنها حية يعلو منها نغم الانتقام.
ارتقت العربة بهم من سفح أحد الجبال تدور بهم فوق عنقه حتى دلفت أخيرًا عبر فتحة جانبية منه.
بدا الهواء مكتومًا مفعمًا بريح صدئة حادة، رائحة كبريت ربما، ورويدًا ازدادت الحرارة وشعروا بهم يهبطون ببطن الجبل حتى توقفت العربة.
فتحت الأبواب فاقتيدوا سريعًا مغمي الأعين عبر عدة ممرات ضيقة حتى توقفوا أخيرًا.
بقلب المغارة تعالا الصهيد المنبعث بسراديب الجحيم أسفلهم، هنا بالذات تكمن قوة أرض العاصفة وسر الطبع بها ألا وهي كهوف الزيت.
تفيض هذه المغارات بأرطال من حمولات الزيت الذي ينير القارة، ولن نبالغ لو قلنا إن نبراس مستعدة لفض سيطرتها كلها على أراضي النور فقط لأجل هذه البقعة.
أبصر كارم ساحة مربعة الشكل غير منتظمة نحت بالجدار بها غرفة تساع اثنين من سعداء الحظ الذي قادتهم أقدامهم إلى هنا، بينما ستار من القضبان الحديدة يفصلهم عن الساحة.

بدأ قاطنو المغارة يرمقونهم بنظرات حادة من خلف القضبان، يعلم كارم جيدًا أنه حُشر مع أسوأ القوم من حثالتهم وصعاليكهم وأنه وغيره من المستجدين مثار سخرية لهم.
المأمور يخرج من أحد الممرات المتفرعة من الساحة بصدر منفوخ وذقن حليقة ولهيب الغضب يتطاير منه.
وقفوا أمامه صفًّا تنهبهم أعين الماكثين وأبصار الحرس، وعلى رأسهم سجانهم الجديد، يتأمل كل منهم... يتفرس وجهه وكأنما يقرأ تاريخ حياته منذ اللحظة التي ولد بها وحتى مجيئه إليه.
لدى اقترابه من كارم أدرك عينه العوراء المبيضة، والتي لسبب ما كانت تنظر إليه... نعم تلك العين المنطفئة شعر بنور البصر يقطر منها كأنه حقًّا يبصر كل شيء، أبعد من جسده ومن فؤاده، ببساطة كان يراه كما يجب أن يُرى.
ثم عاد إلى مكانه قبالتهم، بصق أرضًا منظفًا حلقه، ثم تنحنح قائلًا بصوت أجش:
- مرحبًا بكم.. هنا حرس الكهوف، كل ما يهمك أن تعلمه أنك هنا لغرض واحد، تحيا به وتموت بدونه.
نظرات متجهمة على محيا كل المستجدين، عدا كارم الذي أدرك حقيقة المكان من أول خطوة به، كان يرى ويحسب كل شيء، تخطى حديث سجّانه وبدأ يتفرس الزنازين خلفه، راح يتوقع احتمالًا لكل شيء، هذا رجل ضعيف لكن قسماته توحي بلؤم بالغ.. لن يرغب مشاركته، ذاك مفتول العضلات قد تنفع صحبته إن استطاع استجلاب رضاه.
أفاق على صيحة السجان الذي قال:
- اليوم تولدون من جديد، لا يهم من كنت، من اليوم أنتم أبناء موج البحر الذي ألقاكم إلينا، إخوة بحق المالح الذي قضى بكم بهذا المكان.
كان كلامه مشوبًا بالكثير من حقن الحماسة كأنه يحاول إعطائهم أي أمل بحياة جديدة، لكن هيهات دب الحياة في قلب قد مات وعقل انطفأت ثناياه، عندما تعود الجثث إلى الحياة وعندما ترجع أشجار الزفير بشرًا فقط يمكن أن يرى أي أمل فيما هو قادم.
وزع الحرس عليهم سترات قطنية خفيفة فضفاضة نوعًا ما تسمح بمرور نسمات الهواء لبدن متشحها، دلو من الماء البارد ألقي عليهم عراة قبل أن يرتدوا ثيابهم وتأتي اللحظة التي انتظرها كارم، أين سيمكث.
من اللعين الذي سيضطر للتعامل معه شهر أو اثنين أو ربما سنين! دومًا ما تكون الأقدار أسبق.
أمسك أحد الحراس ورقة وأخذ يطالعها ناظرًا إليهم، أشار إلى أقصى يمين الصف صائحًا:
- أنت... اسمك؟
كان فتًا ضعيف البنية لين القوام برزت عظام مفاصله، لم يكن ليحتاج قص قصته فوجهه الفقير يشي بكل شيء.
بتردد قال:
- سعيد.. سعيد الرافع.
التفت إليه الحارس بعين محمرة هادرًا فيه:
- بل ابن موج! ألم تسمع السيد سميع منذ قليل؟!
- علم... ابن... ابن موج.
زفر الحارس في ضجر مشيرًا إلى الزنزانة التي انتصفت الساحة قبالتهم، قائلًا:

- هاك بيتك الجديد.
جر الفتى أقدامه ينظر خلف القضبان نحو الهول الذي ينتظره، فذلك الغول طويل الشعر أشعث الذقن ينظر إليه مستندًا إلى الحائط آخر الزنزانة يرمقه بعين ملتمعة.
دلفها سريعًا ثم فعل الحارس المثل، حتى أتى دور كارم، فأشار له إلى الزنزانة بأقصى يسار الضلع بيمين المدخل، والتي اتخذت من ركن الساحة مكانًا لها.
مشى نحوها ببطء يتأمل العجوز المتهالك الماكث فيها، رفقة العجائز طالما أتعبته، فإما هدوء قاتل يميته ببطء، وإما ثرثرة تأتي على ما بقي من صوابه.
تنهد متمنيًا أن يكون الاحتمال الأول صحيحًا، فتحت الزنزانة، من الداخل كانت بسيطة جدًّا، أبسط من غرفة حانة الباهموت التي كانت جنة بالنسبة له، هو قنوع وسيرضى، حتى لو لم يفعل الآن.
كان العجوز نظيف الوجه عكس القسمات المغبرة لأغلب العبيد هنا، نبتت ذقنه على استحياء، بينما شعره لم يزد عن عقلة إصبع، جحظت عيناه رانيًا إليه.
كانت مقلتا الرجل الحمراء هي أكثر ما أرعبه، ليس السجان وليس الكهوف؛ بل تلك العينين اللتين تنبضان شرًّا، ربما فقط لم يخالط العجائز بما يكفي فيما مضى وما يقاسيه الآن هو هول المجهول لا أكثر.
سرير عتيق يمينًا وآخر يسارًا قد ستر كلاهما بفراش كتاني خشن.
اقترب من مرقده رويدًا ثم جلس إليه بهدوء، بالخارج كان الوضع قد هدأ قليلًا، أطفأ الحرس شعلات العمل، فلم يبقَ سوى عدة شعلات أصغر من أن تضيء جحرًا فضلًا عن مغارة كبيرة، فاستتر المكان كله بالظلام ودرجات الحمرة غير المطمئنة.
سمع أصواتًا من الخارج، تمتمة... في بادئ الأمر كان المرء ليحتاج أن ينصت ويشحذ سمعه كي يسمع تلك الهمهمات، بدا الصوت خاشعًا، أخذ يتقطع لاهثًا... يبدو أنه يبكي، ارتفعت النبرة تدريجيًّا حتى سمع بوضوح:
- عساه يولد، ليخلصنا.
كان صدى صوته المتأتئ هو الوحيد الذي شقّ قدسية الصمت المطبق، لكنه أيضًا أضاف نوعًا من الأنس الغريب، وكأن أحدهم يرعاك، بينما تنام لتقر عينك.
- هو كذلك.
أتاه الصوت عن يمينه، صوت رخيم دافئ حاني.
- يصلي كل ليلة دون توقف.
لم ينبس كارم ببنت كلمة، أخذ يسترق السمع إلى صلاة الرجل أكثر فأكثر، لكنها توقفت فجأة.
حتى العجوز أماء متعجبًا، بهدوء صقيعي سمع نحيبه، قال:
- اقترب...
وعاد الصمت مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حكيم

فتحت عمارية وطارت الأخبار كالرعد عبر أرض السهل بأهلها الذين يعرفون الطرقات وسر المختصرات فلم تعد خريطة الأكمل ذات نفع كبير إلا إن حاد دليلهم كثيرًا عنها، لكن قيمتها أبدًا لم

تكن في ذات الخريطة، بل ما على ظهرها، فمن يظن أن بيانًا لأرض السهل فقط بما فيها من مدن فليست تلك الورقة له إنما لغيره من أصحاب البصيرة الذين يمكنهم قراءة ما خلف الأسطر.
وحتى مع غنى هذه الأرض بالمعادن لم تكن أبدًا هدفًا لحكيم، فأطنان الزيت المستخرج تكفيهم دخلًا، هذا إن لم يسرقها أحد، لكن ظهر تلك المخطوطة هو سر ما فيها وهو الشيء الوحيد الذي حرص حكيم على عدم إطلاع أحد عليه.
عسكر الجيش بسهل "سَمَّاد" الواقع بين هوار وكملة وجبال الشمال، اكتسب الجند هيبة وثقة لا مثيل لها بحكيم، وظهر هذا بعد الفتح المجيد الذي لم ترَق فيه قطرة دم واحدة من جيشه، فأطلقوا عليه النابغة، لقب من عدة سيكتسبها، ولو علم القادم منها لتبرأ في التو واللحظة زاهدًا عنها... أو ربما لا، فالمتعة التي أحسَّ بها أثناء مطالعته كملة وهي تسقط ببطء بين حبائل مكره لا تضاهيها أي متعة أخرى.
وقف بخيمته رفقة جهير الذي وثق به نوعًا هو الآخر، أشار حكيم للدائرة التي تمثل مدينة هوار، قائلًا:
- حسب آخر كتاب وصلنا من رحبان فهو بالفعل حرر تمرذ وفي طريقه لهوار.
متنهدًا قال جهير:
- نتابع الطريق إذًا نحوها كما خططنا.
رمق حكيم الخريطة، دق قلبه تباعًا، يعلم جيدًا ما هو آت لأجله.
- لا.
قطع عبارة حكيم تثاؤب جهير الذي انتبه له منتظرًا أن يردف، ما كان جهير ليشكك بكلام مليكه، خصوصًا بعد مشهر الخيل التي وطأت أرض كملة دون أن يُستل سيف واحد.
- هناك أمر يجب أن أنجزه أنا.
متعجبًا قال جهير:
- أهناك أهم من الفتح الذي جئنا لأجله؟!
تفهم حكيم سؤال جهير، فبالفعل إن جاؤوا هنا لفتح هذه الأرض أليس من الأولى إتمامها دون أي شيء آخر؟
- دون نقاش يا جهير، سآخذ سريتين وازحف أنت بباقي الجيش ريثما أنهي كل شيء.
لم يمتلك جهير معارضته، فقال مستسلمًا:
- أمر جلالتك.
وفي جنح الليل المظلم تركت سريتا حكيم المخيم، بينما جهير يدبر أمر الزحف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوَّاه

عمارية تصمد، لا يهم كم سنة مرت، كم دهرًا سيمر، مات ملوك وعاش آخرون وأتت اللعنة واجتاحت فما أبقت لكن عمارية تزال صامدة.
حصن أسطوري يقف فوق تلة بآخر مدق العز الذي يفضي إلى نهاية أرض السهل، أسواره سوداء صلبة لم يخترقها أي شيء من قبل حتى أن البعض ربط معقل خان الأرض بظهور اللعنة واختلفوا

أيهما أقدم، لكن الأغلب أن الحصن شهد أكثر بكثير من مجرد نائبة ابتَلي بها بنو البشر ستمر كما مر أشد منها.
حوائط الأسوار خشنة غير مستوية يتخللها ألف جحر وجحر للعقارب والأفاعي وغيرهم، اتخذت المدينة من ظهر الهضبة أرضًا لها وبرز عن آخرها قلعة الزمرد الوضاءة وبيت حكم السهل.
بكت السماء وزأرت شقائقها المتمردة، طارت المراسيل عبرها مهتاجة تزف أنباء السواد الذي أحاط بكملة وتمرذ.
جو عام من التوتر شحن الأجواء بينما الخدم والحرس والقادة لا ينقطعون عن الاجتماعات لتحديد القرار الذي يجب اتخاذه.
بمجلس القوم أمام العرش الأزرق وقف إلياس ضاربًا الطاولة الخشبية بقضبته حتى كاد يكسرها.
صاح بالمجتمعين:
- أنى لهم معرفة الطرق!
هز حضوره أفئدتهم، بقامته الطويلة صرخ هنا وهناك، كان إلياس وما زال غير راضٍ عن حكم أبيه، طالما نصحه أن لكل حي طاقة وأن أوان الصلح مع الملك سليمان إن فات فما له من رَاد.
تمتم جرير خازن الجند:
- هناك خائن.
التفت له سالم أمين الخزائن، بنبرة كسولة قال:
- حقًّا! كنت أعتقد أن وحي الجريح قد نزل على ملك العاصفة الملهم كما حدث مع جدنا!
ثم ضحك عدة ضحكات، أدرك إثرها جرير بديهية ما قال، فأسكت نفسه قبل أن يتفوه بمزيد من الحماقات.
ربما كان جرير محاربًا شرسًا، ضرغام الساحة كما كان يسمى، لكنه أبدًا لم يحب أمور العقل، شعره أسود قصير غير منتظم، بينما ندب قد اعتلى عرض رأسه.
كان الكل لا يدري حقًّا للحل سبيل، بينما هم غارقون فيما هم فيه إذ بتمتمات الخان تعلوا من خلف العرش.
- رحماك، رحماك.
صوت مرتعش شيِّخ خالطته عدة عبرات صادقة ترمق الألواح التسعة خلف العرش بفؤاد محترق.
جلس الخان بظهر عرشه كعادته الأثيرة يتأمل الألواح، تسعة أحجار بارزة بعرض الجدار الخلفي الملتف حول العرش.
كتب بأولها "وحش عاد من مكمنه" وبالثاني "قمر مكتمل" وبالثالثة "نور زائف" وبالرابعة "سيوف دمت بالسفح" وخامسها "دم الفضة" أما عن الأربعة الباقين فكتابتها مشوهة غير واضحة.
منذ عدة ليال سُمعت صرخات الخان المتضرع يقول: رأيتها!
ومنذ ذلك الحين وهو بحالته المتهالكة أمام الألواح.
إلياس يرمي بكلامه يمنة ويسرة متجاهلًا أنين العجوز الحاكم حتى استقروا على كل شيء.
- أرسل الكتب ولنرى لمن الغلبة.
ثم انقضى كل شيء، وبالأعالي ضحكات رنانة جابت الأركان.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جِلوَان

بذلك اليوم لم يذُق طعم النوم، احتضن ركبتيه، بينما عيناه بالدمع جادت على وجهه الجامد، لا يكاد يصدق الذي حدث.

أول ليلة يبيت بالمخدع دون رفيق عمره وصديق كفاحه رهوان، منذ كانا صغارًا بقرية الصيد جنوب نبراس وحتى وهبا أنفسهما لسراج لم يفترقا.

تأمل جلوان السرير بجواره خاويًا... غير مرتب، يكاد يراه لا يزال نائمًا عليه وقد شوه ترتيب الفراش الأصلي، يشخر فيعلو صوته بينما هو يجاهد نفسه لينام.

حتى ذلك السكون الغريب الذي أطل عليه لم يكن مريحًا أبدًا، على الرغم من أنه تمنى أيامًا وأيام أن تعم نسائم الهدوء قليلًا، لكنه ما إن ذاقها مرغمًا كانت كما لم يتوقع.

مريرة هي الحياة، درب طويل شقه بقدميه فأنى له الآن أن يكمله بنصف قدم وفؤاد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شمس اليوم حانية ترسل خيوطها الدافئة منسلة عبر الغمام، ربما هي الوحيدة في الأعالي التي رضت عنهم، وقف ثابتًا كالصخر يسمع صيحاته.

لا يكاد يراه من أسفل قلنسوته الذهبية، كان واقفًا بصف الرهبان مشابكًا يديه أسفل أكمام العباءة البيضاء المخملية حاله حال الباقين، راحت النار تأكل صديقه، رهوان يرتل صلوات الظل، بينما ألسنة اللهب تتعالى حتى أكلت بعضها.

يرمق جلوان صف العبيد الجدد، بينما هو لا يزال مذعورًا من هول ما حدث، هرب خيط دمع صاف بصمت على وجنته، عض أسنانه حتى كاد يحطمها، وسرعان ما هدأت صيحات صديقه تمامًا.

انصرفوا عن أطلال الفقيد المجدف الذي أنكر نعم وفضل سراج عليه، لكنه على الأقل مات وهو يعلم.

منذ عدة ليال أنبأه كبير الكهنة مبخوت أنهم قد وجدوا ورقة بها هرطقات مع رهوان، والمشكلة أنهم عندما واجهوه لم ينكر، بل زاد أنهم غافلون عن كثير من الأمور، المسكين لم يكن يعلم أن نهايته ستكون بهذه المأساوية.

حتى جلوان نفسه لم يصدق الذي حدث، مر ذلك اليوم ثقيلًا، اعتزل فيه الناس، حتى مع محاولات عديدة منهم، إلا أنه أبى دون مجالسة نفسه بمخدعه ومخدع الكافر المحروق.

رنا بعينه يمنة ويسرة بصدر ضاقت به الدنيا، مهما مُلئ هواءً شعر به قد خوى، شيء ما اتكأ عليه عشرين ربيعًا، ثم فجأة... اختفى.

لم يكن رهوان وحده من تبخّر من حياته، عديد من إخوته في حملة الشعلة اختفوا أيضًا.

نهض نافضًا الغبار عن نفسه متذكرًا عدة زيارات وجب عليه القيام بها، وسريعًا وضع على نفسه حلة داكنة صوفية فضفاضة، خرج من الدهليز المليء بالغرف الصغيرة إلى رواق أعرض تقاطعت به الطرقات والسلالم، وعلى جوانب ذاك الرواق ازدانت الحوائط بزجاج ملون مدقوق بعناية رسمت عليه ملاحم عدة، كحرب الألف عام وانتصارات الملك المُأجِّج قديمًا وغيرها.

غير أنه لم يكن رواقًا مصمتًا بالمعنى الحرفي، فقد بدا كجسر معلق سبح بتلك الحوائط الزجاجية وتقاطعات الطرق والممرات.

الحركة مضطربة بعض الشيء، رأى عديد الخدم يروحون ويجيئون من اتجاه صالة الولائم، وأثناء مروره بها سمع أطلال حديث أن أمرًا جللًا وقع هناك، لكنه لم يشغل باله وتابع طريقه خروجًا من القلعة وحتى الإسطبلات الواقعة أسفل البنايات البديعة.
جذب بغلة ذات بردعة رثة ممتطيًا إياها خارجًا من المكان، كانت الأعين تلتصق به، فمن الذي يترك القلعة بهكذا رداء؟ ظنوا به أنه أحد العبيد الذين أمسكوا مع النخاس المعدوم ربما، لكنه لم يحسب لكلامهم وزنًا.
ومن الطرقات العريضة بديعة الرائحة وحتى الأزقة الأضيق برزت حانة عتيقة عديمة الاسم، ربط بغلته أمامها ثم دلف، بالداخل كان المكان عاديًّا، لا فقيرًا ولا غنيًّا، ليس به أسباب الرفاهية القصوى كما لم يكنف دلالات القفر الشديد.
جر أقدامه ثقيلة حتى أدرك الساقي، بدا أن الرجل يعرفه مسبقًا، تنهد قائلًا:
- يبدو أن أحدكم قد حرق.
ناوله كوبًا من الماء البارد، قصعه جلوان الذي علم جيدًا أن هذا السؤال آت، فالجميع يود أن يعلم، أنى لكاهن نور ومثال للتقوى أن يخون قسمه!
قال جلوان بصوت مبحوح:
- لا نعلم، لا أحد يعلم.
كادت عيناه تدمعان، لكنه سرعان ما تدارك نفسه مخرجًا صرة صغيرة مناولًا إياها إليه، قائلًا:
- هاك دفعة هذا الشهر، أوصل له سلامي.
- رغم أنه شقي لا يستحق، لكنني سأفعل.
لم يستأذن جلوان حتى للخروج، فسريعًا أرجأ القدح إلى الطاولة عائدًا إلى بغلته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صبح جديد لم يكن بأسوأ من سابقيه، اليوم وجب عليه تسليم متعلقات رهوان كي يتم حرقها هي الأخرى، كان المفترض أن يتم حملة الشعلة هذا الأمر، إلا أن جلوان استسمح مبخوت أن يقوم بالأمر وحيدًا، فوافق بعد جدال مضنٍ.
أجلّ جلوان هذا اليوم كثيرًا حتى أتى آخر الأجل، لا تزال أفرشة السرير على حالتها بآخر مرة نهض رهوان منها، رائحته لا تزال بها، عدة أوراق فوق المكتب جلها خاوٍ.
نظر إلى ركن رهوان الخاوي فاختلج صدره، تحامل على نفسه ململمًا ملابس صديقه بينما الدمع ينهمر، كان رهوان يكره القراءة عكس أغلب الكهنة، لكنه لسبب ما بآخر أيامه كان يقرأ كثيرًا، لم يرَه جلوان يقرأ بالغرفة، لكن رهوان ذاته كان يحدثه دائمًا عما قرأ.
لو كان يعلم أن هذا الأمر سيأتي عليه بالوبال لما فعل، بدأ في تعديل الأغطية، أنَّت ألواح الأرض الخشبية إبان وطأة أقدام المكلوم عليها، ثقلت كثيرًا.. ألمًا وحزنًا وفراقًا، بينما جلوان واقف سارحًا بخيط ذكريات مضت إذ بقدمه غاصت بالأرض، لم يعلم ببادئ الأمر ما الذي حدث، لكنه سرعان ما نظر إلى موطئه، فإذا بلوح قد ارتفع من جانبه الآخر مع وقوفه عليه.
لم يعِر ذلك الأمر اهتمامًا، فرفع قدمه عنه، لكنه بتلك اللحظة سرعان رأى، أبصر شيئًا خلف اللوح، تدارك نفسه سريعًا وأعاد قدمه إلى حيث كانت، ثم جثم إلى تلك الفتحة بالأرض.
بذلك اليوم دون عهد جديد، تاريخ بلون السماء كتب على ألواح القدر، أسفل اللوح وجد كتابًا عتيقًا، بدا جلدي الأوراق ثخينًا، مد يده نحوه بقلب مرتعش حتى رفعه نافضًا عنه طبقات الغبار.

بصعوبة قرأ بسطح الكتاب "قمر وصواعق (تدوينات الأكمل لتاريخ منسي)".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوس

ربما الدنيا تبتسم له أخيرًا، حقًّا كان محقًّا عندما تمنى الحياة هنا ولو على حساب حريته، فإنه بما رآه بنبراس وتحديدًا في قبس لو ولد بقرة بتلك الأرض ونعيمها السَّحار لكان جاحدًا إن نقم.

بعد حرق المرتد اقتيدوا يومًا إلى جناح الخدم بقصر جلالتها وأعلمهم كبير الخدم سعدان أن مصيرهم سيحدد في اليوم التالي، ومما أخبرهم به أن قانون نبراس يجرب الرق بكافة أشكاله لذا هم من الآن أحرار، لكن ليس بالمعنى الحرفي.

نبراس أنقذتهم من بحر مهتاج إلى أرض فقرة، من وكرِ أفاعٍ إلى أرض العقارب، من عبودية النخاس إلى عبودية الملكة.

باليوم التالي عرف كل منهم أين سيخدم بقية عمره، اثنان منهم قيدوا بالجوالة، وثلاثة أخريات أصبحن وصيفات بالقصر، أسعدهم ذهبا إلى جيش نبراس الذهبي، أما عنه فقد قيد بمطبخ القصر.

لم يقوَ أحد منهم على التفوه بأي كلمة وقد أبرم بينهم اتفاق غير منطوق نضحت به وجوههم على رمي حياتهم القديمة إبان أعتاب المستقبل الذي تبدو عليه أمارات الحسن، لكنهم في الحقيقة لا يعلمون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت عدة أيام اعتاد فيها أوس النوم بعنبره رفقة عديد الرجال الآخرين تفعم روائح الأقدام والعرق المكان، بينما الأبواب والنوافذ موصدة بإحكام، شرط عليهم ذلك لئلا يهرب أي منهم بجنح الليل والناس نيام.

حياة لم تكن السيئة له على كل الأحوال، طلعت شمس اليوم مزدانة ترسم لوحة الشروق بهية على أركنها، بينما يمر سعدان بين الأسرّة يصيح بهم: استيقظوا!

تأفف معتدلًا ببطء بين الأغطية الكتانية الخفيفة التي انسلت عليه، بالمرر المناب بين النائمين علا أنين متثائب، كل منهم يرنو إلى ما هو قادم بعين مفتوحة وأخرى تتسول عدة ساعات أخرى من النوم.

اليوم تحديدًا كان مهمًّا جدًّا بالنسبة لأوس، فحسب الترتيبات التي ظل يعدها برفقة الطباخين فهناك وليمة لا بد آتية.

الطريق من سكنى الخدم وحتى المطبخ دائم الحيوية، يوميًّا يمر ببستان مخضر ببهي الأزهار والأعشاب قبل أن يدلف من برج القليعة الشرقية ومن بين عدة دهاليز جلها مزين ببسط مخملية ولوحات تقص آلاف الملاحم حتى ينتهي به الأمر أخيرًا لهذا المكان.

عدة طاولات خشبية وأضواء خافتة تبث لونها على استحياء، لم يكن المطبخ واسعًا بالمعنى الذي توحيه كلمة "مطبخ القصر" لكنه كان يفي بالغرض، تنور بمنتصف الجدار المقابل للباب وعدة شعلات بجواره، وعلى الحوائط الأخرى علقت السكاكين والشيفرات وأدوات الطهي وعديد من التوابل وغيرها من اللوازم.

صحيح أنه بدأ يعتاد العمل هنا، لكنها لم تكن بالفترة الكافية ليتعرف كثيرًا على زملائه، فقط كان على علم بكبير الطباخين أوَّاق الذي كما يوحي اسمه غريب عن نبراس، وهو في الأغلب من أراضي

العاصفة.
كان بنيّ البشرة قوي البدن، كلهم هنا حليقي الشعر كما تنص قواعد النظافة لئلا تسقط شعرة أحدهم في أطباق السادة.
وقف أواق أمامهم قائلًا:
- اليوم يوم مهم يا رجال، جلالتها ستتناول غداءها مع كبير الكهنة وعديد من حملة الشعلة.
حك ذقنه المحمرة حديثة الحلاقة متبعًا:
- ساعد تولى أنت الأطباق الجانبية، نظام ورحيب رتبا أمر النبيذ المتبل وغيرها من المشروب، أنا وأوس سنتولى أمر الأطباق الرئيسية.
ربما أكثر شيء أعجب به أوس في أواق أنه لا يحب الكلام الزائد، كالعادة يوزع مهام اليوم ليبدأ كل منهم إنجازها دون أحاديث جانبية وثرثرة لا داعي لها.
اتجه أوس إلى أوصال اللحم المعلقة بشق التخزين قبل أن ينهره أواق قائلًا:
- لا.
تعجب كثيرًا من طلبه، ألم يقل إن الملكة تود أن تولم على شرف الكهنة الحاضرين اليوم!
تدارك أواق نفسه قائلًا:
- لن نطبخ من هذا اللحم.... سآتي لنا بأجود منه.
ثم خرج من ليعود مجددًا بعد أن انتهى أوس من جميع التحضيرات المطلوبة، وضع صندوقًا خشبيًّا على الأرض فاتحًا إياه.
كان اللحم طازجًا ذا رائحة قوية، يعلم جيدًا أوس مدى جودة اللحم من النظر إليه، فخمن أن هذا لحم أيل أو غزال بري، ولربما كان من الصعب طهيه لنكهته القوية التي تطغى على طعمه، لكن أواق كان وما زال أمهر طاهٍ في البقاع.
أخرج أوس اللحم إلى المنضدة، بينما سيده يقطع بعضه ويبقي آخر، لربما تعجب بعض الشيء لخلو اللحم من أي عظام، إلا أنه هذا أمر وارد خصوصًا في طعام سينال شرف تناول الملكة له.
صنعا سوية مرقة وخبزًا باللحم مع بعض اليخنة الفاخرة والجبن المعتق، وزيّن آخر الأطباق بأضلاع بقرية شويت بهدوء.
أحب أواق دائمًا التفاخر بعمله، مسح العرق من جبينه مناولًا أوس ضلعًا مشويًّا، قائلًا ببشاشة:
- ذق.
أخذه منه لتداعب الريح الزكية أنفه مسيلة لعابه شوايا بفم ينادي طمعًا في هذا النصيب، فلو كان ذلك آخر ما سيتناوله فوحق السماء بما فيها من نجوم لأكله راضيًا قنوعًا.
تلألأت أوصال اللحم يقطر الدهن منها مهتزة إثر حركة يده الخفيفة حتى كاد يسقط عن عظمه، لم يستطع تأمله أكثر من ذلك فقضم منه، ذاب... تبخر في فمه كخبر مبتل، تمنى لحظة أنه لم يذقه، فأنى له أن يطعم القمامة التي يتناولها بعدما ذاق حلاوة الجنة ونعيمها الصافي!
إبان نظراته البلهاء وعينه الدامعة التي أبت دون البكاء لهذا الطعم الأخاذ ضحك أواق حتى آلمته بطنه:
- يبدو أنه أعجبك.
حتى لسانه لم يقوَ على الكلام في تلك اللحظة، لكنه على كلٍّ تابع تأمله في صمت، ثم قال:
- وحق الجري... أعني سراج، لم أطعم مثله من قبل، أخبرني.. كيف فعلتها؟

التفت أواق عنه متابعًا عمله مغمغمًا:
- على ظهر الأزرق العظيم تتعلم الكثير.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
حلّت الساعة، كلهم كالنحر يتحركون بسرعة البرق، ينادي أواق فيهم بالتجهيزات ليتأكد من صحتها:
- لحم الضأن؟
- جاهز.
- النبيذ المتبل؟
مترددًا قال نظام:
- لم نجد بالمخازن إلا القليل.
احمر وجه أواق غضبًا، اقترب منه محاولًا تمالك نفسه، قائلًا:
- وماذا يوجد إذًا؟
أشاح نظام نظره مرتعدًا إلى الأرض حتى انكمش على نفسه قائلًا بصوت خافت:
- لا يوجد سوى.. بعض الجعة.
انفرجت عينا أواق على آخرهما، تناول صحنًا فخاريًّا كان بجانبه ثم رماه مهشمه أرضًا.
- عسى أن يأتيك الزفير، تريد أن أضع جعة على مائدة جلالتها؟!
تقدم رحيب منهما، قائلًا:
- لا تقلق، سأتدبر الأمر.
- ولمَ لم تفعل يا ابن الغانية؟ أخبرني لمَ؟
أمسك أواق برأسه زافرًا في غضب بالغ، لم يبقَ كثير من الوقت على الوليمة، فقرر أن يؤجل التوبيخ لوقت آخر، كظم غيظه مدبرًا إياهم، قائلًا:
- اذهبا إلى الحانات، الخانات، المواخير، لا يهم، أريد كل شيء قبل أن أحرقكما بنفسي.
انطلقا يتخبطان بعضهما البعض حتى خارج القصر.
أوس قد بدأ في ترتيب الطعام بصالة الضيافة كما صممها أواق، بالطبع فقد رتب كل شيء، بين كل طبق لحم طبق يخنة وطبق جبن أو خبز الثوم، أمام كل كرسيين من الخمسين إبريقين واحد للماء وآخر للنبيذ.
استطالت المائدة بطول القاعة الذهبية، بينما الجدران المزدانة بالزجاج المطروق تنير القناديل من خلفه مطلة عليهم.
تدلف الأطباق واحدة تلو الأخرى ولا وقت للتفكير، أشار لكل منهم أين يضع ما بيده وكيف يضعه.
أخيرًا انتهى كل شيء، الأطعمة من كل مأكول تزين مائدة الملكة، الحرس يحاوطون أطراف الصالة بعباءاتهم الذهبية منهم من اتشح اللامع منها وهم حرس الجلالة، ومنهم المنطفئ وهم حرس النار، وكانوا الأقل.
سادة البلاد يدخلون الواحد تلو الآخر بين كل منهم كاهن أو اثنين وعلى عكس زِي الكهنة الأبيض الكامل كانت قلنسوة كل منهم ذهبية براقة كحرس الجلالة وأولئك هم حملة الشعلة.
كان من واجب أواق وأوس التواجد بالقاعة حتى انتهاء الوليمة كما هو متعارف عليه، فمنذ سُمم الملك المأجج قديما نُصَّ أن يحضر الطاهي ومساعده الوليمة إلى آخرها.

أخيرًا رنت الأعين نحو الباب، ارتعشت عدة أفئدة، بعضها كرهًا ومقتًا، والآخر كرهًا واشمئزازًا، بجثته البدينة ووجهه المترهل وطأت قدم مبخوت الصالة.
أسفل جفنيه المتدليين أخذ يتأمل المكان هنيهة قبل أن يجر قدميه مستندًا لصولجانه اللامع حتى بلغ أقصى كرسي يسارًا.
لربما شعر أوس بانزعاج في عينيه، وكأن كل شيء هنا يتنافس أيها أشد ذهبية وأيها ألمع!
كل شيء هنا نفيس، حتى تطعيمات الخشب بالأركان بسهولة أدرك تلك الأخشاب السوداء، نعم كانت مطعمة بأخشاب الزفير، أحدهم مات ليقطع جذعًا أو اثنين ليزن قاعة جلالتها.
قطع تفكيره صوت البوق الذي أسكت الغمغمات معلنًا وصول الملكة.
تهادت على السلم بآخر القاعة، حتى الدرجات أسفل وطأتها تأوهت فرحًا، لا تزال ميثاء على عادتها لا تحب الذهبي والأبيض المسيطر على كل شيء، ارتدت فستانًا أحمر زاهيًا، فبرزت به عن كل شيء حولها.
رنا إليها أوس، لو كان طعم ضلع اللحم الذي طعمه متعة فرؤيتها هي الانتشاء، كأس لا يشرب المرء منه حد الارتواء وإنما يزدره للثمالة.
أرجأت الوصيفات الكرسي حتى نزلت به، بوجهها الحسن نظرت إليهم قائلة:
- الفترة الماضية كانت عصيبة، لذا قررت أن أجتمع بكم علّنا نخفف عبء ما مضى.
وأشارت فبدؤوا، راحت الأيادي تنهش الطعام بنهم، بينما هي اكتفت ببعض خبز الثوم والنبيذ المعتق الذي نجح نظام ورحيب أن يدبراه بآخر اللحظات.
رمق أواق المائدة بفخر نافخًا صدره، تخلى السادة عن أنفتهم الزائفة متناولين طعامهم كالجوعى المشردين بنهم.
ثم انتهى كل شيء، صبت الكؤوس ولم يبقَ سوى وقت النخب، أمسكت ميثاء بكأسها، وقبل أن ترفعه قالت:
- من كان يتخيل يا سادة ما حدث!
التفتت إلى مبخوت قائلة:
- أخبرني.. ما الذي يميز حملة الشعلة عن غيرهم؟
تسلل صوته مرهقًا بين شفتيه الشيِّخة، قائلًا:
- هم أقوى إيمانًا وأصلب عند النوائب وأمضى في اجتياز الفتن.
أماءت ميثاء إيجابًا، تنهدت راشفة بعضًا من رحيق الكأس القاني، ثم رفعته، قائلة:
- نخب عديل وزمرته.
تجلت الدهشة واضحة على الجميع، ارتسمت ابتسامة حادة على محيا ميثاء التي غمغمت بأذن مبخوت:
- أظننت أنني لن أعلم؟
ثم تعالت ضحكاتها، وقفت عن مكانها قائلة:
- إياكم والظن أن المحروق كان آخر من خان، يبدو ولاء عديد من حملة الشعلة أصبح محل شك.
- إنهم أولى...
قاطعته ميثاء بصرامة، قائلة:

- لولا أني خشيت هز ثقة بني شعبي بعقيدة النور لحرقت الزنديق الآخر ومن معه، وتعلم جيدًا ما أعني.
صاحت نحو السادة:
- المدعو عديل هو الآخر من حملة الشعلة سُمع مهرطقًا بعدة كلمات رفقة بعض رجاله، لم أكن لأحرق أكثر من ذلك أمام الناس، لكنهم نالوا جزاءهم تمامًا مثلكم.
رفعت كأسها مجددًا بهدوء، قائلة:
- آمل أن تكونوا قد استمتعتم بهم.
لم يحتج الأمر لتفسير آخر، ترامت صور اللحم الدامي أمام عين أوس، كيف قطع أواق وكيف طهاه بعناية، اختلط كل شيء لديه فلم يعلم ما ذاقه ممن لم يذقه.
تأمل كل منهم الصحن أمامه، وسرعان ما أدرك حملة الشعلة الأوصال النعامة الطرية أمامهم، فلم يكن منهم إلا أن بدأ الجمع في الاستفراغ، ولم يكن أوس أفضل منهم حالًا.
لم يكتفِ مبخوت سوى برشف بعض النبيذ مبتسمًا لتلمع منه سنه الذهبية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كارم

قبل ألف ألف عام ولد بالأعالي فاهتزت أركان السماء، تكونت الأحقاد له قبل أن يتجلى وتخمر كرهه بقلوب الكثيرين.
- على لسان سامر ابن لؤلؤة.
تمر الأيام... تمضي كالرياح التي نسوا أنفاسها، أو كنور الشمس الذي لم يطعموه منذ استقروا ببطن الكهف.
ود لو يصف يومه بالاستيقاظ باكرًا ثم بدء العمل، لكن حقيقة الأمر أنه لا يعلم للوقت سبيل، صباح أم مساء، برد أو حر، كل ذلك ما كان ليشكل أي فارق.
لا يزال العجوز القابع معه بالغرفة متقلب الحال، أيام يثرثر وأخرى ينسى طرق الكلام.
بين طبقي الظل يعلو لظى الأرض، يربط كارم قميصه الكتاني على خصره ليلتمع صدره العاري عرقًا، بينما دقات معوله على الجدران لا تتوقف، الزيت المستخرج من الكهوف نوع معين يُدعى بالزيت الصخري أو خام الحص كما يطلق عليه العمال القدامى، صخور لينة أقرب متفاوتة الكثافة تميل إلى الزرقة تناثرت بين طبقات الحصى والصخر.
يدق ليرن الصدى بطول الممر الذي كلف به، لم يكن به وحيدًا، فقد وقف بعيدًا عنه مفتول العضلات الذي فضل بادئ الأمر زنزانته، لكنه ربما عدل عن ذلك.
دقة أخرى... تتساقط عدة صخور لتنساب من بينها تربة مزرقة راح يجمعها بسلته مع باقي ما جمعه.
بآخر اليوم يجرون ما جمعوه حتى الحرس بقلب الساحة ليزِن حصيلة كل منهم، بأول الصف كان المجنون الذي رتل ليلًا ومساءً صلوات لا أصل لها في علمَه، بسلّة خاوية مثل أمام السجان سميع الذي احمرت وجنتاه وانتفخت عروق جبينه.
نظر إلى المجنون بعين نصف مفتوحة، ولم ينطق سوى جملة واحدة:
- خذوه للسراديب.

سرت بالجمع غمغمة سرعان ما قطعتها صيحات الحرس الزاجرة، سرعان ما أتى دوره ليمثل أمام سميع مسلمًا إياه غلة اليوم.
رمقه بنظرة بين الشك والإعجاب، فعلى الرغم من كونه مستجدًا إلا أنه يستخرج كميات كبيرة تناطح معدل القدامى بالمكان.
كان قد وعد أعلاهم منتوجًا سيكرم بنور الشمس بآخر الشهر، لكن أنى لهم أن يحصوا للشهر من عدد! فإذا هم ببطن الأرض لا يعلمون عن سطحها شيئًا، فكيف يدركون عدة الأيام ومواقيتها؟!
لكن الطامعين بالحرية لم ولن ينسوا طعم خيوط النور الذهبية، ربما غفل أو تغافل من أمضوا دهورًا هنا عن هكذا أمر كون اعتادوا الذل وألفوا المهانة، إلا أنه لن يفعل.
مرت ساعات ما اعتقده ليلًا، ساعة تجر أختها بطيئة مملة ونور الشموع الخافت بحياء يجاهد حتى وصلت بعض أطلاله إليه، قرر العجوز الليلة أن يصمت، غدًا يؤخذ المجنون إلى السراديب وقد لا يروه مجددًا، اتكأ كارم إلى الجدار الصخري ينصت لصوته العذب، توقّع أن يسمعه يبكي أو ينتحب ككل ليلة، لكنه استمع إلى صوت عذب، وكأن الرجل قد صغر عشرة، بل عشرين عامًا، صوت كالشهد الصافي بطبقات منسابة أنعم من الحرير ذات مقامات منضبة وعرب أخاذة.
- ودون القمر تختفي السماء... سيولد حتمًا فضي الدماء.
كل كلمة قالها -وإن لم تُفهم- تسللت إلى أفئدتهم، ربما السر بصدقه وقلبه النقي، أم أن ألعوبة جديدة بالأعالي كتبت بألواح القدر!
سأل كارم العجوز قبل انسدال أستر الظلام عن ماهية السراديب، فشرد الرجل هنيهة، ودون أن يلتفت إليه قال:
- الطين الذي نستخرجه من هنا هو زيت من الدرجة الثانية، يتم ضغطه وتصفيته حتى يصبح زيتًا صالحًا، لكن مع الهبوط أكثر إلى القاع يصفى الزيت أكثر ويسال حتى يصبح بين ثنايا الصخور على شكل العسل.
منتبهًا لكلمات العجوز أماء كارم قائلًا:
- لكن بالطبع لن يقوى أحد على استخراجه.
انطلقت ضحكة خفيفة ساخرة من الكهل الأبهر مغمغمًا:
- بل هناك.
التقط نفسًا طويلًا، ثم قال:
- غدًا يهبط المجنون رفقة سلة معدنية حتى السراديب بالمناجم العتيقة حيث زيت العسل كما نسميه، ولن يخرج دون ملء السلة.
بذات الوقت ولدى تذكر كارم كلمات العجوز تأمله جالسًا على فراشه ليس كما اعتاد، فحتى وهو منهك متعب لم ينكمش إلى ركن الحائط بآخر السرير بينما يضم ركبته تلتمع عينه من خلفها، وإن كانت الأضواء خافته لم يستطع كارم أن يهمل يده المرتعشة.
توقف ترتيل المجنون، ربما حانت ساعته، لكنها لحظات حتى عاد بصوت مرتعش:
- اقترب.
ابتسامة تلتها ضحكات خافتة فأعلى حتى هزت قهقهته الأركان، بصوت عال لم يمت بصلة أبدًا للأثير الرنان الذي كان يترنم آنفًا، صاح:
- تسع وتسعون حجر وبالألف يكتمل القمر.

لم تمر دقائق حتى أنّت مفاصل زنزانته وارتفع صوت السلاسل تربط على ساعديه بينما هو يقاوم، ربما المرة الأخيرة لكنه التزم بها.
وعلى الجانب الآخر من زنزانة كارم تسللت الهمسات تحمل أنباء السوء وشيء من أمل قليل.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
باليوم التالي كانت الحركة ساكنة بعض الشيء، حتى النقارات التي كانت تحدث بين الفينة والأخرى ما عاد لها مكان بين الحزن المسيطر، ربما لم تربط أيًّا منهم علاقة بالمجنون، لكنه قبل كل شيء كان أخاهم، فكلمة (موج) التي تذيلت اسم كل منهم لتميز الذين قذفهم بحر العبرات إلى هنا جعلتهم عائلة لا تربطها صلة دم ولا حتى إخوة قسم، وإنما ملح الماء الأجاج الذي أسرى بهم لأراضٍ جديدة.
اقترب منه مفتول العضلات يرمي نظرة تلو الأخرى، عمل كارم كتاجر علمه جيدًا كنه الإيماءات ومواطن المعاني الخفية، لذا قطع عليه مسافات طويلة قائلًا:
- ماذا تريد؟
مترددًا رد عليه:
- ومن قال إنني أريد منك شيئًا!
- لست وليد الأمس يا رجل، وكلنا هنا ببطن الظل، فلا حاجة لتكليف أو تمهيد، اليوم هنا وغدًا بالسراديب، ولا شيء بعيد عن يد التسعة.
انطبعت علامات تعجب على محيا الرجل ردها كارم قائلًا:
- نعم نسيت أنكم هنا تقدسون... ماذا كان اسمه؟
- الجريح.
- آه نعم الجريح، أدلِ بدلوك.
- يود الزعيم رؤيتك.
تنهد كارم، لم يعلم أي زعيم يقصد، بالطبع لا يقصد سجانهم، لكنه رجل ذو فراسة ونظر بعيد، تظاهر بعدم الاكتراث، قائلًا:
- بالطبع ولمَ لا! لكن يجب أن نرتب موعدًا... تعلم المشاغل هنا لا تنتهي.
أدبره المفتول وبصوت ملأ صداه الممر، قال:
- لا تقلق، سيصل إليك.
تمتم كارم متعجبًا:
- وإن كان ذلك لمَ يتعب نفسه بإعلامي؟
ثم نفض يديه متابعًا عمله.
انتهت ساعات العمل التي أصبحت روتينية، ينسى المرء فيها جسده ليتولى عقله اللاواعي دفة القيادة سارحًا هو بألف بحر وبحر، قبل تسليم الغلة تأتي ساعات من الراحة ينعم بها كل من يملأ سلته قبل التسليم.
متكئًا إلى باب زنزانته وقف كارم يتفرس الماثلين، بعضهم يضرب بعضًا، آخرون يتقامرون على غلة اليوم التالي وقليل وقفوا مثله يملون.
- لا تبدو مستجدًا على الإطلاق.
خلفه من باب زنزانته المفتوح أتاه الصوت، رفيع مرتعش لم يسمعه من قبل، حتى بين السجناء هنا لم يبدُ مألوفًا.

- كنت أنتظرك.
قالها كارم ثم التفت إلى حيث سرير العجوز الذي لم يكن عليه الآن، فمثله لا يستطيعون ملء سلالهم أبدًا، جلس فوق الفراش رجل نحيف طويل الوجه، بعينيه الحادتين قال:
- ألم أقل لك إنك لست مستجدًا.
- أسمع ذلك كثيرًا.
ثم جلس كارم إلى فراشه قبالته، قال الرجل النحيف:
- عجيب أنت، ما قصتك يا هذا؟
- لست بناكح أختك لتسألني هكذا سؤال، أخبروني أن لديك مطلب عندي.
مال كارم ناحيته قائلًا:
- كلي آذان صاغية.
قهقه الزعيم بضحكات رنانة دمعت لها عيناه:
- تعجبني حقًّا، حسنا يا ابن موج، أنا راغب، لو تعلم ماذا كنت قبل أن آت إلى هنا لما تفوهت بكلامك هذا.
كان لوقع اسمه على أذنه شيء من الألفة، شعر أنه ربما سمع هذا الاسم من قبل.
- أكنت قاطع طريق في الشمال؟
- عجيب، أسيرتي وصلت لخلف الأزرق؟!
تنهد كارم متذكرًا كثيرًا من حياته السابقة، ثم غمغم:
- كان لديك غليون خشبي عليه نحت كروم عنب؟
بدت أمارات التعجب على محيا راغب الذي اكتفى بالصمت دليلًا له، أتبع كارم:
- ابتعته من أحدهم وقد حكي لي سيرتك.. هذا طبعًا قبل أن ينتهي بي الأمر إلى هنا.
- كل منا له حياته السابقة، لكني هنا اليوم لنعود إليها، أو تبدأ صفحة جديدة، القرار لك.
سرق راغب اهتمامه، اتسعت عيناه الملتمعة منصتًا بعناية، أردف قائلًا:
- سنهرب من هنا، كل ما نحتاجه هو مستجد مثلك، وحبذا إذا كان ذو عقل وحنكة مثلك، فلو أن للدور الذي رسمته بخطتي للمستجد اسمًا لكان اسمك.
أشار للطرق المتشعبة بين الجدران، قائلًا:
- بإحدى تلك الطرق يوجد ممر ضيق يصعد للسطح، لسنا ندري إذا كان السطح آمنًا، نود فقط أن تذهب وتتأكد من أمان السطح قبل أن نطبّق خطتنا.
- ولمَ لا تفعلون أنتم هذا؟
- أولًا لأن الممر يمر بغرفة السجان، والذي يعلم جيدًا علمنا بذلك الممر، أما أنت فمستجد، إذا رآك لن يأتيك أي أذى، وثانيًا من الممكن أن ينتهي الممر بمعسكر للجند أو بمكان قفر لا نجد منه مفرًّا فنكون هربنا من موت بعد حين إلى موت الساعة.
لم يجد كارم بدًّا من القبول، فكر قليلًا، ثم قال:
- لك ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حكيم

سريتان كانتا معه مع مغادرته المعسكر، لا يعلم إن كان رهانه الذي اتخذه كان تعجلًا منه، لكنه بالتأكيد لا يقع بحكم الكياسة في شيء.
جروا الأرض شمالًا حيث بدأت بطن الأرض البيضاء تترامى فوق الأدفاء الزفيرية، بينما الرياح تعوي بهم.
اقترع رجال الكشافة بالمقدمة محددين أجوارهم أثناء الزحف، وعلى كل لم يخسروا الكثير، فمع مضي الوقت كان حاميته قد خبروا بعض علم الأرض ومواطن أمنها ومكرها ومكمن الآفات منها، وإن كان خفيًّا.
وحده حكيم يعلم أين يتجه، ولو لم يرَه الجند بصورة القائد الملهم بعد فتح كملة لتمكن منهم الوجل الذي لم يجد لقلوبهم سبيلًا إيمانًا به، لكنه هو نفسه كان مرتاعًا، ربما لم يبدِ ذلك، لكنه هنا وحيد، بلا ساعد أيمن يعاونه، بلا مستشار يقوم زلاته ويواريها.
بخيمته في ليلة لم يعلم لها عددًا كانوا قبالة سفح جبل يُكنى بالسماع، قيل إن آبق الذي انحنت له أمم القارة جمعاء مر به وبكى عنده، دلف إلى جوف مغارته ولم يخرج سوى بعد سبع ليال كاملة قيل إنه تطهر من ذنبه فيها.
السحف ناعم بألوان باهية بين بياض الثلج وخضرة العشب الطازج، بين نور القمر الذي خاطب المتغزل بصفحة السماء.
تمر نسائم الهواء خلف الجبل الذي أكل العويل منها لتصل فقط بعد ألسنتها النعامة الباردة تضفي نوعًا من الطمأنينة عليهم.
عشب الأرض عالٍ يكاد يبلغ ببعض بقاعه النصف ساق، تسللت رعشات بين الأحراش... أنفاس باردة تجلت، تجمد الهواء.. لم يعلموا أيًّا كان ما سيلم بهم لكنه صائر، سريعًا سمعت صرخة بطرف السرية الأولى... لم تكن مجرد صرخة مستغيث، وإنما كانت أنفاس العذاب.
طرقعة عظام تعالت، أنين مكتوم انتهى بعد لحظات، لم يستوعب الجند ما حدث، بعضهم حتى شك أن شيئًا لم يكن، وربما هو تأثير قلة النوم وتوتر الموت المحيط بهم لا أكثر.
لفحة هواء مرت بين العشب، أكانت هواءً حقًّا، حكيم هائم في سحر السماء التي غامت، غشت القمر فرش الغمام، توقف كل شيء، بطرف السرية قفز شيء ما خارج الأحراش نحو السفح.
تجمد الجند، صرخوا مستغيثين، وكيف لا، حتى الكشافة الذين تخلوا عن حياتهم هرعوا هنا وهناك، جرى نحوهم على أربع، بوجه شديد الطول ولحية سوداء مدببة وأنياب لامعة اتجه نحوهم.
التمعت مخالبه المعدنية، بينما برزت فقرات ظهره العاري إبان انقضاضه على أحد الجنود، لم يقاوم، بل رمى، لم يدرِ أنه في موقفه هذا، وكأن الوقت تجمد عنده قبل ظهور الوحش الفتّاك.
نهض حكيم من مكانه بعين ملتمعة، ابتسامة عريضة ارتسمت على وجهه، وبدلًا من الخوف والذعر بدت أمارات الحمد والارتياح على وجهه.
أخرج اللفافة الجلدية من جيبه، لم يكد يصدق ما يراه، قبَّل اللفافة عدة مرات، بينما الجند بعضهم يعدوا طلبًا للنجدة، والبعض الآخر ينظر إليه في تعجب.
تمالك نفسه صائحًا:
- نحوي يا رجال، إليّ به!
تراجعوا كل نحوه، بعضهم لم يسمعه راكضًا نحو الأدغال مفضلين موت اللعنة على الموت ممزقين بين أنياب الضاري.

برز له حكيم فالتفت له، غمغم:
- تعال أيها اللاخذ.
ظن سكان السهل وأراضي النور أن اللواخذ قد انقرضت منذ هبوط الزفير، لكن تدوينات الأكمل بظهر اللفافة قالت غير ذلك.
استلّ سيفه وسكن مكانه، كانت معركة الخاسر فيها أول من يكسر قدس الصمت، انقض عليه اللاخذ ملوحًا بمخلبه في الهواء ليتفاداه حكيم بسهولة، ضربة تلو أخرى وحكيم يحلل طريقة تحركه، لم يرد أن يضيع فرصة نادرة كهذه، لذا ظل يماطله أكثر وقت ممكن حتى تجنبه للمرة الأخيرة لينكشف ظهره له.
هوى عليه فطعنه طعنة نجلاء لم ينزف لجرح ظهره دم، شعر بالسيف يقاسي بين شائق لحمه الجاف، لكن حركته في النهاية سكنت.
عم صمت ينظر الجند له فيه، إعجاب وتقدير، ربما، لكن الأمر كان أكثر من ذلك.
- قتلت صديقي!
قالها أحد الجند مسرعًا نحو جثة اللاخذ ليعترضه حكيم بسرعة هادرًا به:
- إياك أن تُثَنِّي طعنة للاخذ.
توقف الجندي بمكانه، رفع حكيم رأسه قائلًا:
- ربما نرى مثله يا رجال، يجب أن تعلموا جيدًا إذا وجدتم جثة هامدة لهم فلا تمسوها واكتفوا بجلبها معنا، وإذا قاتلتم أحدهم طعنة واحدة تكفي، وإياكم أن تثنوها.
وانفضّوا كل حيث كان بنفس كل منهم ندب لم ولن يلتئم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثلاثة أيام أخرى مرت، مثل حكيم أمام باب المغارة المسماة بظهر اللفافة.
كانت مقدمة الأرض منصة صخرية أطلت على ساحة مستديرة ببطن الجبل يتسلل إليها نور القمر بين شقائق الصخور، جثا على ركبتيه في غير تصديق.
آلاف الجثث تكومت فوق بعضها البعض، دمعت عيناه وألفى ما بيده قائلًا:
- اللعنة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جهير

جثم الضباب عليهم فما من مخرج، كل شيء اختفى، الماء والهواء والزرع وحتى الحصى وبقايا الجثث التي اعتادوا رؤيتها على مدار تسعة أيام كاملة، أطبقت جدران الوادي عليهم ومع كل ساعة تمر شعر ومن معه بها تقترب أكثر.
سيوف لا تجد من يستخدمها وأفئدة قتلها الذعر ولعب بها الهوان، مات حامل الراية الأول والثاني وقائد الجيش أكثم، ولم يكتفِ القدر بذلك فحسب؛ بل زاد عليهم بمدد أجاء المتردين فحاصروهم بقلب الوادي.
تجلت ملامح قيادة جهير منذ ذلك اليوم، أكلوا باقي الخبز العفن، ثم الأفاعي والعقارب، ضاقت بهم الدنيا فاقترعوا كل يوم على من سيأكلونه ليسدوا جوع بعضهم.

قل عددهم حتى صاروا خمسين رجلًا، والغريب أن المتردين لا يزالون في أثرهم رغم كل ما أحاط بهم، جمع جهير خبث الأرض من عقارب وأفاعي وسام الحشرات وغطى أثرهم بحفر قعرها كل مميت.
ولم تمر عدة أيام حتى يئس المتمردون منهم ورأوا في تركهم نفعًا أكثر من خسارة الرجال التي أحاطت بهم، لم ينتظر جهير ورجاله كثيرًا، فخرجوا من الوادي حيث كان باقي ساراي الآثمين لكنهم رحلوا.
شهق... انتفض من مرقده، كان كابوسًا، تلك الأيام ما زالت تطارده، رغم أنها أول سطور صفحات مجده، إلا أنها كانت ولا زالت ترعبه.
تذكر كيف نجى برجاله وكيف عاد ليأخذ بثأر قائده بعد ما عرف مدقات الأرض ومجاريها، ومن ساعتها أدرك مفتاح الفوز بأي معركة، ليس العدد ولا قوة الرجال ولا حتى بركة الجريح؛ هو العقل والتدبير، خاصة إن كان في أرض غيره.
غرور أكثم ماضيًا تسبب بموت ألوف مؤلفة، ورغم قلة العدد الذي صحب جهير لدى أخذ ثأره تبسّمت الأقدار له.
نهض بصدره العاري يرتدي درعه السفلية التي لا يخلعها حتى أثناء نومه، خرج سريعًا من خيمة القيادة، فلم يجد سوى جلة سهرت تتسامر حول النار المساء.
- ثامر!
أتاه الشاب نحيل الوجه يعرج بمشية أثارت سخرية الجالسين.
- أمرك يا سيدي.
- أتلُ عليَّ نبأ الكشافة الأخير.
تلعثم الفتى بكلماته، التفت مرتعشًا نحو تبّة برزت من بعيد قائلًا:
- حصن هوار يا سيدي كما تعلم ثاني أكبر حصن بالسهل، وهو محاط بتبتين عاليتين يمنة ويسرة.
- أخبرني شيئًا لا أعرفه.
- آآآ... التف الجنود حول التبة اليسرى وعسكروا هناك فلم يجدوا ما يثير الشكوك.
تركه جهير متجهًا إلى طرف المخيم، برد الليلة يداعب صدره الذي قاسى ما هو أشد، غارت عليه ندوب وندوب وفي الحقيقة زمهرير الليلة كان بمثابة بعض الهواء المنعش لا أكثر.
وقف إلى المنحدر المعشوشب تتلألأ به حبات الندى وعبير القمر يثمل الأجواء.
الحصن من بعيد يعلم من فيهم بأمرهم هذا مؤكد، فما حدث مع كملة وتمرذ لن يتكرر وهو متأكد من ذلك، لكنه رأى أنه عدتهم أقوى.
جدران الحصن هي أجدد أسوار بالسهل كله قد بنيت بأمر من سلطانة نبراس نفسها حفاظًا عليها أو على ما بها إن صحَّ التعبير.
حتى عرش هوار على الزمن كان تكريمًا لمن يعتليه، ترقد هذه المدينة على حقول من الذهب ونفيس المعادن -كما يقال- وربما ما هو أكثر، لكن جهير قرأ بين سطور حديث حكيم عدم اكتراث لما بالمدينة، فإن كان يفعل لمَ تركهم بهكذا وقت؟!
اهتزت بعض نفوس الرجال إبان علمهم بمغادرة حكيم لهم، لكن وجود جهير طمأن الكثير.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صباح مفعم ذهبي كدروع الصف الأول من جيش العاصفة الذي نهب الأرض نهبًا حتى رسا قبيل السهل الواسع، لم يدرِ أحد لماذا تتوقف الأشجار دومًا قبل تلك المدن، لكن الحقيقة التي ينساها الكثيرون أن المدن نفسها بنيت بالفرجات الواسعة بين الأدغال، اعتلى جهير صهوة جواده وسيفه العريض متعلق بظهره، ستُراق دماء كثيرة اليوم لا محالة، فما حدث بكملة هو من ضرب النوادر التي تحكى بكتب التاريخ ولم تكن أبدًا لتُطَبَّع فطبع البشر التعلم.
لكنه أيضًا لم يكن غبيًّا للدرجة التي تدفعه للهجوم مباشرة على الحصن، انتظر بين الأحراش الإشارة رفقة باقي الجيش وسرعان ما ارتفع سهم مشتعل من فوق التبة اليسرى.
صاح بهم:
- خلفي يا رجال.
ثم تقدم بجواده بركض، وكأن الأرض تتهدم من خلفه مدبرًا سيلًا من الجند الذين نظروا إليه نظرات كلها إعجاب وطمأنينة.
شقوا الأدغال حتى برزوا للسهل غرب هوار، صف يليه آخر وكل منهم يحمي رأسه بدرعه.
توقف كل شيء، ارتفع لواء جهير عاليًا يرفرف برايات المجد القادم، نفخ صدره ومشي بخيله متبخترًا أمام الجنود، وسرعان ما نفخت الأبواق من الطرف الآخر.
هوار غير مستعدة لأي حوار، على الأقل الآن، قطعت حبال المجانيق فوق التبة اليسرى لتطير كرات اللهب الحارق فوق سماء هوار جالبة معها ألسنة اللهب والموت.
لن تنفع أي خطة تتطلب طول النفس، فهذا الحصن تحديدًا يجب أن يُفتح بأسرع وقت ممكن.
رمق جهير البوابة صامدة في توتر، تصبب عرقًا مغمغمًا:
- أين ذهبت؟
انطلقت موجة من الأسهم ناحيتهم، صاح عاليًا:
- اثبتوا يا رجال.
أمسك كل مهم بدرعه كأنما يتشبث بخيط حياته، أيادٍ مرتعشة وأخرى راسخة تعلم أن المصير واحد مهما تبدلت الظروف.
اخترقت الأسهم عدة دروع ورست بالفراغات بين أخرى، سقط البعض وصرخ الآخر، لكن آمال النصر قد أتت، من ذيل الجيش تقدمه فرقة الهدامة بعمود فولاذي طويل تحميهم سقيفة من الدروع المثبتة فوقهم.
يمين السهل الخاوي ارتفع لواء العاصفة أخيرًا، تنفس جهير الصعداء وملأ صدره بعبير الوغى الدامي، ثم صاح بعين محمرة:
- إلى النصر.
ليرددوا معه:
- إلى النصر!
صهل خيله منطلقًا كالسهم نحو البوابة، وبالسهل الأيمن رحبان يشق الصف خلفه جنده تقل المسافة بين الفريقين كلما تقدما نحو الأسوار.
علت الهمم وطارت الأفئدة وكلٌ قد صب تفكيره في جنود السهل الذين سيقاتلونهم فور سقوط البوابة، لكن ذلك التفكير لم يطل، سمع جهير صوت الصرخات يعلو الواحدة تلو الأخرى.

ضم بجواده إلى اليمين قليلًا حتى تجمدت الدماء بعروقه، رحبان برفقة جنود العاصفة الذين أتوا من الشعب الأيمن قد استلوا سيوفهم وأخذوا يعملونها بجيشه.
لحظات حتى أدرك جهير هول الموقف، احمرت عيناه وبرزت عروقه صارخًا:
- أيها الخائن.
أمطار من الصخور تهطل عليهم من فوق الأسوار آخذة معها من ضعفت يده عن مسك الدرع، ورحبان بمن معه يقتلون الميمنة، فحتى لو سقطت البوابة ليكونن ذلك وبالًا عليهم، فعدوان من الأمام والخلف لا يعني سوى موت محتم.
سرح عقله فيما يفعل، سرعان ما أدرك أن الهزيمة محيقة بهم لا محالة، تذكر معركة التيه والوادي السحيق، لكن جهير ذاك تعرض للكثير والكثير، وربما لن يعود كما كان.
صاح بالجنود:
- تراجعوا!
عمت حالة من الفوضى بالعسكر الذين نظروا لبعضهم البعض نظرات كلها وجل، لم يدرِ أي منهم ما هم بفاعلين، خشي جهير الهلكة إن تصرف كل منهم بمفرده، لذا ركض بجواده أكثرَ شيء نحو اليسار، قائلًا:
- خلفي يا رجال!
جارًا معه أكبر قدر ممن سمعوا النداء، جنود رحبان ورحبان ذاته ذبحوا بالساعة الأولى ما زاد عن مئة رجل، مئة دم زكي سقوا هذا السهل ولن يكون الأخير، صاح أحدهم:
- تخلى الملك عنا.
سمعت صيحته وكأنها كانت نداء العقل الذي كان ينقصهم، أتبع آخرون:
- انجوا بحياتكم!
وصرخات الموتى تعلوا وتعلوا بين صليل الصوارم التي عانقت بعضها بحقد، رحبان لثم وجهه وطار بجواده يقتل دون رحمة، بينما جهير يركض نحو التبة متمنيًا أن يفهم الجنود فوقها ما يحدث، لكن أنّى لهم يفعلوا والجنود بقلب المعترك أنفسهم لا يعلمون!
رجال السهل فوق الجدران يضحكون وسرعان ما صبوا عليهم أرطال الزيت لينتهي كل شيء، تراجع رحبان بجنده قليلًا، بينما سهم مشتعل يتهادى إلى الأرض، رآه بطيئًا ساحرًا، نقطة النور التي ستبدد العتمة، اشتعلت النيران، مئات الصرخات المحترقة ارتفعت، بعضها تمنى الخلاص، وآخرون لهثوا باسم حبيب تمنوه أو رزق مُنِعوه أو ولد رؤياه حُرِموه.
ارتفعت الأيدي وسقطت الدروع، والتحم اللباس بالناس، فما عُرف ميت من حي.
لأول مرة دمعت عينا جهير بقلب معترك، يجرّ الأرض خلفه ثلث من دخلها تطاردهم عديد السهام لتأخذ منهم سعيد الحظ الذي ستنتهي رحلته هنا.
قُضي كل شيء وخط بصفحات القدر ما سمي فيما بعد بمعركة العشب الأسود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلوان

بعد ذاك اليوم الأسود وأثناء حمله الكتاب طرق الباب فسارع بإرجاعه حيث كان، فتح للطارق، فإذا بهم رفقة من حملة الشعلة يرمقونه بنظرات احتقار كأن إثم صديقه له علاقة به.

- أين متعلقات المرتد؟
وسع جلوان فتحة الباب مشيرًا للفراش قائلًا:
- أجمعها.
- أسرع، ليس لدينا اليوم كله.
ثم أدبروه متطيرين، لم يحسب جلوان لهم وزنًا على أية حال، حتى المسمى الذي يتحامون به هو يعلم وكل من بالقصر يعلم كيف وصولًا إليه، مبخوت يحب المعلومة، يعشق الهمسات خلف الجدران فإن حققت له مراده نلت من الخير كله.
نفض جلوان عقله ملمًّا ما جمعه من متعلقات رهوان بكيس قماشي رث.
خرج إلى الرواق العريض يمشي بظهر محني يرمق الموجودات بنفس خاوية، ترى ما ذلك الكتاب ولمَ خبأه رهوان بهذا المكان؟! لم يدرِ لمَ لم يأخذه ليحرق مع ما أخذه! لكن ربما فعل الصواب.
خرج حتى بلغ حبل السماء فارتقى درجاته التي لم تعد نفسه تألفها، منذ أيام كانا يخرجان للقداس سويًّا، يرتقيان الرخام الأبيض يستبق بعضهما بعضًا.
لم يحب أي منهما رفاقهم من حملة الشعلة، تلك النفوس الصافية ما كانت لتألف ألسنة يقودها الهوى وعقولًا تحركها الشهوات.
ربما هو على حق، وربما لا يعلم شيئًا، أيقظته حرارة الشعلة الأبدية التي انسابت عبر الباب المسدل، كان المعبد آية في الجمال، أعمدة من الذهب الخالص التمعت مع أنفاس الشمس، وعناقيد من الفضة تزين الزخارف المنحوتة بقلب الرخام الأبيض الصافي، تبرز أحجار الفيروز بتقاطعات الفضة المتلألئة ببراعة.
صفوف الرهبان وقفوا من الداخل أمام فوّهة النار، بسط حمراء وأخرى بنفسجية قد طبعت على المكان أمارت الهيبة، بينما مبخوت كبير الكهنة وقف أقرب شيء إلى اللهيب المقدس.
انضم لهم جلوان بمؤخرة الصفوف ولم يحب أبدًا الاقتراب من حملة الشعلة.
أمسك مبخوت بمشعل ورماه بالنار، فأكلته كأن لم يكن شيئًا، راحت التراتيل تتعالى رويدًا حتى قصوا وانتهى كل شيء.
اتجه جلون لمبخوت مطأطئ الرأس مادًّا له بالكيس القماشي، نظر له نظرات كلها سخط.
- آخر من كنت أتوقع أن يخون...
تسللت كلماته بصوت أشيب، ليست تلك نبرات طمأنينة أو حكمة، بل كانت أقرب لشيء مختمر، شيء أسود قاسٍ.
لم ينبس جلوان ببنت كلمة واكتفى بمطالعة الأرض.
- ألقها بالنار.
أماء له إيجابًا، جرَّ قدميه حتى كان بمكان مبخوت السابق، ألسنة اللهب حارقة بشكل لا يُطاق، يقال إن ضريح سراج نفسه أسفل تلك النار، كراهب نور يجب أن يكون أسعر ما يكون الآن، فحتى لو كان غرضه مجرد رمي كيس بالنار فغيره من الرهبان يعيشون ويموتون وهم لم يروا حتى شكل الشعلة الأبدية، فكيف به الآن وبعض ألسنتها تكاد تطوله!
دفع الكيس دفعة واحدة حتى أكلته الناس، ارتعشت.. ربما لم يلحظ أحد ذلك، جلوان وكهنة النور وحملة الشعلة، لكن مبخوت بالتأكيد أدرك ذلك، اتسعت عيناه والتفت سريعًا عائدًا إلى حيث كان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالمساء يجيء الطباخ له بالطعام، ولو لم يكن بمكانة عالية لما أتعب أحدهم نفسه بالسؤال عنه، عمومًا لم يكن يطعم الكثير، فقط أكل ما يسد عواء بطنه.
فكر مليًّا، لمَ رهوان دون غيره نكل به علنًا؟! قد علم أنه على التاريخ وجد كثير من الخونة بينهم لكن أحدًا منهم لم يحدث معه ما حدث من أخيه لئلا تهتز صورة سراج الممثلة بهم أمام الناس، طالما عرف وتعلم أن هذه أرضهم وأن الزناديق من عبدة عديم الاسم فروا منها إلى أراضي عدم بعد ما يئسوا من الخروج بأي ربح من أرضهم.
شريط من التاريخ الأسود أخذ يقص نفسه عليه، كانت وما زالت علة عقله عدم النسيان، ربما أتعس شخص يمكن أن يصاب بلعنة الزفير سيكون هو، فمهما مر الوقت تأكّد أنه لن ينسى أي شيء، حتى لو كان مجرد شجرة.
إبان تذكر عقله للتاريخ تذكر الكتاب الذي وجده بأرضية رهوان، كتب عليه ولم يكن متأكدًا من ذلك "تاريخ منسي" شيء من هذا القبيل.
نهض من فراشه متجهًا نحو المكان الخفي، حاول أن يتذكر أي الألواح التي دُس الكتاب أسفلها، نقر الأرض هنا وهناك حتى وجد مراده.
جثم أرضًا متناولًا تلك الأوراق الجلدية الرثة ثم عاد إلى مجلسه، قبل أن يبدأ المطالعة تأكَّد من غلق الباب، لم يدرِ لمَ قد يفعل ذلك، لكن الاحتياط واجب.
فتح أولى صَفحات الكتاب وبدأ يقرأ: "باسم القوي الجبار العليم بكل خبيئة وكل نبيئة، أخط كلماتي التي أعلم يقينا أنها سترشد إلى النور يومًا ما، نور غير ذلك الذي دعا إليه ابن الأنبار الفاسق، نور حاني تلين له السماوات.
قد قسمت كلماتي في كتابين وهاك أولهما لك فاقرأ وتمعن.
عن سراج: وبعد فإن أبي علمني من حكيم الكلام الشيء الكثير، رغم غربته عن أرضنا إلا أنه كان أعلم بها من كل أهلها.
عرفه الناس باسم واحد (الجريح) كما أسموه بعهده وبما تلاه من عهود، بحياته لم يكره مثل دين النور الذي اتخذه أهل نبراس سترة لما فعلوه، فقد بنوا تلك المملكة فوق جبل من الجثث التي لا تزال تنزف أسفلها مهما مر من الزمن".
كانت السطور تنزل عليه الواحد تلو الآخر كصواعق حارقة، تنهب عينه السطور بنهم لم يعتده من قبل، قلب عدة صفحات فلمح عناوين أخرى مثل (فصل في بحر العبرات) (عن طائر الرخ) (آبق والزمان الأخير) (أرض النور وما بها)، لكن أكثر شيء استوقفه فصل يُدعى (عن الزفير وحرب الأعالي).
راحت عيناه تجر الكلمات: "فوق السحاب وبعد كل منظر خلاب تقع الأعالي، ذلك المكان الذي أشك أنا شخصيًّا بوجوده، لكن أبي أخبرني أنه بالفعل موجود، قيل إن ملوك السماء اقتتلوا بينهم، صرع أحدهم الآخر، مرة تلو الأخرى.
لكن بأحد المرات زاد الأمر قليلًا، اقتتل الملوك كما لم يفعلوا من قبل حتى وصل لظى حربهم إلى الأرض، تحديدًا إلى عينها.
مما قيل إن للأرض عينًا بيضاء كغرر الجياد، برزت منها الشجرة الأم (ميثاء) كما دعوها في أول الأمر، أطلت على العالم، غشته بأغصانها المتشابكة، تزهر كل خريف فتلعن برحيقها كل من يشتمه، مدن بأكملها اعتلتها الأشجار، وجوه الملعونين الصارخة بصمت لا تزال شاخصة على لحائها

الأسود، أوراقهم زرقاء لامعة كأحجار الزفير وقد أكسبتهم ذات الاسم، تضرع البشر أيامًا لا يملكون من أمرهم شيئًا، إلى أن أتى كما رآه الناس مجندلًا بالجراح، برزت على محياه ابتسامة نصر زائفة، قيل إنه الموعود... أنه من بنى الأرض كما كانت، أنبأهم أن اللعنة ثمن زهيد لنجاة الأرض، إلا أنه سرعان ما اختفى.
من كان أو ما كنه هويته ذلك لم يخبرني به أبي، ولم أشأ حتى أن أعرف، بعض العلم ضار على نفعه، وليس كثيره بنافع.
وتمضي تلك الأيام ويفقد كل منا عزيزًا كل خريف، يخشى أن يفتش عنه في الغابات، يخشى الأعين الصامتة المحدقة من قلب الجحيم الأزرق، يخشى أن يجده قد تشجر كحال البقية، لذا قد اعتاد الواحد منا على نعي عزيزه في صمت".
طرقات اقتحمت مخدعه، أغلق الكتاب سريعًا في ذعر، علم لمَ حرق رهوان، كتاب كهذا زندقة واضحة هو نفسه يتعفف عنها، لكنه لسبب ما ورد لو يعلم المزيد.
دسّ الكتاب أسفل فراشه واتجه سريعًا نحو الباب.
- ماذا هناك؟
خلف الباب كان جندي من حرس البوابة، نظر له عدة نظرات، ثم أتبع:
- ساقي حانة يود أن يراك.
اتسعت عيناه وتسارعت دقات قلبه، تلعثم بكلماته قائلًا:
- ألم يخبرك لماذا؟
- قال إن الغلام أصابه شيء.
- سأذهب له.
وأغلق الباب حتى دون أن يستأذن منه، أرجع الكتاب إلى مكانه، ثم وضع حلته الزيتية عليه خارجًا إلى البوابة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مصباح

أزقة الضواحي واسعة على ضيقها، يجول بها مساءً الجوالون وفرق الأمن، وقلة من التجار الذين يئسوا من رزق الصبح فأتوا تعطفًا أن ينالوا بعضًا منه بجنح الليل.
بناصية أحد تلك الأزقة، تحديدًا بالطرف الشمالي منها حيث يكثر سادة السيوف وبائعو السلاح، وقف مصباح وقد ارتدى حلة الليل الفضفاضة مغطيًا رأسه بقلنسوة سوداء.
لحظات مرت بدا أنه في انتظار أحدهم، سرعان ما أتى غلام بدا بربيعه السابع أو الثامن، ناوله مصباح كيسًا قماشيًّا رثًّا مع قطعة ذهبية لامعة.
لمعت عين الفتى إبان رؤيته لذلك اللمعان الذي سمع عنه فقط بقصص العجوز المربية بالملجأ وكيف أن نبراس بها أبنية بالكامل مطلية به، لكنه حتى بعد ما أتى إلى هنا لم تختلف حياته كثيرًا.
على كلٍّ تناول منه الكيس داسًّا العملة بجيبه الضيق ذاهبًا بطريقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرَّ كل ما على قبس سريعًا، حرق الراهب وطبخ الخونة وعديد الوقائع التي حدث بأرض النور لا يعلم عنها الناس هنا شيئًا، إلا أن مصباح دومًا ما كان أول العالمين وآخر المتصرفين بتلك الأمور،

يراقب ويحلل ثم ينتظر.
استيقظ صباحًا بجناحه بقصر الملك البهي يعدّ أنفاس الصباح ويحسب كل شيء، ذا قامة متوسطة الطول ورأس رمادية الشعر الخفيف، وضع على نفسه رداء اليوم الذي ارتأى أن يكون معطفًا أخضر فوق قميصه الحريري، قبل أن يهم بالخروج تأكد من ثبات دبوسه على المعطف الذي اتخذ شكل غصن جاف بلون الخشب الأسود اللامع.
سمع عما حدث بوليمة الملكة منذ عدة أيام، ولم يثر ذلك اندهاشه، فميثاء -كما يعتقد- كتاب مفتوح أمامه ليقرأ منه ما يشاء.
لم يكن اليوم بيوم مشغول، فقط عدة ترتيبات قبل اجتماع المجلس.
وقّع عدة أوراق بمكتبه الذي اختار طواعية أن يكون من الأصغر بالقصر كله، فلم يسع حتى لوحة تزين جداره، ولم يكن بمظاهر الجمال فيه غير شرفته الخلفية التي ربما أغنت عن كثير من مظاهر الترف الفاني، فقد أطل من مكتبه على البستان الذهبي قبيل سكنى الخدم، تداعب نسائم الهواء خيوط الحرير الناعمة التي تنامت على الأرض الرطبة بتلك البقعة من القصر، يتأملها كل يوم بشغف لا ينضب.
تمر ساعات اليوم رتيبة حتى بلغ موعد المجلس، وقف أمام بوابة غرفة الاجتماعات وعدل هندامه، ثم دلف تزفه نظرات الحرس بأطراف الممر المزينة جوانبه.
جلست ميثاء إلى رأس الطاولة الدائرية قبالتها أربعة من الكراسي، لم يفصل بعضهم عن بعض سوى مساحة صغيرة.
ولم يكن بين تلك المقاعد ثمة واحد خالٍ عدا ذلك الذي يخصه بأقصى اليسار.
- تأخرت يا ابن جبل.
قالها جبير السماري سيد الحرب، بينما عيناه لم تتزاحا عن البقعة الفارغة أمامه من الطاولة.
- ماذا أفعل في مشاغل العرش! أوه أعتذر، لم أقصد شيئًا.
فهم جبير ما رمى مصبح إليه جيدًا، فقبل كل شيء هو حكيم متفرس بارع قضى أغلب عمره بالصحراء يعلم ويربي جيلًا من العسكر فتحت نبراس به العالم، لكنه رفض أشد الرفض الانخراط بمقاعد الملك والسلطة مفضلًا حياة القتال، لكنه ولسبب ما عدل عن ذلك مع تولي ميثاء مقاليد الحكم.
- إلى مجلسك يا مصباح.
- أمر مولاتي.
رغم شدة كلامها وحاجبيها المعقودين، إلا أن المرء ما كان ليملك قلبه من الافتتان بها، أقسم مصباح بقرارة نفسه إنها لو قتلته بيوم من الأيام سيكون متبسمًا لحسن قاتلته.
وعلى عكس جبير ومبخوت اللذان خوت أمامهما الطاولة فقد وضع أمامه رزمة من الأوراق لم يدرِ كثير من الحاضرين كنهها، لكنه على العموم دومًا ما كان يأخذها معه.
تنهدت ميثاء وهدأت من روعها قليلًا، ثم أتبعت ما كانت تقوله قبل دخول مصباح:
- إذن تقول أن نقبل بعرض حكيم.
خرج صوت مبخوت متسللًا من فيه:
- ولمَ لا! لم يطلب الرجل حصة بغلّة الجبال والمناجم، بل وعد بزيادة واردنا منها إذا ما انتصر.
رفع جبير بصره في وجه سيدته قائلًا:
- لكن المقابل...

قاطعه مبخوت:
- أسطورة لا أصل لها.
التفت إلى ميثاء مجددًا متبعًا كلامه:
- يا سيدتي، فلنبع له الهواء ويكون لنا فوقها دين عنده.
- لكن أهل الأرض لن يرضوا.
كانت قراءة مصباح للموقف سهلة وهو على علم بما قيل قبل أن يقال، فقاطع الجميع قائلًا:
- بالأمس عبيد إحساننا وغدًا عبيد إحسان حكيم، فما الفارق!
التفت إلى مصباح قائلًا:
- الفارق أنها ظلمات بعضها فوق بعض، لن يتحمل أهلها كل تلك الضغوطات، فلو أنهم لم يطيقوا جندنا وإتاوتنا مقدار خردلة فحكم أحدهم عليهم أمرّ ألف ألف مرة.
طالعتهم ميثاء تحلل المقول، ملأت صدرها بالهواء مطالعة الخطاب المفرود أمامها بإمضاء سيد أرض العاصفة ووالليها هناك كما سمى نفسه بالورقة.
أرجأت وجهها إلى باطن يدها قائلةً:
- لم يكن سليمان ليفعل ما جرأ عليه ابنه، ولو أنه أعجبني.
تبسّم ثغرها فأشاح جبير بنظره عنها وهو رجل حرب يخشى الوقوع بشَرك لا قرار له مثلها، التفتت إلى مبخوت قائلة:
- اكتب له أننا باركنا طلبه.
- أمر مولاتي.
ثم التفتت إلى مصباح قائلة:
- هات ما عندك.
نفض الرجل معطفه متناولًا عود ثقاب مشتعل ليوقد غليونه المحشي، وعلى الرغم من أنه تصرف قد يعتبر غير لائق في اجتماع رسمي وفي حضرة جلالتها، إلا أن مصباح ربما كان وما زال الوحيد الذي امتلك الجرأة لفعل ذلك دونما أية عواقب.
ملأ صدره بدخان تبغ جزر الثعبان الذي ميزته رائحة الكرز الفواحة، نفثه قائلًا:
- أخشى أن الوضع ليس بجيد.
نهض من مجلسه ملتفًا حول الطاولة متبعًا:
- إمدادات الزيت تأتي من أرض العاصفة، والمعادن والذهب من السهل، والأخشاب البيضاء الحمولة من أرض الغابة، حتى الحجارة نسرقها من أراضي عدم. مدخولات خزائننا أغلبها من أراض نحوزها عنوة، لا أقصد التشكيك بقوة جيشنا، بل أنا واثق منه تمام الثقة، إلا أن الأمر أكبر من ذلك.
سرقت كلماته انتباه الحاضرين، حتى مبخوت الذي لم يكن يقيم له وزنًا، لكنه الآن منصت وإن لم يلتفت إليه:
- مر علينا أكثر من خريف، ومع كل مرة يصبح الوضع أصعب من سابقه، بقلب الشتاء تركد الأسواق ويتجمد جل الأزرق العظيم قاطعًا عنا موارد جزر الملح غير السفن التي يقودها البحارة المحنّكون، وعدا ذلك فهي بركة سراج التي تكنفنا لا أكثر.
- أرى أن تدخل بصلب موضوعك...
قاطع مصباح مبخوت قائلًا:

- خزائننا ستنهار هذا الخريف، أنا مع تأييد حرب حكيم على السهل خصوصًا مع الزيادة التي سنتحصلها منه، لكن كونوا على يقين أن فترة الحرب تلك ستنقطع عنا إمدادات زيته أو ستقل في أضعف الأحوار، فلا نحن متخلين عن جندنا لنرسلهم لتأمين الحمولات بأرض غير أرضهم وبقلب معترك ضروس، ولا هو أبله ليقتطع من عسكره جزءًا هو بأمسّ الحاجة إليه.
تنهد مزدرًا نفسًا آخر من غليونه مدبرًا المجلس ضامًّا كلتا يديه إلى صدره مفكرًا، يعلم جيدًا عاقبة قوله القادم، لكن لا بد من ذلك، التفت إليهم بعين ملتمعة، قائلًا:
- أرى أن نوقف الشعلات نهارًا.
- كيف تجرؤ؟! أصبأت يا ابن جبل؟
قالها مبخوت بعين جاحظة محمرة، اقترب منه مصباح مغمغمًا:
- أرجوك لا تدعي الشرف أمامي كلنا أعلم بك منك.
ثم همس بأذنه عدة كلمات كور مبخوت قبضته إبانها وراح يتصبب عرقًا.
هدرت بهم ميثاء:
- نظام يا سادة! عار عليكم ما تفعلون بحضرة ملكتكم، فوحق سراج لولا حرمة الدم بهذه الغرفة لأمرت بضرب رقابكم هنا والآن.
هدأت الأجواء قليلًا قبل أن يعود مصباح إلى مجلسه، أتبعت ميثاء:
- مبخوت، فكّر في شيء تبرر به تخلينا عن شعلات النهار.
- لكن...
- لا أعذار، جبير زد رجالك على الحدود الغربية.
- كما تأمرين.
- مصباح، ارفع الضرائب عن صغار تجار الجزر، لن يأكل الناس الذهب بوقت المجاعة، نريد ما لديهم لا ما في جيوبهم، قضي المجلس.
ثم نهضت بسرعة خارجة من الباب الخلفي للغرفة.
لملم مصباح أوراقه بينما نظرات كره تتطاير من عيني مبخوت الذي سارع بالخروج.
اقترب جبير منه قائلًا:
- لم أحبك يومًا يا ابن جبل، لكن راق لي ما فعلته اليوم.
- فلتحذر يا سيدي.
تعجب الرجل من الكلمات قائلًا:
- وممَ؟
ارتسمت ابتسامة حادة على وجه مصباح، قائلًا:
- من ضحكات المساء، ولمزات النساء، والغريب إذا أتاك بشربة ماء.
كلماته مطاطة حادة تحمل ألف معنى ومعنى، لم يكن لرجل مستقيم كجبير أن يفقهها، لذا لم يعلق عليه وتركه خارجًا من المجلس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كارم

لم يمضِ كثيرٌ من الوقت حتى أتى اليوم الذي أنتظره، ذلك اليوم الذي أصبح الشعب الكانف لسرداب باب الحرية بالنطاق الذي أوكل إليه للبحث والتنقيب.
بدا اليوم غريبًا بعض الشيء، أحس بأعين شتى تراقبه، كل يرنو إليه بأعين راجية أن يحقق المراد.
حتى اعتياده المكان الذي مكث فيه الفترة الأخيرة زال بعض الشيء، فشعر بالجدران المصمتة تطبق على صدره، وراح يأنف الهواء الراكد الذي أشعره بتعطّن صدره.
راغب يرمقه بعين ملتمعة حاملًا معوله باتجاه الممر حتى غاب عن الأعين، كان الممر عاديًّا كسابقيه، عدة صغير بعضها تلون بالأحمر أو طفت عليه مسحة ذهبية، أرسل نظراته هنا وهناك منتظرًا التفرع الذي وصفه له راغب سابقًا.
سرعان ما وصل إليه، وبعتبة الطريق الأيمن كان ثمة ممر محفور بجداره الشرقي وقد علم مسبقًا أنها غرفة السجان، لم يشأ أن يثير المتاعب بأول يومه، خصوصًا أن لا أحد يعرفه هنا أو يقيم له وزنًا، ولم يكن قد انتمى لعديد العصابات التي توفر الحماية لأصحابها لقاء عدة شرائط ينفذها المنضم إليهم، وحتى لو حمل كلام راغب جزءًا من الصواب، لكن كارم لم يكن أبدًا ساذجًا ليخفى عليه الجانب المظلم من الأمر.
اتخذ الممر الأيسر وراح يدق الجدار بمعوله ساعات حتى اطمأن لغلته التي سيسلمها، عندها فقط علم أن الوقت سانح للفرصة التي تمناها.
سريعًا حمل معداته على الطريق تاركًا إياها بعتبة الممر الأيمن، راح وبخطى ناعمة حاول قدر الإمكان المرور بهدوء، من يمينه سمع صوت السجان يتعالى بحديث مجهول الكنه، لكنه لم يشغل باله به، فقط أراد أن يمر سريعًا.
خطوة تلتها أخرى، وسرعان ما ضاقت الجدران وخفتت الإضاءة وتباعدت المشاعل إلى أن انتهت.
أمامه بالفعل وجد بابًا خشبيًّا رثًّا يكاد يتهاوى على ما أمامه، مد يده المرتعشة نحوه، خاف حقيقة أن تئن تلك الأخشاب ويفتضح أمره، خاف من أشياء عدة في حياته هذا أتفهها، لكنه على كل حال مد يده ببطء حتى بلغت الباب فدفعه بسرعة ودفعة واحدة فصرّت تلك الأخشاب العتيقة، لكنها لم تكن بذلك الصوت العالي.
قدر الوقت الذي أمامه فعلم يقينًا أنه لا يملك سوى عشر دقائق، إن لم يكن أقل، فأسرع من خطواته قليلًا.
مع مروره من ذلك الباب أخذت الحرارة تقل تدريجيًّا وكنف الظلام المكان، لكن عيناه اعتادته سريعًا، راحت الأرض تعلو بشكل ملحوظ حتى هو أصابه التعب من صعود ذلك المنحدر فتباطأت خطواته وتعالت أنفاسه تجر الواحدة منها الأخرى.
ضاقت الجدران حتى كانت تتسع له وحده بشق الأنفس، لكنه لم يهتم وأخذ يدفع نفسه حتى بلغ من الطريق آخره.
وجد أمامه بابًا آخر، لكنه عندما مد يده إليه تحسس شيئًا باردًا، شيئًا عرَفه وعرِفه، سمع صوت السلاسل يداعب أذنه، بينما تنساب عناقيدها بين يديه.
لكن أنفاس الهواء الباردة داعبت يده من خلف شقوق الباب، تجمد بمكانه وهلة، وبحركة مرتعشة ألصق وجهه بالباب شاهقًا كأنما لم يشعر بهواء قط، دبت الحياة به من جديد، شعر بالهواء البارد على قلته يسري بعروقه يحيي فيه ما كان قد مات.

من خلف الباب لم يأتِ أي نور ذهبي، فأدرك أن سماء الخارج ليل، ربما ذلك حسن حظه وإلا لعميَ من الصدمة.
لربما أفاقته تلك النسائم، لكنه على كل حال أفاق، أدرك الوقت الذي تناساه لسحر العبق الليلي فجرّ شتات نفسه عبر الممر مهرولًا بقلب الظلام مترنحًا بين الحوائط يمنة ويسرة حتى سقط تاركًا نفسه للمنحدر يجره حتى استقر قرب المدخل.
- ماذا لدينا هنا؟
ذلك الصوت يعرفه ويحفظه جيدًا، تمنى لو يكون كلام راغب صحيحًا، لكن في الحقيقة فقد وُجد بأسوأ مكان يمكن أن يجده فيه، وقف السجان يسد الطريق أمامه، ثم جثم إليه قائلًا:
- جنيت على نفسك أيها المستجد.
وجره خلفه ماسحًا به أرض الممر، حاول المقاومة بأول الأمر، لكن ذلك لم يجدِ نفعًا، فسكن مكانه تجرح الأرض الخشنة ظهره.
سرعان ما بلغ به غرفته فألقاه بكل ما امتلك من قوة إلى الجدار قبالته ليرتطم به.
شعر بالألم يغزو ظهره وبصخور الجدار البارزة كخناجر راحت تنهشه.
- والآن أخبرني من أخبرك بأمر الباب.
ثم اتجه نحوه بخطوات واسعة وظلام الوعيد يقطر من فيه إذ قال:
- أجبني!
ليركله أرضًا، اختلط لعاب كارم بدمه وأجاءت معدته بما فيها، أخذ يسعل ويسعل محاولًا التقاط أنفاسه.
- مستجد مثلك لن يعلم بأمر هذا الباب، ولو علم ما كان لدلف إليه بهذه السهولة، غيرك يفكر ألف مرة قبل أن يتنفس فقصر عليَّ وعلى نفسك المسافات وأخبرني... من أخبرك بأمر الباب؟
أجابه الصمت، حتى لو اتصف كارم بكثير من ذميم الصفات، لكن واشي لم تكن إحداها، فلو عاد بهيئته تلك لهم وقد تركه السجان لعلم الجميع أنه أخبرهم بكل شيء ولما تركه كلاب راغب حيًّا بعدها ساعة.
- باسل أنت؟ آمل أن تظل كذلك بالسراديب.
ثم أدبره مناديًا الحرس الذي تحركوا ناحيته مذعورين، هدر بهم قائلًا:
- خذوه إلى السراديب.
ثم اقترب منهم مغمغمًا:
- أقسم لو تركتم الممر هذا دون حراسة مجددًا لأنزلنكم أنا إلى السراديب بنفسي.
وعاد إلى جوف غرفته صائحًا بهم:
- انصراف!
اقتاده الحرس متأففين، بينما هو لا يزال غير مدرك لهول الفاجعة التي أحلت به، توقع أن يزيد نوبات عمله أو أن يفرض عليه غلة أكبر من تلك التي يستخرجها يوميًّا، لم يكن ليمانع أبدًا إذا ما أوسعه ضربًا بقلب الساحة كي يكون عبرة لمن يعتبر.
لكنه الآن قد واجه حقيقة مصيره، هو ميت لا محالة، يقتاد سعيدو الحظ ممن سيهبطون إلى السراديب في بادئ الأمر إلى زنازينهم حتى إذا جن الليل أو انطفأت المشاعل بتوقيت أهل الكهف أُخذ إلى مرقده.

وأمام أنظار الجميع ألقى إلى بطن الساحة تغرقه أنظار إخوته جلها خوف شابه كثير من القلق.
حتى راغب اتخذ من ركن الساحة مجلسًا له دون أن يتحرك، ما انفك أن تركه الحرس حتى اجتمع عليه قلة من أتباع راغب الذي هطلوا عليه بوابل من الأسئلة:
- ماذا رأيت؟ أيقود الباب للسطح؟
سكتت كل الأصوات وبدا الوقت بطيئًا، أفسح الجمع طريقًا مر به راغب إلى أن جثم قبالة كارم، أرجأ يديه إلى كتفه قائلًا:
- أعلم أن ما مررت به عصيب.
رفع كارم عينيه قاطرة بالشر والغضب:
- كنت تعلم!
- أكذب إن قلت لا، لكني لم أكن أتوقع أن تمتهن بهذا الشكل.
- وها قد حدث! أخبرني بحقك ما الذي سينجدني الآن؟
لم يكن من عادة كارم الرمي بمشاكله على عاتق غيره، لكنها المرة الأولى التي يشعر فيها بقلة حليته بهذا الشكل.
- ربما لا يكون لك غد، وربما تعود إلينا سالمًا.
لم يكن كارم قد نطق حتى بما حكم عليه، لكن فراسة راغب كانت أبعد بكثير مما يمكن تصوره، رجل محنّك مثله قاد جيوش التمرد فيما مضى وقتل أكثم سيد الحرب وقت الملك بجير وكاد يغلب جهير لولا مفاجئة ذاك الماكر له لم يصعب عليه أبدًا أن يرى خلف وجه كارم الكثير والكثير مما لم يُقل.
- أخبرني.. ماذا رأيت؟
سكت كارم برهة لا يدرك من أمره شيئًا، أيخبره حقًّا بما رآه حتى لو كان قليلًا؟
رفع بصره له بوجهه المغبر، قائلًا:
- لم أرَ شيئًا، بنهاية الطريق باب مسلسل.
تنهد قائلًا:
- خلف الباب كان السطح.
تعالت الهمهمات بين الحشد، بينما راغب أطال النظر له بعينه الضيقة، سرعان ما أتى الحرس ليسكنوا كل منهم بزنزانته وأطفئت الشعلات.
العجوز اليوم هادئ للغاية، ربما هي ليلة كارم الأخيرة معه فقد مر الكثير عليه، أتى قبله الكثير ممن سكنوا هذا العنبر، لكن كارم كان أفضلهم.
كانت عيناه محمرة وقد تكوّم على نفسه بركن فراشه، لم يشأ كارم أن يحادثه، واكتفى فقط بهمه الذي هو مقبل عليه.
مثل الحرس أمام الزنزانة فاتحين إياها فلم يقاوم كارم، وقف بصدر منفوخ يمشي يجاره الجند كله أنفة وعزة، مضى زمن منذ رأوا أحدهم يذهب إلى مصيره الأسود هكذا هيبة، تأججت نفوس الكثيرين منهم، البعض شعر بنسائم أمل قد غابت كثيرًا، وآخرون رأوا في موته منفعة ما، التفت كارم لعنبره مغمغمًا:
- سأعود، لا تقلق.
ضحك الحارس بجواره بسخرية فلم يتمالك كارم نفسه، وقال:
- أهناك ما يثر السخرية فيما قلته؟

بنبرة باردة وإبان عتبة الممر العريض بصدر الساحة قال الحارس الآخر بيساره:
- دعه، عل عقله خذله فهي لحظاته الأخيرة.
- عمَّ تتكلم؟
- عن الزنزانة الخاوية التي كنت تحادثها.
توقف كارم بمكانه، أي زنزانة خاوية، التفت إليها لا يكاد يبصر منها شيئًا، بيد أنه رأى ابتسامة ملتمعة بقلب الظل.
- الشيخ هناك، أراه.
- نعم نعم وأنا ملك أراضي النور... هيا ليس لدينا اليوم بطوله.
ثم دفعه أمامه، لم يزل عقله يعالج كلام الحراس حتى توسعت جدران الممر بشكل بالغ، بينما هبطت بهم الأرض وقل الهواء فاختنقوا أغلبهم حتى كارم الذي ظن بنفسه أنه اعتاد حرارة الأرض، إلا أن المكان هنا لا يُطاق.
يكاد يرى نورًا بآخر الطريق هناك رغم انطفاء الشعلات، سرعان ما دفعوه إلى الأمام ليرى ما لم يره من قبل؛ فوهة بقلب دائرة صخرية كبيرة، بينما سلسلة معلقة تدلت من السقف فيما يبدو وحتى قعرها.
نور وهّاج يصدر من بطن الفوهة، والحرس واقفون بشموخ على أطرافها، تقدم أحدهم نحوه بعصى طويلة جاذبًا السلسلة مناولًا إياها لكارم الذي وقف مشدوهًا من هول المنظر.
- تشبث بها جيدًا، ما إن تتدلى منها ستأخذك رويدًا إلى القعر.
تناول منه السلسلة الحديدة التي كادت تشوي يده، لكنه تحامل على نفسه أكثر وأكثر.
- لك بذمتنا يوم ننتظرك به حتى تملأ السلة بالأسفل، إن ملأتها ستجد سلسلة تبرز من الجدار بالأسفل اسحبها وسنخرجك.
ثم اقترب منه ضاغطًا على حروفه، وقال:
- آخر من سحب تلك السلسلة دون ملء السلة سُلخ حيًّا أمام الناس، لذا لا أنصحك أن تفعل مثله.
وقبل أن ينبس كارم ببنت كلمة إذ بقدم الحارس قد دفعته إلى الأمام، أغمض عينه ساقطًا بقلب الفوهة يلفحه الهواء الجحيمي القادم من الأسفل، بينما أصوات ضحكات تعلوا من الأعلى مستقبلًا آلاف الصرخات، نظر إلى الدخان الأسود الذي زاد مع نزوله فرأى أشكالًا عدة، رأى حميد ينكِح بثينة بمباركة كبراء الجزر، رأى مدينة خالدة تحاصرها عديد الأشجار التي راحت تكثر على أطرافها، رأى رجلًا امتطى ميتة بعين جاحظة تقطر بالدماء.
كانت أشكالًا عدة منها ما عرف ومنها من لم يعرف، رأى كؤوسًا تقرع بنخب ذميم، رأى سديمًا أسود يجري بقلب الأرض لا يدري ما الذي يريده.
انقطعت الرؤى وشعر بيديه قد ارتختا عن السلسلة التي أكل لهيبها لحمه وتخافتت الرؤية شيئًا فشيئًا حتى انقطعت تمامًا.
أحس بيديه وقدمه ترسوا ببطء إلى الأرض الصخرية الجدبة وصهيد الهواء يحاوطه من كل حدب وصوب، جال بعينه هنا وهناك فلم يرَ سوى شبه حجرة تخللتها عدة ممرات لم تختلف كثيرًا عما كان ينجم فيه، بيد أن أنهارًا صفراء وحمراء سالت يمنة ويسرة، لم تكن بعصارة الأرض وإلا لاحترق بمكانه، أدرك أن ذاك هو زيت العسل الصافي، لكنه لم يقوَ على النظر إليه فضلًا عن النهوض وجمعه، أخيرًا أغلق عينيه مستسلمًا لمصيره المحتوم.
شعر بالسكينة تحاوطه، سمع همسات لم يكن ليعلم مصدرها:

- انتظرتك.
صوت دافئ ناعم، صوت كانت لتلين له الجبال.
شعر بنفسه يسبح بقلب سرمد أسود، أدرك ظهره الأرض الخشنة تحتك به وعاد نظره إليه فرأى بشكل مشوش كهلًا اتشح سملًا باليًا فضفاضًا يجره من قدمه، لا يعلم لأين، لكنه لم يهتم.
انقطع البصر عنه مجددًا ليشعر بعد وهلة بدفء ناعم يحاوطه، ذاك الدفء الذي يطوق له المرء بأيام الزمهرير القاتل، أحس بنفسه ممدًا إلى الأرض التي لانت بعض الشيء، غاصت قدماه جزئيًّا بشيء ما، شيء لزج دافئ.
بصعوبة فتح عينيه فرأى العجوز الذي جره يغطي شعره الأبيض الطويل وجهه اتكأ إلى الجدار من خلفه جالسًا إلى النار تحاوطه بركة من شيء ما، لم يطل الوقت حتى أدرك مع لمعانه وجمته أن الرجل يقطر دمًا، لكنه اتكأ إلى الجدار على كل حال، لمح شفتيه لم تتحركا، لكنه سمع الكلمات:
- لم يحن أوانك بعد.
وكأنها كانت الكلمات السحرية التي أرقدته مجددًا إلى النوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بقلب الساحة وبعد مرور يومين سحب السلاسل، وأمام أنظار الجميع ألقى كارم بجواره سلة امتلأت عن آخرها بزيت العسل الصافي، بينما هو جوارها فاقد للوعي تمامًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نداء الموت

جهير

أنفاس الهزيمة صعبة، علقم يروي الحلق لا يتغير طعمه ولا يُألَف، حتى لو ذيق ألف مرة، قد جربه عدة مرات وعلى الرغم بسالته إلا أنه جهل من أمره الكثير واستصعب ما هو قادم.
فقد كثيرًا من رجاله بالأدغال، هو نفسه كاد يتحول لشجرة عدة مرات لولا إرادة الأقدار التي حمته لما هو أهم.
مرت أيام الهروب الأولى صعبة تمتحن إيمان المرء بأخيه، بعضهم فرّ بمفرده وآخرون فقدوا ثقتهم بجهير ذاته الذي تخبطه الخوف، فلم يدرِ حقًّا للصواب طريقًا.
اتخذوا من الأدغال سترة لهم، يجن الليلَ فيتحركون، قرر جهير أن يعودوا إلى حيث هوار، لماذا؟ لم يعلم، لكنه أدرك أن ميتة الشرف أفضل ألف مرة من اللعن وسط الغابة أو الموت هاربًا من العدو مذعورًا، فإن كان المرء لا بد للموت ملاقٍ، فليستقبله بصدر رحب تملؤه الهيبة والشرف.
كل محارب ومقاتل رُبي منذ الصغر على أن هذه اللحظة آتية وإن بعُدت، انعطف بالجند الباقي عبر شعب الأدغال دون دليل لم يسعفه سوى ما تذكره من اللفافة، وقد كانوا يقترعون أيهم يتقدم الحشد قبل كل طلعة شمس.
بلا لواء يجمعهم ولا هدف يوحد وبنفوس منكسرة جلسوا حول النار، وكانوا سرية وبعض سرية.
جهير داعب الألسنة الذهبية بغصن جاف، يحرك الحطب المحترق أسفله ضامًّا إليه سيفه العريض.
بصوت رفيع قال أحد الجند:
- بئس الملك من يتخلى عن بنيه.
التفت زميله له بذعر قائلًا:
- الويل لك! أتود أن تهلكنا؟!
- دعه.
قالها جهير مزدرًا آخر قطرات الماء التي بقيت بقربته، تأملهم جهير فلم يرَ غير ما يرون، لماذا تركهم حكيم وإلى أين ذهب!
البعض قال إنه علم بالهلاك الذي أحاط بهم فنأى بنفسه، لكن إن علم لمَ لم يسعف الجيش كله؟ بعض الكلام منقوص تلك القصة فلم يشأ جهير الحكم على ما لا يعرفه.
- نعود إلى هوار غدًا يا رجال.
- ونذهب للموت بأرجلنا؟
- بل نخط مجدنا بصفحات القدر، لا تقلق إن كان مصيرنا الموت هنا أو هناك فلنذيقنهم ما لا قِبل لهم به.
أضاق عينه الملتمعة قائلًا:
- سيندمون.
كان وجهه غاضبًا، حتى عسكره خشوه بتلك اللحظات، بالصباح الباكر كانوا على أطراف سهل هوار بالقرب من التلة اليسرى حيث هربوا أول الأمر.

رأوا معسكر رحبان قد نصب قبالة المدينة والجند على عدد الذي قل عما أخذه رحبان وقتما ذهب إلى تمرذ قد قرعوا نخوب النصر، نصر خلط بدماء الإخوة التي لا تزال رقاقة على الأرض النجسة.. أرض ناقضي العهد.
تسلل جهير رفقة جنده بين الأحراش ملتفًا حول أسوار المدينة، لم يعلم لها مدخلًا غير بابها الشرقي الذي أشار لمديمة عمارية حيث الخان حاكم الأرض.
تمنى لو يكون ما سيفعله على ألمه لهم سيجلب لعدوه الألم، أكمل مسيره يرمق حرس السور الأرض بأعين مخمورة، بينما تتعالى الضحكات من الداخل.
اختلج صدره، فأنى له أن يرى جثث جنده لا تزال متفحمة أمام المدينة وأقذار السهل يتغنون بالداخل بنصر أتاهم غدرًا على أيدي بنيهم!
فكر بألف طريقة وطريقة ليسقي بها رحبان كؤوس العذاب حتى كان أقرب شيء لذلك المعسكر.
أشار لبعض الجند فابتعدوا أكثر عنهم حتى كانوا بشماله الغربي، ببطء شديد خرجوا من بين الأشجار رافعين أيديهم.
سرت حركة سريعة بالمعسكر وتصدر لهم ثلة من الخونة العاصفين الذي صاحوا بهم:
- عندكم!
- أتينا في سلام، خلعنا بيعة حكيم، أتينا في سلام.
اقترب منهم أتباع رحبان بهدوء، صاح أحدهم:
- وما الذي يثبت لنا صدق كلامك؟
- من يترك جنده ليس كفئًا أن يكون ملكًا، وقد أيتنا راجين أن ننضم إليكم.
نظر بعضهم لبعض والحيرة تعزوا وجوههم، تقدم كبيرهم قائلًا:
- لندع أمرهم للزعيم، هو يبت فيهم.
ثم اقتادهم لقلب المعسكر حيث كانوا مدبرين، الخيم تقاربت والطرقات غرقى بالجعة، بعض اللحم النيئ ملقى هنا وهناك، حالة عارمة من الفوضى ضربت المعسكر الذي ما كان ليكون على ما هو عليه إن هو تحت إمرة جهير.
الوضع أقرب لوكر مرتزقة وليس جيشًا لأرض عظيمة كالعاصفة، على كل اقتربوا من النار الكبيرة ببطن المعسكر حيث جلس رحبان بكرسي أعلى ممن حوله قليلًا يلوك فخذًا مشوية حتى مثلوا أمامه.
قال بصوت ثقيل:
- فيمَ جئتم؟
- عصبة من رجال حكيم يدعون أنهم خلعوه ويريدون الانضمام إلينا.
أطلق عدة نظرات نحوهم، ربما هو خائن، ربما لا يحب الاتساق بحميد المبادئ، غرق بكثير من الذمائم، لكن السفه لم يكن إحداها.
- وأين هو؟
بصوت متردد قال أحد الجند:
- تركنا يا سيدي.
بدت أمارات التعجب على محياه، اعتدل في مجلسه قائلًا:
- أكمل.
- لا شيء، فقط تركنا قبل الزحف إلى هوار، أقسم أن هذا ما حدث.

سكت برهة، ثم قال:
- قتلنا جهير وهربنا إلى هنا.
ضحك رحبان حتى رنت الأجواء لضحكاته:
- تقول قتلت جهير؟
ضرب ركبته لشدة الضحك غير مصدقًا حرفًا مما تفوه به الأسير:
- اسمع يا فتى، غر مثلك ما كان ليدرك سيف جسد جهير ولو بعد ألف عام.
- لدي ما يثبت صحة كلامي.
أرجأ رحبان وجهه إلى راحته ساخرًا:
- أرني.
أخرج الأسير خاتمًا ذهبيًّا لا معًا اعتلاه حجر من الزمرد اللامع، سرت رعشة بجسد رحبان، يعلم جيدًا أن هذا خاتم جهير حقًّا.
- أين جثته؟
اعتدل إلى الأمام بوجه حانق، ثم أتبع:
- أريد جسده.
- بالقرب من هنا.
أشار لزمرة من الرجال أن يتبعوهم آتين بجسد جهير، فخرجوا يتقدمون رجال رحبان والسيوف تحد ظهورهم، خطوات تلو الأخرى حتى كانوا بقرب الغابة ثم سكنوا.
- أين هو؟
- أنا هنا!
أتاهم الصوت غليظًا لم يتبعه سوى ضربة بالسيف العريض إذ ركض الأسرى بعيدًا عنهم فأطاح بضربة واحدة رأس اثني منهم ولم يكن الثلاثة الباقون بأفضل حالًا، فقد اخترقتهم رماح باقي جند جهير.
ركدت أجسادهم أرضًا ولم يكن هناك متسع من الوقت للتفكير سوى بالخطوة التالية.
اقترب جهير من الرجال الذي لم يكادوا يصدقون أنهم نجحوا وسرعان ما تلوا تفاصيل المعسكر وعدد الرجال وعدتهم وما رأوه من مداخل ومخارج.
لم ينتظر جهير أكثر من ذلك بالجند هناك أثمل من أن يقاتلوا وإن أجهز جند السهل عليهم بعد الثأر من الخونة فلا فارق، المهم ألا يبيت حقهم وحق جندهم ليلة واحدة أخرى خارجهم.
وزع الجند سريعًا على المداخل والخارج، وانتظروا حتى علت صيحة من المدخل الشرقي:
- الموت للخونة!
واستل سيفه العريض يطعن يمنة ويسرة، يقتل حتى من لم يتسنَّ له ترك القدح لحمل سيفه، أقبل عليه الجند من الناحية الأخرى فاستبسل جنده أكثر وأكثر حتى كان الواحد منهم لا يضرب الضربة إلا وأتبعها بأخرى.
شق الصف متقربًا من بطن المعسكر منشدًا:
وجاهل مده في جهلـه
أني أذود بفاهي عن سوء النوايا
فارفع رماح العز عاليـة

وأجمل ببتار يحصد من جل المنايا
وأثمل من سكرات حرب
تذيق من الويلات الذل الدنيا
ألم يعلم عدوي مني بأني أورد من صفر الأرض حمر الدماء، وأُسمع بنعيق السود لقتلاي الرثاء.
لمح رحبان هناك يرنوا يمنة ويسرة، كان يجب أن يرى ذلك قادمًا، صاح جهير:
- إليّ يا ابن الغانية.
تصافحت السيوف وغرقت الأرض بدماء إخوة الأمس.. أعداء اليوم، لم يكن منهم سوى أن يكملوا حتى يغلب أحدهم الآخر.
تعالت الأبواق من أسوار هوار وشد الأقواس، كل شيء سينتهي، أو ربما هي البداية.
صرخة حادت أثيرية هزت الأفق، تلتها صرخة مثلها، سكن كل شيء، جنود السور والمعركة القائمة كل شيء سكن لتلك الصرخة المريعة التي كانت لتذيب الجبال.
سرى الهواء باردًا قاسيًا بينهم، وأخذت الأرض تهتز أسفل الأقدام.
بطرف السهل الأيسر تعالى الغبار حتى ملأ الأفق، لواء جديد قد رفع عاليًا، علم أحمر قاتم لا رمز به ولا كنية.
تشكيل كالسهم تحرك بسرعة مهولة عبر السهل، لم يرَ أحدهم منظرًا كهذا من قبل، حكيم يقود سيلًا من الوحوش الفتاكة ممتطيًا إحداها تركض جميعًا على أربع بسرعة كالسحالي.
كان منظرًا ليسبب الرعب لأي إنسي مهما كانت رجوليته، حتى جند السور بعضهم أرخى نشاباته، صاح أحدهم:
- أطلقوا!
تعالت صرخاتهم بينما عدة أسهم انطلقت لبحر اللواخذ التي راحت تتسلق الجدران بشكل لم يرَه أحدٌ من قبل.
جهير استعاد بعض اتزانه، بينما بعض تلك الوحوش مرت بجانبه سريعًا، لم يرَ شيئًا يقتال كذلك، لم يكن قتالًا، وحتى ضواري الأرض كانت لتذعر من هول المنظر، أيادٍ أو أقدام كلها أطراف تحرك بها بمرونة بالغة فرصعوا هذا بمخالبهم اللامعة والتهوا ذاك.
حتى حوصر رحبان وتوقفت اللواخذ عنده، حكيم ممتطيًا أحدها يرمق هوار العظيمة تتداعى له، بداخل الأسوار تعالت الصيحات، آلاف من الوحوش الضارية فتكت بهم، فقتلت ما أبقت حتى كادت تقتل بعضها، لم تكد شمس تأفل إلا ولم توجد روح واحدة حية بين الجدران.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بصباح اليوم التالي كان حكيم قد دخل هوار الخاوية مستقرًا بقصر الملك العظيم بها، طرق هوار لم يعد يعرف المرء لها معلمًا، طولًا أو عرضًا فقد ذابت البيوت ومثلت الوحوش منتصبة على أطراف الطرق حتى جند حكيم أنفوا منها.
ترمق الوحوش البشر بأعين جامدة كالحجارة تنتظر أمر سيدها الذي أنقذها من مرقدها.
أمام عرش حكيم الذي اتكأ يداعب رأس لاخذه الذي أسماه (مهلك)، مثل رحبان بوجه مصمت، لم يعلم ما الذي جرى، كل شيء حدث بسرعة كالبرق.
قال حكيم بصوت جهوري:
- قل لي يا جهير.. أعلمت نبأ راغب السماري الذي قاد التمرذ؟

كانت نفس جهير لا تزال ممتعضة من حكيم، لكنه نوعًا ما شعر نحوه بشيء من الامتنان.. الامتنان والخوف، نظف حلقه ثم قال:
- نفيَ إلى كهوف الزيت.
- نعم هذا أيام الخانع.
اعتدل حكيم بجلسته ثم أردف:
- يوم وليت عرشي وعدت بنيَّ بعهد جديد.
أضاق عينه متبعًا:
- ولا أنتوي نقض عهدي ذاك.
أرجأ ظهره للخلف يتأمل رحبان الذي اتسعت عيناه، ركع أمام حكيم قائلًا:
- الرحمة، الرحمة يا سيدي.
- صدقني ما ستذوقه رحمة لك.
جهير لا يزال يتأمل حكيم بتلك الحلّة الجديد التي لم يرَها من قبل، حلة باردة قاسية لم يعتدها عليه.
- مهلك.
رفع مهلك رأسه بعين ملتمعة وفم يسيل منه اللعاب.
- هاك غداؤك.
- أرجوك.
تراجع رحبان على الأرض حتى زحف مدبرًا إياهم، إلا أن مهلك لم يدعه يكمل تلك الخطوات وقد غرس مخالبه الحادة بظهره وراحت أنيابه تنهش بلحمه.
على صيحات القذر وتوسلاته ارتفعت هتافات الجند:
- عاش حكيم اللاخذ.
مرددين إياها عدة مرات، غمغم حكيم:
- اليوم هوار وغدًا عمارية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلوان

قبل أن يترك مخدعه ألقى نظرة نحو اللوح الخشبي بالأرض الخشنة، لم يدرِ لماذا خشي على هذا الكتاب! شعر لوهلة أنه أمسكه من قبل.. ليس الآن ولا حتى منذ زمن.
على كلٍّ خرج مسرعًا إلى الرواق الواسع حتى بلغ باب القصر بعد حين، فإذ بالساقي أمام البوابة الحديدية الكبيرة يلهث متعرقًا.
- ما الذي حدث؟
- الغلام.
لم يدعه يكمل كلماته حتى خرج من الباب جارًّا إياه أمامه.
- أصيب بأي مكروه؟
نظر له الساقي مذعورًا، شد جلوان قبضته على كتف الرجل صائحًا فيه:
- أجبني.
- أقسم لك أن كل شيء حدث بسرعة.

صمت جلوان منتظرًا تفسير الساقي الذي أردف:
- الضواحي... لقد انهارت.
متعجبًا نظر إليه فلم يكد يتمها إلا وقد علت الجلبة بقلب القصر وتحرك الحرس بها هنا وهناك كأن شيئًا ما قد ألمّ بهم.
التفت يمنة ويسرة، ثم غمغم:
- اشرح لي كل شيء بالطريق.
وقاده أمامه حتى أشار لعربة أن تتوقف فلم تفعل، يوم غريب من صباحه العكر، وكأن أكل حلوها قد ذهب مع موت رهوان.
لم يجد بدًّا وقتها من الركض حتى المكان الذي أشار له الساقي، قال لاهثًا:
- كل شيء كان طبيعيًّا، فجأة انبلجت الأشجار بيننا من حيث لا ندري.
دمعت عينا جلوان قائلًا:
- نزار بخير؟
- أقسم لك لا أعلم.
ولحسن حظه وجدوا خيالة الحرس الذي ما إن علموا أنه من حملة الشعلة حتى أوصلوه بسرعة إلى حيث الفاجعة.
حشود من الناس اجتمعت أمام خط من الحرس حال بينهم دم متابعة الطريق، وبالأفق برزت أشجار الزفير تعلوا شاهقة أعلى من أي شيء شهدوه من قبل، لكن المخيف في الأمر أن بقلب أسوار قبس.
وجلت القلوب واهتزت الأفئدة، اقترب جلوان أكثر غير مستوعب أن نزار يمكن أن يكون واحدًا من تلك الأشجار الآن، ذاك الطفل اليتيم الذي كفله ورباه وعلمه وبلغ بقلبه مبلغًا عظيمًا لم يكن مستعدًا أبدًا ليراه آل إلى شجرة سوداء.
دنا من الحرس ببطء تعلوا دقات قلبه مع كل خطوة يضعها على الأرض الطينية العطنة، ذهبت ريح الأزهار التي كانت زين الأركان، كل شيء اكتسى بداكن الألوان، أم صاحت باسم ولدها وتنازع الحرس كي تعبر، طفل صغير يصرخ "أي أبي" فما من مجيب.
لأول مرة يبدو سكان قبس بهذا المنظر، لم يعاصر أي منهم خريفًا نشطًا من قبل، فهم بداخل بيوتهم آمنين تأتيهم المؤن التي أمنها لها جنودهم الأشاوس، أما الآن فخبر الأشجار التي اعتلت أطراف قلب نبراس سيصدح بالقارة كلها.
كم ملكًا سيتبسم طربًا لهذه الأنباء! ألف فاه وفاه تشدق عنهم بخبيث الحديث، ملأ جلوان عينه بالمنظر متذكرًا قرية الصيد والماضي الذي ما آن له آن.
اقترب من الحرس صائحًا:
- دعني أمر.
- عد فما من درب غير الهلاك خلفنا.
لم يكن يعلم أنه سيستعملها في يوم من الأيام، مد يده بصعوبة بين الناس إلى جيبه متحسسًا تميمته الناسة، أخرجها صائحًا:
- أرسلني كبير الكهنة.
برز على التميمة نحت غائر لنار متأججة صفراء، حار الحارس بأمر حتى رفع له يده ليمر قائلًا:
- كن حذرًا، لا يزال الرحيق بالخلف نشطًا.

أماء له إيجابًا لاثمًا وجهه ببعض عباءته الفضفاضة منطلقًا إلى الأمام، سلك الدروب يمنة ويسرة، حتى المنعطفات ميزها بصعوبة، دقائق اختنق بها الهواء وقتل الصمت الأجواء وتجلت رائحة الموت ضيفًا ثقيلًا عليه، لم يكد يعبر بزقاق إلا وبه اثنين أو ثلاثة لا تزال أطرافهم تطول صارخين.
سرعان ما برز أمام الحانة لاهثًا، ركع قليلًا محاولًا التقاط بعض أنفاسه رويدًا، انتصب بوقفته متأملًا بناية الحانة التي لم تكن طويلة ولا قصيرة، عدة طوابق بعضها فوق الآخر لم تتعدَ الثلاثة أدوار.
كان الباب مهشمًا ومن خلفه انسل الغبار لدمار حديث ألمّ بما خلفه، دفع أطلال الباب المتساقط نافضًا الغبار من أمامه، يخطو خطوة متحسسًا موطئ قدمه وقد انعدمت الروية أمامه.
داس بقدمه الكثير، أحشاء رجل خذلته قدماه هربًا من الانهيار، حطام زجاج وحجارة وعديد الكراسي والأخشاب، كان الغبار ثقيلًا أصفر ناعمًا ذا رائحة نفاذة، وقتها كان جلوان أقرب شيء للرحيق، أقرب حي له منذ أن عرفه الناس.
تسارعت دقات قلبه، أخيرًا وصل لنهاية مسدودة، ركع أرضًا، انهار كل شيء، قامت الدنيا فما قعدت، أمام عينيه وجه الفتى الصغير تخشب صارخًا مسودًّا تلتمع بالسقف أوراقه الزرقاء.
دمعة مالحة انسلت من وجهه المتصلب، صرخ جلوان:
- نزار!
علم أنه هو، لم يحتج أن يتأكد من أي شيء، فقد بدا وجهه واضح المعالم عليه، شعر بكبده محترقًا، صرخ، بدت أصوات حياته كلها همسات أمام صرخاته الآن.
التف الرحيق المميت حوله، رخى أطرافه مستسلمًا لقدر الذي لا بد ملاقيه، أفرغ رئتيه من الهواء دامعًا، تذكر رهوان، والآن نزار، ثم شهق بأقوى ما امتلك من قوة.
شعر برحيق الموت يغزو صدره، ألم راح ينهشه، يأكل لحمه رويدًا كأنما أمسكته النار حيًّا، ضمّ نفسه ملتويًا على الأرض.
تُرى ما هو شعور أن تصاب باللعنة، أن تطول أطرافك وتتفتت عظامك! انتظر أن يشعر بكل هذا لكنه فقد الوعي.
جسده خفيف للغاية، شعر بنفسه منسابًا كريشة تقودها الرياح، عينه مغمضة لم يمتلك فتحها ولم يقوَ على التحكم بأي من بدنه.
صوت أثيري دافئ انسل إلى عقله قائلًا:
- سترى كل شيء، ستعلم كل شيء.
بدا له الأمر أنه يرى خلف جفونه، أبصر أرضًا جدبة بيضاء ناعمة ذات عشب أبيض كأنها يابسة القمر، بمنتصف تلك الأرض وقف اثنان يتصارعان، تارة بلكمات وأخرى بما يجدون من سلاح بالصدفة بين أيديهم، بدا أحدهما أكبر من الآخر، كان أسود الشعر قاتمًا ذا تجاعيد غزت محياه، وأسفل نور القمر طرح خصيمه أرضًا الذي نظر له نظرات كلها كره وحقد، حتى جلوان استطاع أن يراها رغم بعد المسافة بينهما.
صاح الأسود منتصرًا:
- لست ندًّا لي، ولن تكون.
ابتسم المهزوم ساخرًا:
- وحدي نعم.

عمَّت لحظات صمت كانت كفيلة بقتل الكلمات في مهدها، انطلق شعاع أرجواني من ركن بعيد نحو الأسود الذي تفاداه بسرعة، كانت مطلقته امرأة اتشحت عباءة خضراء، لم تترك له أي متسع من الوقت وانقضت نحوه ليستمر القتال، لكن كفة الأسود مالت للنصر رغم تفوقهم عليه عددًا.
تمكن منه مرة أخرى وانقطعت أنفاس الأمل له، رنت المرأة بعينها نحوه، ملقى على الأرض يستوّل الهواء بصعوبة، بينما هي غزتها الجراح وبالكاد وقفت منتصبة.
بدا أنها عزمت أمرها على شيء ما، فكرت مليًّا ثم تبسمت دامعة مرة أخيرة نحو الصريع الذي لم يكن يدرك أبدًا أنها قد تفعل ذلك، ألواح القدر بالسماء تمسح صفحات وصفحات مما كتب لتدون تاريخًا جديدًا سيتحاكى الناس به.
نظرت إلى بدر السماء الذي بدا أكبر من أي شيء مضى، حتى الأسود بدا متوترًا، انطلق شعاع نور وهّاج منها فاخترق السحب حتى قرع قعر الأعالي، سمع جلوان همساتها بقلب النور:
- سامحني.
اهتزت الأرض واحمرت السماء وتشقق الغمام، نبتت الجذور سوداء عديدة بعدد حبات الرمال، التفت والتحمت مع بعضها البعض ازرقت أوراقها بينما هي تعلو وتعلو.
تشكل وجهها غاضبًا على اللحاء الأسود، وراحت أيدي الشجرة العملاقة تنقض على عدوها بالأسفل الذي وقف ذاهلًا للحظات.
لم ولن يمكنه فعل أي شيء، نزلت الجذور فدمرت الأرض وطاردته وترمد السهل الأبيض فما بقي به حي، دقائق مرت كانت الجذور قد قبضت على الأسود الذي علت صيحاته.
رفعته عاليًا حتى دنا من وجهه، ثم قالت:
- الآن ينتهي كل شيء.
بصوت منهك متقطع ضحك ساخرًا:
- بل الآن يبدأ كل شيء.
ثم انفجر مخرجًا ألف شعاع، كل منهم استقر بمكانه الذي ذهب إليه.
سمع الصوت الأثيري وقد بدت معالمه الأنثوية:
- لم ينتهِ الانتقام، ستعود وأعلم ذلك، أحدهم سيفعل، وعندما يأتي الوقت سأستيقظ من سباتي.
شعر بالصوت يحادثه:
- يا وليد الظل، يا من حميته شر أذاي، آتني بدماء سراج، اسقينيها وأنقذ الأرض من مهلك سيحيق بها إن لم تفعل.
لم يفهم ببادئ الأمر الذي طُلب منه، لكن الصورة تغيرت أمامه ليراه بالزنازين، شعر بوجهه مؤلفًا بعض الشيء، لكنه شعر بالدماء العظيمة تجري فيه، دماء الملك التي حكمت الأرض فيما مضى، دماء الفضة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مصباح

وقف بأعلى برج القلعة بكاتب الحمائم، فض عدة رسائل ودوّن أخرى، مصباح رجل ذو علاقات متعددة، يعرف حكام الشرق والغرب وتقلبات الشمال وسكان الجنوب، يعلم إذا ما أمطرت بقرى النسان، تأتيه أخبار وديان عدم.

علم أن الملك حكيم سحق كملة وتمرذ، لكنه لم يكن مطمئنًا لما أتاه من أنباء عن جيشه، على كل ترك الأيام تقرر المصائر التالية.
فمن الأعلى رأى قبس بأكملها، وعلى الرغم من قلة الهواء بمكانه إلا أن المنظر كان ليسلب الألباب، شبكة الماء تجر العذب إلى مساقيها، بينما الناس كالنمل يراهم من علٍ.
لبرهة توقف كل شيء، دقق النظر إلى الضواحي ليلمح نورًا أزرق تعالا من بعيد.
كذّب عينيه، كيف ومتى قد يحدث شيء كهذا! الخريف أبعد ما يكون عنهم الآن، وحتى الأشجار التي أحاطت قبس كانت من النوع قليل الرحيق، فكيف تبرز الآن أشجار داخل الأسوار؟!
هبط الدرجات بقلب تسارعت دقاته شاعرًا بالأرض أسفله تنتفض لحركة الجند، سرعان ما استوقف أول حارس اعترضه بالسلم، قائلًا:
- يا هذا، ما الذي جرى؟
- ظهرت أشجار الزفير بالضواحي فجأة ولا نعرف السبب.
ولم ينتظر حتى ردًّا من مصباح تاركًا إياه، طالما كان رجل تحليل وتروي، لن يفعل أي شيء دونما أن يعلم، كل العلم نافع وليس كثيره بضار.
هرول إلى مكتبه سريعًا مقلبًا بالأوراق، أطاح بحاملة الحبر وعدة أوراق، عمّت الفوضى كل شيء، شهوته لمعرفة المجهول مفرطة فلم يتدارك نفسه.
اقتطع بحثه صوت بعتبة غرفته قائلًا:
- سيدي.
لم ينل منه أية نظرات فقد انهمك ببحثه بشكل جنوني، إلا أن الحارس سارعه قائلًا:
- مجلس طارئ سينعقد الآن وجلالتها تطلب حضورك.
- سأفرغ وآتي.
- كلفتني باصطحابك... الآن يا سيدي لا وقت لدينا.
رفع مصباح رأسه إليه متأملًا، فعلم أنه لا بد من ترك ما به وقد يعلم أي من بالمجلس شيئًا عما حدث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الطاولة المستديرة جلسوا كلهم يعتريهم التوتر، حتى ميثاء ذات النظرات الجامدة والقلب البارد بدا القلق جليًّا عليها.
قال مبخوت:
- البعض قال إنه عقاب حرق المرتد.
تنهدت ميثاء، ثم قالت:
- سد أفواههم بأي حجة، ثم إنه زنديق وتعلم ذلك.
قاطعه جبير بنبرة مغتاظة:
- تسبحون بفلك آخر، رجالي بالأزقة يخلون من استطاعوا وأنتم تبحثون عن حجة!
التمعت عيناه قائلًا:
- الناس يموتون بينما نحن نتحدث، أرى أن نجد حلًّا للموقف ووقت التعليل له آنه.
أضاقت ميثاء من عينيها قائلة:
- فليرحم الله أهل الضواحي.
راعت رأسها لجبير قائلة:

- أغلق الضواحي وأعد من عاد من هناك.
- كيف ذلك، أنقتل الناس وقد خرجوا من قلب الموت؟
- بل نحيي ما تبقى من سكان قبس، أونسيت أن الرحيق قد يكون خاملًا، لن نتحمل تحول أحدهم فجأة بين الناس.
نهضت من مجلسها قائلة:
- لا رجعة في هذا، موت شاة أفضل من موت القطيع كله.
ثم أدبرتهم خارجة من المجلس.
مُلأت كؤوس وقُرعت نخوب لا مرد لها، أنارت الأرواح القدر بحب أسود على صحائفها بالأعالي، بينما تبسم مدونها فرحًا بما هو آت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بقلب غرفة العرش استوت على عرشها، عرش نبراس التي تحكم جنوب القارة كلها، كرسي واحد تخضع له أمم، أرجأت وجهها إلى راحتها متأملة الفرش المحمرة ونار الشعلة الأبدية تخرج من فرجات بالحائط تزين المكان.
صفوف من الجند دلفت إلى المكان فغطوا جوانبه، جبير يتقدمهم بصدر منفوخ وعين محمرة.
- أهذا ما تريد؟
- ليس ما أريد، بل ما يجب فعله.
- أتمنى ألا تندم.
- أرجو ذلك.
وقفت عن عرشها مودعة إياه، اتسم جهير من اللباقة ما منعه من تقييدها أو إيذائها، فقط ترك الجند يقودونها نحو سجنها ومكانها الذي ودّ لو لم تضطره الظروف لفعل ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوس

عهد قد ولت أيامه، ماتت الملكة فلم تترك لهم وريثًا، لكنه كان يعلم، أوس الوحيد خارج كبار القصر من يعلم بأمر ميثاء، فقبل كل شيء إطعامها بمحبسها كان مسؤوليته، لم ينعم الأيام الماضية بكثير من النوم.
كوابيس مزعجة طاردته مرارًا، رأى معبدًا راسخًا يحلق الطير من فوقه، بينما الصلوات تعلوا منه وقبل أن تصله تدركه اليقظة.
بالأيام التالية اعتاد أخذ الطعام كما أمره أمين الخزنة مصباح وحتى زنزانة الملكة التي أشفق هو لحالها، تلك الوردة المتفتحة التي أنارت القصر دومًا قد سقطت بتلاتها وذهب نورها.
لم تكن تنطق بأي كلام، وحتى طعامه الذي أتاها به كل يوم لم تأكل منه إلا الشيء القليل.
أثناء إعداده الطعام بأحد الأيام أتاه أحد الحرس برسالة دقت بختم مصباح، فأخذها منه ليقرأ ما فيها، ارتعشت يده ووجل فؤاده، حظ تعس ذلك الذي قاده لما هو به الآن، تذكر أمه وكيف عاش بأرض الغابة، ربما أخطأ بإتيانه إلى هنا، لا أحد يعلم.
جمع الطعام كما اعتاد أن يفعل، الطريق إلى الزنازين لا يعلمه كثيرون ممن بالقصر، سلك الدرب عائدًا إلى سكنى الخدم منها قصد السهل الذهبي يتحسس خطاه حتى وصل إلى باب مربع بالأرض

اختبأ بين الأزهار والحشائش.
تأكد من أمن المكان، ثم رفع الباب كاشفًا عن سلم منحدر لبطن الأرض، فلم ينتظر كثيرًا وسرعان ما أكمل الطريق.
الممر ضيق هواؤه قليل، فإن كانت القلعة بأعلى نقطة بقبس فلك أن تتخيل الزنازين التي سكنت بطن الأرض المرتفعة!
شح النور من مروره به، لكنه كان على علم بالمكان، أحجار الأرض عريضة خشنة يعلو صدى قطرات الماء بأركانها بين الفينة والأخرى، لم تكن الزنازين سوى ممر ضيق قاد إلى عدة عنابر غطتها القضبان.
ليس من أحد هنا عدا حارس بأول الممر كان على علم بأوس فقاده حتى محبس الملكة، مر بثلاث زنازين حتى وصل إليها، كانت ملقاة على الأرض غطتها طبقة من الأتربة ترمق السقف بعين جوفاء.
على الرغم من أنه حديث عهد بالمكان إلا أن أحدًا لم يكن ليمنع نفسه من الشعور بالشفقة نحوها.
فتح الباب لأوس عائدًا إلى مكانه بأول الممر بعد ما اعتاد تواجده الكثير هنا، تقدم منها بعين لامعة وصدر وجل، ثم جثم عندها هامسًا:
- سنخرج من هنا.
رفعت رأسها نحوه بسرعة، فتدارك نفسه قائلًا:
- أرجوكِ لا تسألي عن شيء، فأنا نفسي لا أنفذ سوى ما قيل لي.
أماءت له إيجابًا، التمعت عيناها وعاد إلى وجهها بعض نضرته التي اختفت.
- اتبعيني.
تلفت يمنة ويسرة ليرى الحارس ارتاح إلى كرسيه حد الاسترخاء مدبرًا الممر بما فيه فاطمأن قليلًا، بحركة خفيفة خرج تتذيله ميثاء، مشى عدة خطوات حتى بلغ آخر محبس وقد كان كما كُتب له.
لم تكن بقضبان كسابقيها؛ بل كانت مكشوفة، أخرج الورقة من جيبه متذكرًا ما فيها، على الجدار الصخري أمامه مد يده عادًّا بيده شبرًا فالثاني حتى شعر بالحائط يهتز من خلف يديه، ضغط عليه، فإذا به قد دخل بالجدار الذي رجف قليلًا لتهبط حجارة من منتصفه بالأرض كاشفة عن ممر ضيق.
- يقود هذا الممر إلى خارج قبس.
أعطاها ورقة كانت مرفقة مع الرسالة، قائلًا:
- سيدي مصباح يحييكِ.
فتناولت الورقة منه، لا يزال عقلها مشوشًا، لكنها قالت:
- أبلغه سلامي.
أماء لها إيجابًا قبل أن تبدأ فتحة الممر بالانسداد فدخلتها سريعًا.
كان كل شيء ليكون مثاليًّا لو توقف الوقت هنا، لو انتهى العالم كله هنا لكانت حكاية أخرى، لكن كيف، تنهد أوس محاولًا نسيان كل ما حدث.
ملأ صدره بالهواء وإن كان مكتومًا، شعر بأعين تراقبه، أعين مصمتة تخترج الجدران إليه.
حدث كل شيء سريعًا، دخان أسد انسل عبر فتحات الجدار ميَّسًا بسرعة مهولة، التفت حوله كأنما يتحسسه، شعر بالذعر يجري بأوصاله، رائحة نفاذة أفعمت المكان كان يعلم جيدًا مصدرها.

تخثر الهواء تدريجًا حتى شكل رجلًا، لم يعرفه أوس، لكن الآخر عرفه، انتصب جلوان أمامه بعين جاحظة محمرة، لم ينبس ببنت كلمة، فقط عاد لهيئته السديمية مبتلعًا إياه ليتبخرا سويًّا كأنما لم يكونا قط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حكيم

تمر تلك الأيام، حكيم يزحف بجيش اللواخذ الذي يأكل بطريقه الأخضر واليابس، ذكية تلك الكائنات، فقد مرت بنعومة بين المدقات متفادية الأشجار.

عمارة صامدة، تقف أبد الدهر بآخر أرض السهل لم تسقط ولو مرة واحدة عبر التاريخ، تلك القلعة حكت ولا زالت تحكي ملحمة صمود أبدية، أهلها مؤمنون بالجدران، يقدسونها أكثر من الجريح ذاته، يخشونها أشد من الزفير.

يقول أهل عمارية إن المخلص يولد من رحم الجدار لينهي كل شيء، سيأخذ معه اللعنة ليعود السهر أخضر يانعًا يفيض بالخير.

جهير عانى بتلك الأيام، منذ عاد حكيم وقد أبعده قليلًا عنه، أحب العزلة كما لم يفعل، لم يدرِ ماذا حدث بغيابه أو ما تلك الكائنات وكيف طوّعها، لغز لا يعرفه أحد، حتى السريات اللتان أخذهما معه لم ينطق أي منهما بشيء.

تُنهب الأرض، تستوي عدا الأشجار التي بزرت عتيقة بها، تبخرت البيوت، مات أهل البادية الرحل، حتى من بقي من البشر بجيش حكيم خشوه، أطاعوه كرهًا، لم يحب أحد حكيم بعد تركهم له، لكن جزءًا من الامتنان لعودته تولد بصدورهم، وجل طاعتهم نبع من قريحة الخوف المتوقدة بصدر كل منهم، وأنى لهم ألا يفعلوا! ليلًا ينامون بأنين اللواخذ التي تزوم مانعة نفسها عنهم بشق الأنفس، بعضهم استيقظ ليجد إحداها فوقه بلعاب سال على وجهه وعينان التمعتا احمرارًا.

قبيل عمارية جلس حكيم بخيمته، ملأ صدره بعبير الليل الصافي، ناجى الأرض والسماء، سمع كلمات من هنا وهناك، رأى فيما يراه النائم عدة صور وأشكال، لكنه لم يشغل باله بقدر يوم غد الذي سخطه بيده بألواح القدر.

دخل جهير الخيمة صامتًا، لم يكن من النوع الذي يهاب، فطالما عرفت خلافات مع سليمان من جبل حكيم، لكن الواقع أنه كان حذرًا، ود لو يعرف تفاصيل رداء حكيم الجديد الذي اتخذه لباسًا له.

أدبر حكيم جهير مفكرًا:

- ترى بعد فتح عمارية، ماذا نفعل؟

أجابه صمت جهير الذي جلس إلى كرسي بركن قصي عنه. تنهد قائلًا:

- كنت لتقول دع الغد للغد!

- جيد أنك لا تزال تتذكر بعضًا عني.

- ما بك يا جهير؟

التفت حكيم له بينما جهير أضاق عينه قائلًا:

- ما بي؟ ربما لم تجمعنا فرصة للحديث بعد فتح هوار، بل بعد هتك هوار إن صحّ التعبير، لكن ألهذا حقًّا تركنا أرضنا؟ تركنا زوجاتنا وبناتنا لنفتح أرضًا من بها ما لهم ومال أفعال خانهم؟ قل لي يا حكيم كم رجلًا مات منذ بدأنا هذه الحرب؟

- لا أعلم، وفي الحقيقة لا أود أن أعلم.
ضحكة خفيفة انطلقت من جهير الذي قاطعه قائلًا:
- بالطبع لن تعلم، تركتنا أيامًا نقارع الموت وحدنا حتى كدنا نحفر قبورنا بأيدينا، تركت رحبان بجيش وحده ببادئ الأمر وأنت تعلم شر نفسه وقد عارضتك لكنك أبيت، أكنت تعلم؟ أرسمت هذا المشهد ليتغنى الناس بك؟ كيف ظهرت بقلب اليأس جالبًا الموت للأعداء الذين خانوا العهد، أهذا ما وددت سماعه؟
لمعت عينا حكيم، ربما كلام جهير منطقي، لكنه استصعب سمعها منه، صوت العقل مؤلم وإن صح:
- لن ألومك، اسمع يا جهير، إني أعلم مقام كل مقال وقدر كل فعل، وإني لست أحمق كي أقتل نصف جيشي لقاء كلمات يمكن أن تشترى بالذهب.
غمغم حانقًا:
- اعلم أن موتهم كان صعبًا عليّ كما هو صعب عليك.
- إياك! أكلت خشاش الأرض مع بعضهم بحرب التيه، ربيت كثيرًا منهم، شباب ورجال كل منهم له من ينتظره بأرض الوطن، إياك أن تدعي أن ألمك مثل ألمي.
- ارتقاء السماء صعب، ربما لو ادعيت رغبتي بهذا لنادوني بالجنون، لكني سأصعد التلال رويدًا ثم الجبال حتى شاهقها فأرتقي السحاب، وقتها فقط مس السماء وحتى اعتلائها لن يكون صعبًا.
- ماذا تقصد؟
نهض حكيم نفاضًا التعب الذي ألمّ به طيلة الفترة التي مضت مشيرًا خريطة لجنوب القارة علقت بصدر الخيمة، اتجهت يده نحو نبراس قائلًا:
- الحلم يا جهير، الحلم...
- الحلم الذي لا يحده سقف ولا تربطه بالمنطق أواصر ضرب من الجنون.
ضحك حكيم قائلًا:
- ألم أقل لك سأنعت بالجنون، أخبرني، كم طن زيت يخرج من أرضنا، كم منها يدخل خزائننا فعلًا، لقد فرضت نبراس علينا ما لا طاقة لنا به، أسموا أرضنا بدينهم وما هي عليه، أخبرني الآن بجند كجندي ولواخذي أنى لهم أن يقفوا بطريقي؟
ضرب على الطاولة قائلًا:
- أقسم يا جهير بحق كل نفيس، لن أرتاح قبل أن يدفعوا الثمن وهم صاغرون.
سرت رعشة بجسد جهير، فقد حكيم صوابه لا بد من ذلك، لكن بعض كلامه حمل كثيرًا من المنطق شعر هو به، أدبره حكيم بعد ما هدأت نبرته قائلًا:
- مع أول أنفاس النهار سنهجم عليهم، انصرف.
برهة صمت مرت كان عقل جهير يحاول معالجة كل ما سمعه، طموح حكيم، ترتيبه وخططه، بدا له أنه جهر كل شيء، لكنه لا يزال يخشى تلك القوة الجديدة، سلطان لا بد أن يقوده للهلاك.
- أمرك.
قالها جهير تاركًا الخيمة له بهدوء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبيل الفجر تنعم الأرض على أبنائها بنسائم هواء عليلة، تداعب خِضار الأرض الحِسان لتميسه بنعومة، تتسلل حتى مخادع النائمين ومعها تبث رعشات خفيفة بهم.

نام حكيم بعد قراع طويل مع الأرق الذي ألمّ به، قبالة خيمته رقد مهلك باسطا ذراعيه يعلو شخيره.
شعر حكيم بأنفاسه تقل رويدًا، ثقل قد حط على صدره، بهدوء فتح عينيه ليرى بخارًا أسود التف حوله، ذُعر بكمانه فحتى الصرخات تجمدت بحلقه، تجمع البخار متخثرًا أمامه حتى تشكل على هيئة رجل لم يبدُ منه سوى عيناه التي قطرت شرًّا إبان النظر إليه.
قبل أن ينبس حكيم ببنت كلمة سد الرجل فمه بيده مغمغًا:
- ستأتي معي.
وبلمح البصر عاد إلى هيئته السديمية مبتلعًا إياه قبل أن يختفيا تمامًا كأن لم يكونا قط، مع انسلال أول خيوط النهار دلف جهير إلى خيمته فلم يجد أي أثر له، وقف أمام فراشه يجول وقد غزته الحيرة قائلًا:
- أين الملك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كارم

لم يشعر بحياته قط بألم الرأس هذا الذي ألمَّ به، لم تزَل حروق جلده تؤلمه من حين لآخر كلما حرك يده أو شيئًا من أطرافه، تذكر أيام البحر عندما كان صغيرًا وكيف كان يجمد البرد أنامه فيلجأ إلى ركن السفينة حيث الهواء الراكد بينما هي تمخر بحر الضباب لينفخ بيديه علها تنال حصة من الدفء المسروق.
كل ما علمه أن المنصة التي حوت سلة زيت العسل رفعته بها، لم يدرِ أحد من الذي فعل ذلك، فحتى الحرس لم يكن أحد منهم ينتوي رفعه، ولو سحب السلسلة بقرار الهاوية ألف ألف مرة، فلما وجدوه ملقى بجوار السلة نقلوه ولم يكن أحد من قبل رأى زيت العسل رؤيا العين منذ قرروا منع استخراجه لئلا تتحصل عليه نبراس، زيت العسل ذاك هو سر النار الزرقاء، هو أسطورة يحلم بها كل عبدة سراج، يقال في بعض الأثر إن الشعلة الأبدية بقلب قبس كانت أرجوانية أول الأمر ثم ازرقت حتى صارت ذهبية مع ضعوفها.
سلة كهذه لو ذهبت لقبس لأعادت من جديد أشياء كان يحلم بها كهنة النور، وحكام العاصفة مدركون لهذا جيدًا لذا أوقفوا إنتاجه، بل أخفوا أمره.
استأثر السجان بالسلة لنفسه بالحجرة التي أذابت الجدار جوارها، حتى معدن السلة مجهول الكنه ليتحمل مثل هذه الحرارة.
رنا كارم بعينيه إلى طرف الفراش الخاوي، لا يزال عقله مشوشًا إثر ما رآه، حاول مرارًا وتكرارًا أن يتذكر فلم تجدِ أي من محاولاته، لكنه على كل حال لم يأبه أتذكر أم لا.
وعطفًا على حاله أعفوه من العمل يومين كاملين يمكث فيهما بزنزانته ترمقه أعين المارين، البعض نظر إليه بغير تصديق أنه هنا وآخرون شعروا أنهم شهدوا معجزة ستفرض نفسها بصفحات التاريخ القادم، راغب من بعيد يرسل النظرات إليه بين الحين والآخر، إلا أنه لم يحادثه منذ عاد من قلب الجحيم.
وبعد مرور اليومين خرج بجسده الذي تراخى، فلا طعام جيد وشراب، فضلًا عن جراحه التي لم تلتئم بعد، لكن نظرات كره اتجهت نحوه شعر بثقلها.
حاول أن يعود إلى عمله كما كان، لكن دون جدوى، تذكر حميد وتذكر صورته بقلب الدخان، أحقًّا تزوج بثينة؟ لا يعلم المرء عاقبة أمره إلا بعد فوات الأوان، لو استقامت الحياة الجزيرة من دونه

وصلح حالهم فلن يضيره شيء.
وقف بالصف ليسلم غلته كما اعتاد، رجل وراء آخر حتى أتى دوره، نظر له السجان عدة نظرات فاحصة قبل أن يشير له بالتحرك، جر قدمه بعيدًا عنهم، نسائم هواء لم يعلم مصدرها كنفته، هواء بارد منعش لم يشعر به من قبل، كان الأمر وكأنه ثمل لوهلة قبل أن يفيق على صوت الحارس الذي صاح:
- ماذا تفعل؟
كان أحد السجناء قد تناول مشعلًا وأخذ يقارع أحد الحرس، وسريعًا بدأ الهرج والمرج، استل الجند سيوفهم ولم ينتظر السجان أي شيء فقد هرب بمن معه، تأملهم كارم وقد كان الحرس أقل عدة، لكنهم أكثر عتادًا، تخرق سيوفهم الجثمان لتستقر أرضًا، فما تلبث أن تخرج الروح منها إلا وقد سقط آخر.
راغب نطح أحدهم بكتفه بقوة بالغة مسقطًا سيفه فتناوله سريعًا وقد خطت النهاية عندها، توقف الكل متأملين، راغب يبارز بالسيف كما لو كان يخط لوحة من الطراز الذي يعلق بقصور النبلاء، يطعن ويصد ويتفادى، مقطوعة راقية تعالت من صليل وأنفاس متتابعة وكأن الرجل يراقص موتاه، نضح وجهه بالنور واحمرت وجنتاه كما لو دبت الحياة به من جديد.
أسقط رجلًا ثم آخر، ليتناول زميلاه السيوف ويتهاوى الباقون، كارم حاول مجاراتهم فاحتمى عدة ثوان قبل أن يسقط أمامه مشعل منطفئ فتناوله، ولما كان مفتول العضلات يقارع ثلاثة في آن واحد وضاق عليه الخناق جرى نحوه هاويًا بما بيديه إلى مؤخرة رأس أحدهم ليسرق انتباههم فلم يدع المفتول لهم أية فرصة أخرى، فرصع الثاني ولم يبقَ سوى الثالث الذي انهال عليه كارم بكل ما بقي به من قوة، شعر أنه حقًّا احتاج لهذه اللحظة، تذكر خيانة أخيه وحكم البحر عليه، تذكر كيف رُمي بقلب النار منذ بضعة أيام، الهوان الذي رآه هنا كل ذلك صبّه على المسكين أمامه، لا بد أن له أمًّا تنتظره أو زوجة يعولها، لكن لم يهم، ألا يملك هو أيضًا حياة ليعيشها؟
لم يدرك أن الرجل قد مات بين يديه وضرباته لا تزال تنهمر عليه الواحدة تلو الأخرى قبل أن توقظه صيحات راغب:
- خلفي يا رجال.
صرخوا جميعهم، نور الحرية الذي اشتاقوا إليه ها هو بالطريق، عرجوا بالممرات سريعًا فضاق بهم النَفَس مع عددهم، ولسوء حظه أو حسنه -لن يعلم- كان بآخر الصف.
خطوات قطعوها بين الجدران وعلى الناحية الأخرى كانت نار... وقف راغب ذاهلًا أمام مفترق الطرق حيث يفترض أن يكون الباب بالممر الأيمن، لكن ما كان ينتظرهم هناك هو السجان برفقة خمسة من رجاله أمامهم سلة زيت العسل يميس الهواء من فوقها لفرط الحرارة.
- صبوا يا رجال.
صرخ الحامية بجلود محترقة تدفع السلة الكبيرة، التمعت أعين الماثلين وقد علموا المشهد التالي، صرخ راغب:
- تراجعوا!
لكن الأوان قد فات، السيل الأحمر راح يلتهم الأرض حتى ملأ عرض الممر، تكدسوا عائدين فهُرس الكثيرون ممن كان بوسط الصف وحرق كثيرون بأوله، وكان راغب أول من أكلته النار ولم يكن الأخير.

موج اللهيب يعلو وضحكات السجان من الناحية الأخرى، بينما هم يحترقون، ركض كارم، نهب الأرض كما لم يفعل من قبل، لم يهتم لقدمه التي راح الدم يقطر منها ولا لأطرافه التي التهبت جراحها من جديد فلم يشعر بأي شيء من الأساس سوى أن عليه الهرب، إلى أين؟ لا يهم ذلك أوان آخر لميعاد آخر.
لم تكن المصيبة بالزيت الحارق الذي طاردهم، بل إنه أذاب الصخر حتى وصل لتربة الزيت التي يستخرجونها وكانت المحرقة.
مئات صرعى بين الجدران وألسنة اللهب تطاردهم، عاد إلى الساحة مدركًا أن عليه سلوك ممر آخر وإلا احترق بمكانه، وقبل أن يفكر كانت النار قد برزت من عديد الممرات حتى بعض الزنازين خلفه راحت النار تأكلها، لهيب أزرق برز بعد كل هذا لم يره من قبل، تلك الألسنة لا تحتاج أن تطوله لتميته، فقد رأى من بعيد جثث الحمقى تذوب قبالها، تسقط اليد عن الصدر ويبرز اللحم ويسود كل هذا والمحروق حي يرزق.
لم يكن متأكدًا من الممر الذي يؤدي إلى السطح، لكنه عَلم عِلم اليقين أن هناك ممرًا من الممكن أن ينقذه، سلك أحد الشعب تأكل النار جدرانه حتى برزت الفوهة أمامه.
وقف قبالتها ثم رنا خلفه، فإذا بالنار تستبق بعضها نحوه، فلم يفكر مليًّا، وقفز متشبثًا بالسلسلة التي راحت تهبط به بسرعة مهولة حتى تهادت ببطء قبل القاع.
حاول التقاط أنفاسه برهة، الجو هنا حار لأبعد حد، ولهول الموقف السابق لم يشعر بكثير منه، ملأ صدره بالهواء الحار ثم مسح المكان بعينه، أول مرة كان هنا لم يرَ الكثير، لم يرَ سوى شلالات زيت العسل التي أصبحت قريبة منه هنا، لكن لسبب ما لم تكن حارة كما كانت بالسلة، رأى العجوز... العجوز الذي يقف أمامه الآن.
تراجع عدة خطوات للخلف مذعورًا، أتاه صوت أثيري هادئ تسلل إلى عقله قائلًا:
- لا تقلق.
هدأت نفسه، كان لوقع كلماته عليه سحر ما، سحرًا لم يعلمه.
- لقد انتظرتك كثيرًا.
لم ينبس كارم ببنت كلمة، فقط اكتفى بتأمُّل الرجل، عباءة متهالكة فضفاضة، كانت حمراء فيما مضى... ربما، أو بيضاء، عمومًا هي الآن باهتة رثة.
- اتبعني.
ثم أدبر كارم الذي لم يمتلك من أمره شيئًا سوى أن يتبعه.
- أعلم أن عقلك مشوش الآن، أعلم كم عانيت وقاسيت، أعلم كل هذا، لكن يجب أن تستمع لما سأقوله.
نور وهاج وهالة غريبة من الراحة أحاطا الرجل الذي بدا أنه يطفو على الأرض أكثر من كونه يمشي.
- لا يوجد ما هو مطلق، بل كل شيء ممكن، ما يسميه الناس صوابًا هو خطأ غُلف بنور زائف، عبد الناس سراج والجريح وطامس والتسعة وإله الكهوف وملك البحر وسيدة الغابة وأصيبوا باللعنة التي جابت الأرض فما أبقت، لكنهم نسوا الخوف.
مر به بين زقاق وزقاق حتى انتهى به غرفة مهولة، جدار مهيب عملاق نحت عليه لوحة أزلية، تشققت السماء بالغمام أعلاها بينها الملوك يقتتلون، أسفلها طائر الرخ المهول يحمل الباهموت بين مخلبيه محلقًا فوق شجرة عملاقة امتدتٍ جذورها إلى أسفل الجدارية بالمنتصف.

وقف العجوز حتى توسط الجذور، قائلًا:
- فيما مضى ارتكبت كثيرًا من الأخطاء، قاتلت من ساد الأرض ولم أكن ندًّا له، فلجأت لما لا يحمد عقباه الآن، قبل أن أموت قُسمت روحي إلى ألف شق تناقلوا بين حي الأرض، واحدة تلو الأخرى حتى وصلت إحداها إليك.
ارتعش جسد كارم الذي يراح يستمع الكلمات بذعر وأطراف مرتعشة:
- أنا سبب اللعنة وأنا من سينهيها، أنا المهاجر... أنا سراج... أنا الجريح، كلها أسماء امتلكتها، يا وليد الظل، يا من تجري دماء الفضة به، نادى المنادي فأجب النداء.
لم يشعر بجسده إلا قد تقدم مسلوب الإرادة نحوه، كان يشعر بأنه علم ما عليه فعله، مر من العجوز فتبخرت صورته ليرى أمامه عند منبت الشجرة هيكلًا عظميًّا رثًّا يلتمع فوق رأسه تاج من الذهب الأحمر.
جثم إلى الهيكل العظمي الذي أرجأ رأسه إلى الجدارية العظيمة ثم رفع التاج، انتصب في وقفته مترددًا، ملأ صدره بالهواء متذكرًا كل ما مر به في حياته ثم وضع التاج.
اجتاحته موجة من الحرارة، رأى كل شيء وعلم بكل شيء، رأى كهنة ظل اجتمعوا لدى بئر الحكمة، رأى آخر وليد ظل يحطم ألواح القدر بنفس راضية، مر بوقفته آلاف السنون علم فيها كل شيء، رأى أحدهم يدفع مسخًا بقلب السرمد الأسود لترتفع أعمدة من الذهب أمامه، رأى أبناء الجريح الأربعة، علم آخر الزمان وأدرك خبره.
تبسم واقفًا فانفرجت الجدارية ببطء لينسل منها نور وهاج، ثابتًا مد أقدامه حتى عبَرَ الجدارية التي انفتحت له، حتى الصخور شعر بها تناجيه، سمع ألف صلاة وصلاة تنادي باسمه.
وأمامه كانت منصة صخرية أطلت على آلاف من تماثيل الجنود الحجرية، تقدم قليلًا حتى توسّط تلك المنصة، شقت ثم غمغم:
- الآن يبدأ كل شيء.
فانبلج سيف عريض من الأرض مخترقًا قلبه، شلال من الدم القاني انهمر منه واقفًا بوجه شاحب، طال شعره مبيضًا، نزف فشربت الأرض العطشة دمه الذي جرى بها مالئًا الثغور والفراغات التي أصبحت أوردةً تجر الدم بها حتى برزت فوق تماثيل الجنود، اهتزت الأرض ورجفت فإذا بالقشرة الصخرية التي غطت الجيش الخامد تتساقط.
بعين ملتمعة ووجه مغبر شاحب ابتسم الأشيب الذي جهل كنهه أمام الجيش، واحدًا تلو الآخر ينظر ليديه متعجبًا ثم إليه.
رفعت السيوف حتى طالت رؤوسها عنان السماء يلتمع النور المتشابك من خلفها صائحين:
- نحو المجد.
غمغم واقفًا:
- والآن أين توقفت؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوس

تجمّد بقلب الدخان، رأى ألف عصر وعصر، شعر بيدي الكاهن المرتد أحاطت به بينما هما طائران.
رأى أرض النور كلها وكيف أكلتها النار، طاروا فتعدوا أراضي عدم كلها بظلامها الأبدي.

عبر الجبال وبعد وديان أراضي عدم السحيقة تقبع قرى ومدن النسيان، وفي أكبرها مدينة (سمراق) برزت كاتدرائية الظل شامخة بأحجارها البازلتية السوداء وشرَّاعاتها ذوات الإطار الفضي.
وفي الشق الأيسر من حرم الكاتدرائية برز البرج الذي كنف مخادع الكهنة وبعض المضحين.
داخل إحدى الغرف تدثّر كاهن شاب أسفل بعض الأسمال البالية مغلقًا كل مداخل الهواء، فأنفاس الشتاء قد هلت ولا يملك المرء منهم سوى التضرع والاختباء.
على الرغم من محاولاته الجهيدة للفرار من ألسنة البرد، إلا أنها قد نالت من بعض جسده... أقدامه تحديدًا قد أخذت ترتعش في صمت.
تمرُّ ساعات الليل السمجة حتى تهب نسائم الفجر عليلة لا تزال باردة، لكن أي شيء أفضل من زمهرير الليلة الماضية.
الحركة اليوم مضطربة بعض الشيء داخل الأروقة، فعلى الرغم من أن اليوم خالٍ من أي أنشطة، إلا أن الكهنة في الخارج قد هرعوا كالنحل السَّكِر يتخبط أحدهم الآخر.
طرقات اقتحمت مخدع الشاب صحبت بزئير يعرفه جيدًا:
- عسى أن تأكلك النيران ألا تزال نائمًا؟!
فلما لم يرد الشاب وزاد دثر نفسه أسفل الأغطية باغته الصوت مجددًا:
- قم يا ابن الغانية وإلا أوسعتك ضربًا.
ولدى صياح الأخير فيه دفع قدميه خارج الفراش... لحظات تأمل فيها السقف النتن، يعرفه جيدًا... يحفظ كل ثقب فيه؛ فقد تربى في هذه الغرفة بعد كل شيء.
رفع جذعه بتثاقل ثم وضع عباءة الكهنة السوداء وتناول عصابته، ببطء شعر بقماشها الخشن يلتف حول عينيه... لا يحتاج كاهن الظل عينيه لممارساته اليومية، فمن وقع عليهم الاختيار صغارًا لوهب حياتهم للكاتدرائية لا يحتاجون لأعين "أولئك الحمقى الذين لا يدركون حلاوة الطمس هم فقط من يحتاجونها" هكذا كانوا يقولون.
هبط درجات البرج العالي يشعر باضطرابات الأرض أسفله... يعلم أن الغرف قد خوت بمن فيها نحو المذبح، ويبدو أنه الأخير.
اقترب يتحسس خطاه بتوتر نحو أبواب المذبح العملاقة، بالطبع يعرف طريقه، هو يعيش هنا، لكنها أول مرة يجتمع الكهنة بهذا العدد داخل المذبح.
أنصت جيدًا عبر الباب مستمعًا للصدى المتردد، ولدى اقترابه من الباب باغتته يدان قد نزعت عصابته عنه، تراجع للخلف قليلًا في ذعر، إنها أول مرة يجول خارج حجرته بلا عصابة.
دارى عينيه بسرعة وانكمش على نفسه في الأرض، لو رآه أحد الكهنة الكبار بلا عصابة لتكونن دمائه هي التي يُتقرب بها لطامس اليوم في المذبح.
أتاه الصوت اللين الذي طالما أسكنه الطمأنينة:
- قف يا فتى.. قف لا تخف.
خلف أصابعه الرفيعة مدد بصره، لم يكن ليعرف أيًّا كان من يقف أمامه من هيئته، فهو وغيره لم يروا أحدًا، لكن الصوت يعرفه جيدًا.
- المعلم (بشير)؟!
- قف يا فتى لا تخف، أنا من أخذت عصابتك.
وقف الفتى ببطء مغطيًا عينيه، زفر المعلم بشير في ضجر:

- هلا أسرعت سنتأخر عن القداس. افتح عينيك هناك ما يجب أن نراه جميعًا.
كشف عينيه سريعًا، لم يعلم أن مدخل المذبح بهذا الجمال، باب ذا تسعة أقدام من الطول جله من أخشاب البلوط السمراء، مرصع بالأرجوان والزفير.
أجفل الفتى قليلًا أمام الباب متأملًا إلا أن ذلك لم يدم طويلًا، فقد قهقه المعلم ببضع ضحكات كانت كفيلة بنزع الفتى مما كان فيه، تذكر المعلم أول مرة أبصر فيها المذبح وأجفل بذات النظرات، وسريعًا جذب الفتى من يديه عبر الباب.
كانت القاعة كبيرة ملئت عن آخرها بالكهنة، وعلى جانبيها كانت الأعمدة الرخامية تزين المكان على الرغم من أن أحدًا لم يكن ليراها، إلا أن اليوم مميز، وقد بدا أن منصة المذبح ربما هي أقل ما يهم الماثلين، فنصفهم "يرى" العالم خارج حجرته لأول مرة.
في منتصف المنصة بمقدمة القاعة برزت بئر ذات أحجار صدئة قد أكلتها الأعشاب وراحت تسد الفراغات بين الحجارة المهترئة.
بجانب البئر وقف جلوان برداء أسود كالكهنة، إلا أنه بدا جديدًا لامعًا على نحو مريب، خصوصًا مع انسدال قلنسوة قد غطت ثلث وجهه.
صاح بقوة:
- أحضروه!
فتقدم من طرف المنصة كاهنان وقد أمسك كل منهما يد أوس أو ما بقي منه مكبل بعناية، كان أصلعًا، نصف عارٍ، ذا جسد غزته التقرحات والندوب، حتى رأسه برز فيها ندب بعرضها.
أخرج من كمه زجاجة لدى اقتراب الكاهنين منه، وبخفه رش محتوياتها على المكبل، تعالى الدخان من جلده المكشوف وارتفعت صيحاته فانكمش الحشد وتعالت الغمغمات.
- ثبتوه.
رفع الكاهنان أوس حتى ثبتا رأسه جيدًا على حافة البئر، بينما تصاعدت الصلوات من الكهنة خلفه.
- الأرض ومن عليها كلٌ إلى الممات وليعلو اسم طامس بين السماوات.
استل الرجل الطويل خنجرًا من عباءته الفضفاضة، فالتمعت الجواهر التي زينت المقبض، بينما اقترب ببطء من الرجل المكبل.
صاح بيأس:
- أرجوك... أرجوك لا تفعل، بحق طامس وسراج والجريح... لا تفعل.
اشتدت قبضة الرجل على مقبض الخنجر هادرًا فيه:
- أتندس بيت طامس بذكر أولئك الأنجاس؟!
ودون تردد وضع حد الخنجر على عنقه، عندها بلغت الصلوات ذروتها:
- حد الحقيقة أمضى من الحسام، ومن قلب النور يولد الظلام.
غمغم المكبل:
- أيها الخائن.
همس الرجل في أذنيه:
- على أحدنا أن يدنس يديه.
ثم زفر قائلًا بخشوع:
- من قلب النور يولد الظلام.

وببطء... ببطء شديد مرر حد الخنجر على عنقه، فشعر بدمه الدافئ وقد سال على يديه قبل أن يخرج الرجل حشرجته الأخيرة وتنسحب الحياة منه بلا رجعة.
أمسك الكاهنان الآخران ساقي الفقيد ثم ألقوه في بطن البئر... رفع جلوان يده بالخنجر عاليًا مغرقًا كمه بالدماء صائحًا في الكهنة:
- لم يبقَ الكثير يا إخوتي.
هلل الكهنة من أمامه، فهمس:
- لم يبق الكثير...
قبل أن يلعق الدم من أطراف أصابعه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قمر بلا سماء

برحم الغابة وقف أمامه، لم يدرِ حقًّا إن كان ما يراه صحيحًا، التفت أغصان الشجرة العتيقة حوله، كنفته وكأنما نمت من قلبه إلى الأرض.
كانت تستمد قوتها منه لها ولإخوتها.
ألف عهد مر، جاء ملوك ومات آخرون، وهو هنا لا يزال منتظرًا، اقترب منه لا يدري حقًّا صدق ما يراه، خرجت الأغصان منه لكنه ميز صدره الذي دل على تنفسه.
خرج صوت الشيخ رخيمًا قائلًا:
- انتظرتك كثيرًا.
وقف أمامه بجسد مرتعش منصتًا:
- حيرة الجهل مضنية... أعلم ذلك.
سكت برهة، ثم أتبع:
- طامس... آبق... كلها أسماء عرفت بها على مر العصور، والآن حان الوقت ليتذكر العالم من أنا.
وللقصة بقية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شكر واجب

إلى صديقي العزيز: محمد ياسر الذي دومًا ما ساندني.
إلى الأعزّاء: سما هاني، حسن السيد، كيرليس هاني، شكرًا لأنكم أنتم.
إلى أمي الثانية: إيمان أبو الليل.
وإلى الصديق العزيز الذي أوقعني في فخ القراءة: مصطفى محمود.
جزيل الشكر لكم أجمعين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

إهداء..

تمهيد..

نداء الهاوية

طامس

كارم

حكيم

طريق الموت

كارم

حكيم

أوس

كارم

حكيم

أوس

كارم

نداء العرش

سميح

حكيم

أوس

كارم

حكيم

أوَّاه

جلوَان

أوس

كارم

حكيم

جهير

جلوان

مصباح

كارم

نداء الموت

جهير

جلوان

مصباح
أوس
حكيم
كارم
أوس
قمر بلا سماء

شكر واجب